

روای

v. 1

9569: R624A



**CLOSED
AREA**

CLOSED
AREA

CA CLOSED AREA

v.1, [redacted]

الرياضي فاسكندر

CLOSED AREA قبل وبعد

DATE	Borrower's Number	DATE	Borrower's Number
18 JUL 76	74-1378		

CA:956.9

R 629A

v.1, [redacted]

Closed Area

~~5 AUG 1969~~

~~JUL 65~~

~~4 AUG 1969~~

JAFET LIB. CLOSED AREA

JAFET LIB. [redacted]

~~1 Feb 65~~

~~20 Jun 66~~

JAFET LIB. 31 DEC 1971

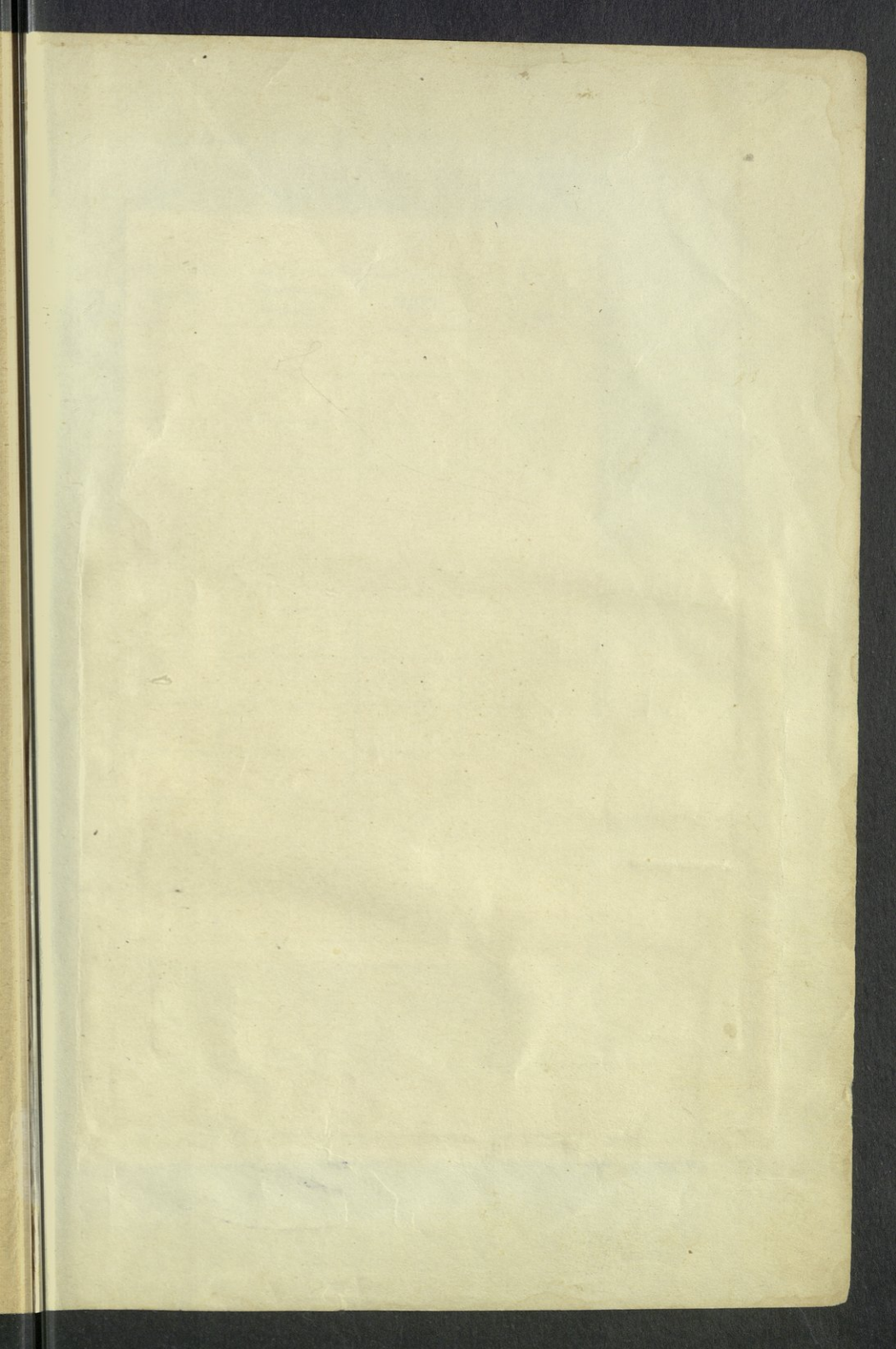
~~15 Aug 68~~

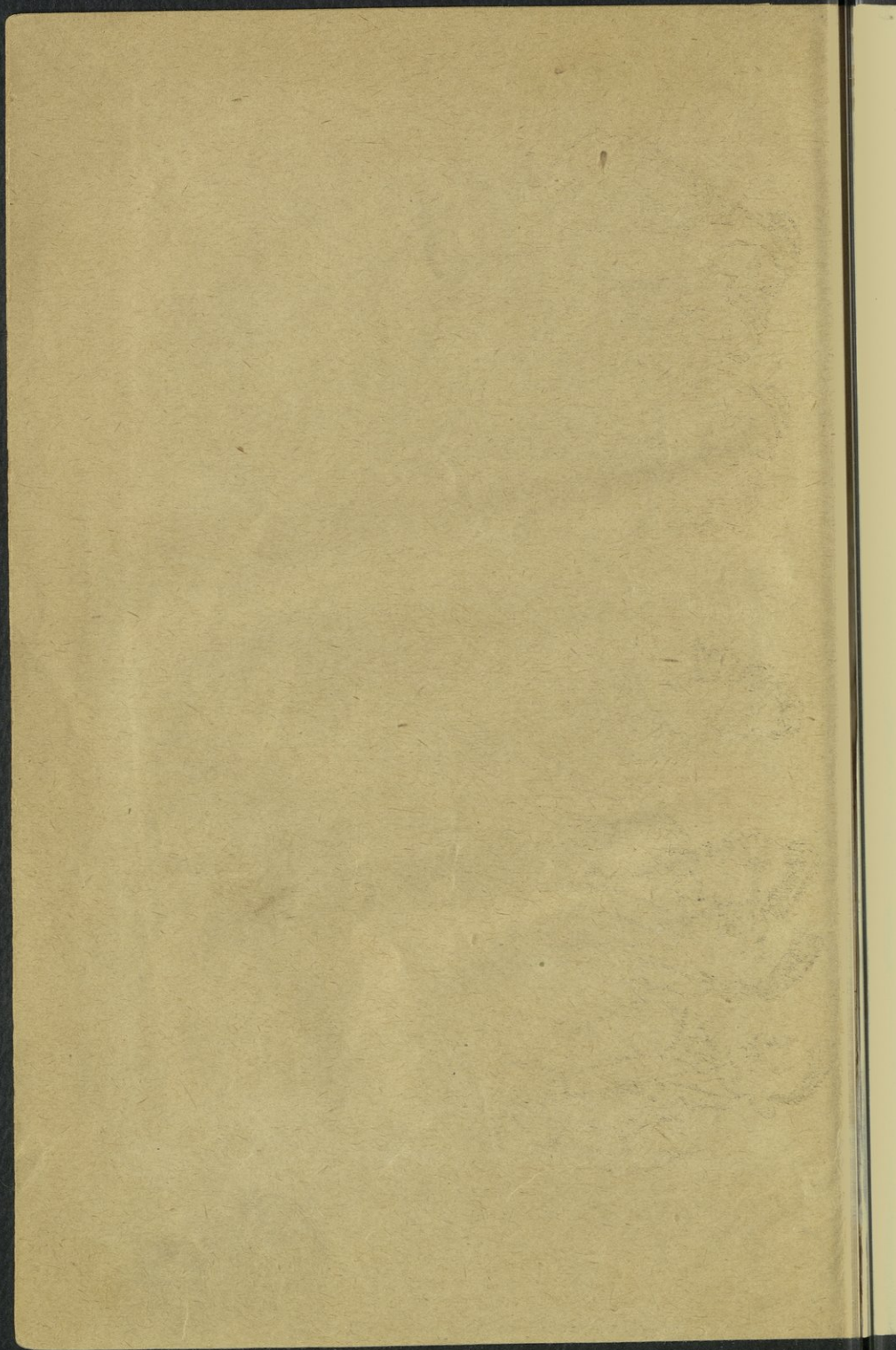
~~30 MAR 1976~~

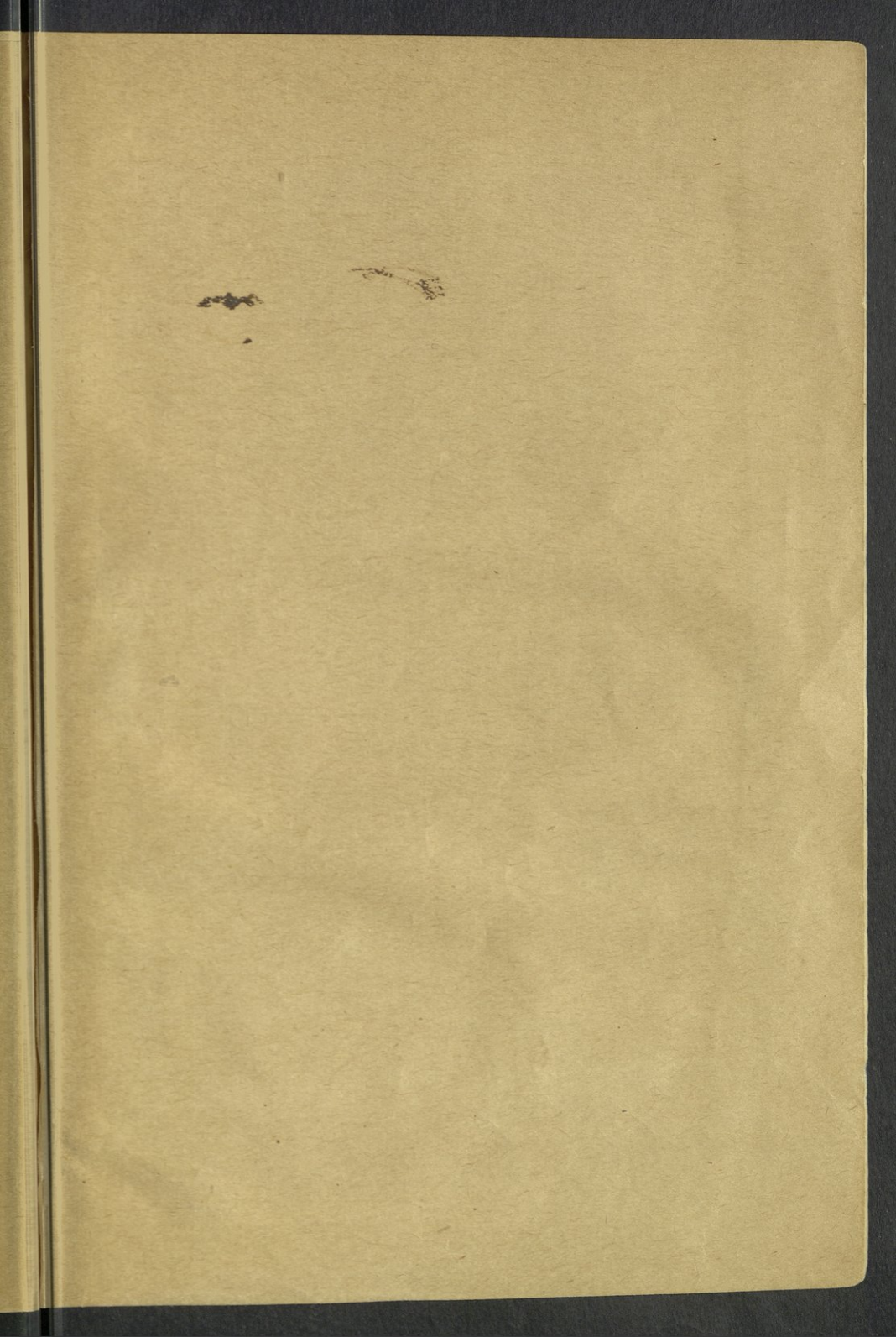
JAFET 1976B.

~~14 Mar 69~~

~~23 JUL 1975~~







قتل وعبير

نظرات اسكندر الرباشي

الكاتب الاكثر قراء في البلاد ، ومؤلف
الكتاب الدولي الذي سبقته شهرته طبعه :
« نعيش مع الالهة » يصدر قريبا ، وبوقت
واحد ، في نيويورك بالانكليزية ، وفي باريس
بالفرنسية ، وفي بيروت بالعربية .

CC: Pamy, C. S. P. 1953

مطابع « دار الحياة » - ١٩٥٣

كلام عن المؤلف

قال الريحاني في كتابه قلب لبنان :

« هذا الصحفي اسكندر رياشي له
فن خاص ظريف لبق مطلع بالكتابة ،
فهو يقرأ الف سطر ليكتب سطرًا ! »

سنة ١٩٤٨ قال الجنرال كاترو في
حفلة للمفوضية العراقية ببيروت
ملاطفًا: « هذا الصحفي التائه هو اكبر
وانبه صحافي عرفته في الشرق ! »

كلف الملك ليوبولد البلجيكي أثناء
مروره ببيروت سنة ١٩٣٦ قنصله
العام بزيارة صاحب «الصحافي التائه»
حاملا له رسالة من جلالتة تقول :

« ما كتبته جريدتك عنسي بصدد
زيارتي بيروت ، فيه من اللباقة
والبراعة والخبرة الصحفية ما
أدهشني ، وذلك لعدم معرفتي ان
الصحافة في الشرق بلغت هذا المستوى
من البعافة والحدافة ! »

نشر الكاتب الاميركي الكبير المعروف
هوارد كابلين في مجلة « البارتران
ريفيو » سنة ١٩٤٧ يقول :

« عرفتني الشرق الاوسط فولتير جديدا
لا يقل عن فولتير الاول براعة وثبوغا ،
اسمه اسكندر رياشي وعنده جريدة
ممتازة تصدر في لبنان بلاد الارز . »

اسئلة واقعية

سؤال - من عمل الاستقلال؟

جواب - هتلر!

سؤال - لماذا يسمون بـسـمـوت

شنغاي البحر المتوسط؟

جواب - لان الفساد والاستقلال

والتجارات ولدت فيها!

سؤال - من عمل الانقلاب؟

جواب - المسيو بوسون!

الجواب على الاسئلة

- عمل هتلر الاستقلال عندهما

احتل باريس .

- كان الفساد نائما نوعا في شنغاي

البحر المتوسط فجاء دي مارتل

لا يحترم شيئا ولا يحرم شيئا وايظنه

فيها .

- عمل ((بوسون)) الانقلاب عندما

استدعته ادارة البنك لفرنسا ، وفصلته

عن رئاستها ، وسحبت الملايين

التي كان قد مول بها المشاريع

والتجارات والصناعات في لبنان .

تقدمة هذا الكتاب

... للسذج المغرورين المخدوعين
للناس الملاح الذين لا يزالون يعتقدون
أن في لبنان زعماء سياسة ، يحسبون
الاستغلال جريمة والنزاهة فضيلة
في بلاد كانت - على مدى الاجيال -
تحسب القاتل بطلا ، والمتلاعب نابغة،
والذي يمكنه ان ينهب ويسلب ولا
يفعل « اهبلا » !

عندما يزول ارز لبنان يزول لبنان!

هكذا كان يقول « ارنست رينان » الفيلسوف الفرنسي الذي زار لبنان في منتصف القرن الغابر ، وكتب عنه اشياء كثيرة شيقة قيمة. وكان - بعد فولني - اول من عرف اوروبا بصورة ايجابية على هذا الجبل الذي سماه فولني « جبل الوارثة » .

ولارنست رينان فيه رسائل حب ، اثبت فيها ليس عاطفته الفرامية الرقيقة فحسب ، بل عبقريته الكتابية وبلاغته اللاذعة المشهورة ايضا . وهذه الرسائل تبادلها مع حسناء لبنانية اشتهرت في زمانها بحرارة العاطفة وظريف الحديث ، وها ماتزال محفوظة في بيروت عند ابنة اخيها الحسناء السيدة روز ابو شعر ، التي ورثت عن عمتهما ما اشتهرت به في صباها من غنج ودلال .

وكان رينان قد نزل ضيفا على تلك السيدة - واسمها مريم خضرا - في بيتها في قرية « القرية » في المتن الاعلى ، المعروفة بمعاملها الكبيرة للحرير . وهي معامل يدعونها عادة في القرى الجبلية بالكرخانة (كارخانة)

ومن هنا يومئذ جاءت استعارة اسم « كرخانة » للبيوت العمومية ببيروت ، اذ ان معامل الحرير كانت تستوعب دوما مئات البنات كعاملات مما كان يخلق للرجال جوا من الشبق والشهوات ، ويسبب في المعامل بليلة واهواء ، غالبا ما تنقلب هائجة عاصفة !

وانما يجب القول ان الفضل الاول في تعريف لبنان الى العالم باجمعه واخصه الى الغرب ، كان دوما للكتاب المقدس ، فاي رجل في اي بلد كان ، واية فتاة في نيويورك او مونتريال مثلا يأتي اسم لبنان امامها ، ولا تقول لك : اليس هو الجبل المقدس الذي بنى سليمان هيكل اورشليم من ارزه ؟

وهكذا ، طالما في رأس الجبل الارز الخالد طالما لبنان في الوجود .
وما جاء ذكر لبنان في الكتاب المقدس وفي الاساطير القديمة الا
مصحوبا دوما بكلمة الارز يرافقه ولا ينفصل عنه - كجزء لا يتجزأ منه ،
وكرمز دائم الاخضرار له .

ثم انه بعد الفتح الاسلامي ، لولا وجود النصارى في جبل لبنان ،
لما كان لبنان ذا استقلال على مدى الازمان ، مهما كان ذلك الاستقلال نسبيا
منذ القدم حتى اخر عهد السلطنة العثمانية ، ولما كان هناك من داع لجعله
منفصلا عن باقي البلدان التي حوله ، اذ لم تكن هناك فواصل جغرافية
غير جبال وانهار - لا يمكنها ان تشكل لوحدها منطقة مستقلة طبيعية .

وكانت اشجار الارز الرمز اللبناني في البداية ، ثم جاءت النصرانية
بعد ذلك وطبعت الجبل بالخاتم الماروني ، وقد جاء به رجل تقي بار من
بلاد ما بين النهرين ، ونزل على ينبوع العاصي ، في كنف جبل الهرمل ،
حيث لا تزال مغائر ديره منقورة بالصخور على الرابي السماء مرتفعة فوق النهر
وحيث انطلق بعد ذلك تلامذته الى الجبال يتسلقونها ويبشرون عشائرها
المحلاة من عباد الاصنام بالمسيحية المجلة السماوية .

وكان لبنان قبل المسيح ، وبعده باجيال ، وقبل الرومان جبلا
حصينا مشيدا ، يقوم في وسط سهول وصحارى لا اول ولا اخر لها -
يعتصم فيه اهله ويعيشون لوحدهم معتكفين الى آلهتهم - الى فقرهم
من جهة ، والى قروسيتهم وروحهم المتمردة دوما من جهة ثانية .

وما كانت الشعوب التي حول جبل لبنان تجد فيه شيئا من
الخيرات والسعة لتطمع فيه وتخاطر بالقتال لاجله ، فتحاول اكتساحه
وامتلاكه

اذ انه كان دوما جبلا اجرد ، ليس فيه مراعى لغير الماعز ، وليس فيه
قطعان غير الدببة والذئاب !

وما كان الفاتحون الاتيون من الغرب للشرق ، او من الشرق للغرب
يعبرون بسواحله ، الا مرور طريق ، واذا اقاموا فيه ، لم يكن ذلك طويلا .
ولم يكونوا باجمعهم يطمئنون اليه ، لا من جهة الاعاشة والسلب ، ولا

من جهة الطمأنينة من عصاباته المتحصنة في مغاوره ، واغلبها مؤلفة من قطاع طرق ، لا يعرفون شريعة ولا شفقة .

كما انه ولا شك لم تكن مهاجمة الفاتحين اللبنانيين في حصونهم برؤوس الجبال شيئاً سهلاً المنال ، في وقت لم يكن فيه البارود في هذا الوجود .

وبعد ان بدأت الحضارة واستقرت في هذا الشرق وتميزت الدول وخرج الناس من شريعة الغاب وحياة المفائر ، صار لبنان - او بالاحرى ما استقر مرة واحدة - الا على قاعدة تسويات دولية متتابعة ، اخذت تتميز كل يوم عن يوم حتى اصبحت حياته السياسية باجمعها ، بعد القرن الثامن عشر تتقلب على مختلف التسويات التي مرت به .

ولا يعرف احد شيئاً واقعياً ثابتاً عن لبنان وكيانه السياسي قبل بزنة ، ومن بعدها العهد العثماني .

وجميع المؤرخين ، من كبارهم حتى صفارهم الذين يقولون عكس ذلك والذين كتبوا للبنان تاريخاً سياسياً قبل المسيح بالف سنة ، وبعد المسيح بالف سنة كانوا مختلفين فلكيين ابتدعوا سراً واحداثاً وروايات املتها عليهم تخيلاتهم وبعض القرائن المبهمة ، التي لا يمكن ان تكون قاعدة صحيحة لكتابة التاريخ .

وبدأت التسويات الدولية للبنان بوجه صريح في عهد الاتراك فكانت هذه التسويات الاولى المسجلة والمعروفة واقعياً بين السلطنة وبين دول الغرب ، التي عاش لبنان فيها سحابة اربعمائة سنة .

كانت اوربا - واخصها فرنسا - تحاسب السلطنة في كل مرة تريد محاسبتها حساباً صارماً على مصالحها ، وذلك مقابل تسوية لبنانية جديدة ، غايتها اعطاء فرنسا حق حماية النصارى في الشرق .

وكانت حماية النصارى مستوحاة ليس فقط من غيرة الفرنسيين على ابناء دينهم هنا ، بل كانت ايضا حجة اساسية لتدخل هؤلاء ، عندما يشاؤون ، في امور الدولة العثمانية ، وذلك في سبيل مصالحهم ومنافعهم .

وكانت التسويات جارية على اساس انه لا يعيش لبنان جندياً

ولا عبدا لبني عثمان - بل ولاية عثمانية اسميا فقط ، تحكم نفسها بنفسها بالطريقة التي تراها الاصلاح ، ولا تحفظ للسلطان غير الدعاء بالعز والاقبال عانا والدعاء له بالخراب والموت ضمنا .

والتسويات اللبنانية كما قلنا كانت دوما تتوالى على مدى الاجيال ومع جميع الفاتحين ، وكانت بعد بيزنطة مع بني عثمان ومن بعدهم مع الفرنسيين سنة ١٩١٩ ، ومن بعد هؤلاء مع الانكليز سنة ١٩٤٣ ، ولكن هذه المرة بطريقة غير مباشرة .

والان بعد الاستقلال ، وجلاء الاجنبي عنه من انكليز وفرنسيين ، قامت التسوية الفلكية العجيبة الكبرى التي نعيش فيها والتي لا يوجد لها مثل في التاريخ السياسي . وهي التسوية التي تضمنها الان بطريقة معنوية جامعة الامم المتحدة .

والتسويات اللبنانية المختلفة المتنوعة كانت على مدى الاجيال وحتى هذه الساعة ، اساس كيانه ، ويجب هنا القول كحاشية ان التسوية الاخيرة مع جامعة الامم المتحدة جعلت لبنان - ومعه سوريا التمس ، كانت اشتركت معنا بالانتداب الفرنسي وتحررت منه بعد ذلك - هذه التسوية جعلت لبنان وسوريا الدولتين الوحيدتين بين الدول العربية مستقلتين فعلا وواقعا .

اذ انهما بين جميع دول هذا الشرق العربي ، ليس لهما اية معاهدة مع دول الغرب الكبرى ، كما هي الحال مع مصر والعراق وشرقي الاردن .

قلت ان سوريا ولبنان وحدهما غير مرتبطتين باية معاهدة ، وقد استطاعتا حتى الان منذ استقلالهما ان تنقدا نفسيهما من مثل هذه المعاهدات .

ومنذ خرجت اوروبا من المجهول الى عهد الحضارة ودارت وجهها نحو الشرق ، تخيلت لبنان - كما وصفه لها الكتاب المقدس : ارز الهيكل ومهبط الوحي ، وغرام الملائكة ، فميزته السماء عن بلدان الشرق الاخرى وحبته طبيعة ممتازة منفصلة - معنويا - وجبالا وطقسا ووديانا ومياها ، عن سهول سوريا وصحارى الجزيرة وارض كنعان .

وبعد ذلك اخذت تلك الدول الغربية تتدخل في امور لبنان بحجة

حماية حملة الصليب الذين اعتصموا به واتخذوه حصنا لايمانهم من اهله
الاصليين، وممن جاءه لاجئا هاربا من المذابح الدينية التي كانت تقوم
وراء جباله

وكانت فرنسا ابنة الكنيسة البكر ، وحاملة علم الايمان قوية وقديرة
فاقامت نفسها قبل باقي دول الغرب حامية للبنان ، مع ان الفرنسيين
ليسوا اول من جاء لبنان من الغربيين ، وليسوا اول الذين تاجروا معه
وحملوا مدنيتهم اليه . بل كان الاولون ايطاليين من دولة البندقية حتى
دولة جنوا ومن بعدها فلورنسا وغيرها ، فاقاموا متاجر كبيرة لهم عندنا ،
وتعاملنا معهم بطريقة قريبة جدا ، ادخلت الى لفتنا كثيرا من الكلمات
الايطالية ، نستعملها اليوم كانها كلمات عربية صرف .

ثم اكتسحت فرنسا مراكز جميع هؤلاء ، وجاءتنا متصادقة متوددة
وجعلت لبنان على ممر السنين مرآة عنها في مدارسها وبعثاتها العلمية
والتجارية والعسكرية وغيرها ، التي ارسلتها بكثرة الينا ، والتي كانت
اساس الثقافة عندنا .

التسوية الاولى بين السماء ولبان!

والاسطورة الشعرية السماوية ، اسطورة الملاك العاشق سيدار ، كانت بالاحرى التسوية الاولى الاستقلال النسبي حيناً - والكامل احياناً - الذي تمتع به لبنان منذ الوجود .

كان الملائكة بعد الخليفة يهبطون كل مساءً فوق ارز لبنان ربوات ربوات ، وقد اصطفوه لجماله واصفائه بين باقي البلدان ، وجعلوه المختار من الله والحبيب على قلبه .

كان الملائكة يهبطون من سمائم يحومون فوق ارز لبنان مهللين مسبحين ، يمجدون الله باناشيدهم الساحرة في جمال هذه الطبيعة بجبال لبنان والتي لم تخلق السماء لها مثيلاً .

وذات يوم كانت صبية لبنانية من بنات الجبل العالي ذوات الجمال الساحر والخذ الاحمر والعين الكحلء مسترسلة الى نوم هنيء ، وقد اسندت رأسها الجميل الى جذع شجرة ارز ضخمة قديم ، وقد حامت حول ثغرها ابتسامة لطيفة ، تنم عن عذوبة قلبها وطهارة عاطفتها .

وكان بين الملائكة ملاك اكثر عاطفة وارق قلبا من رفاقه .

وكان قد جمع في حيويته حرارة فتيان الارض وشهواتها!

وكان اسمه سيدار .

وحالا عندما شاهد الفتاة بجمالها الجذاب اصابتها صاعقة الغرام في قلبه ، وشعر بالحب يمتلك جوانحه .

حب ابن السماء لبنت الجبال .

واخذ يجعل تشيده لله اكثر حنوا وعذوبة من اناشيد رفاقه باقي الملائكة .

واخذ الحب يزداد به حتى اصاب عقله .
واخس اخيرا انه صار اقرب للارض منه للسماء ، وانه لم يبق
عنده صبر ولا قوة للانتظار ، فرمى بجناحيه في الفضاء ، وعاف جنة
الله وهبط على الارض ، وجاء جميلا وصاحا مستهما ، يحتضن بلهفة
بنت الجبال .

وتلقته الصبية المصطفاة بين ذراعيها .

وكانت له وكان لها !

ومتهما ولد المردة !

المردة اللبنانيون الذين كانوا عمالقة الجبال ، والذين كما تقول
اسطورة تاريخية اخرى ، هم ايضا اجداد المردة في بلاد الالبان !

وكان احد الغزاة قد اغرى بعضهم عند مروره بلبنان ، فشكروا
فرقة منهم صحبته الى الغرب حيث قطنوا في جبال البانيا ووجدوها اقل
جمالا من جبالهم ، ولكن اكثر جمالا وفتنة من باقي الجبال الاخرى التي
عرفوها ومروا بها .

وطبعا على توالي الايام توالى الديانات في لبنان ، وذلك تبعا لمتنوع
الالهة الذين انجبتهم هذه البلاد . وكذلك تبعا للديانات العديدة التي كان
يجيء بها الفاتحون الذين مروا به ،

ولكن قبل النصرانية وقبل الاسلام - كانت ديانة عشتروت للبنانيين
ابهج واشهى الديانات ، واليهل كان الاكثرون يجنحون وينزعون لها بالديانة
واسطورة عشتروت ربة الجمال مع عشيقها ادونيس الجميل
انبثقت في هذا المشرق واخذت بعد ذلك تكتسح وتملأ هذا العالم في هذا
الخطر العتيق من المومور ، فتسكره من غيرها وجمالها .

نزلت ربة الجمال والحب ذات صباح الى لبنان ، وقد عافت الحنة
بعد ان اتعبها غرام الالهة ، وما تلاقيه بين احضانهم من صلف وتحكم
وجاءت تستريح في بقعة ساحرة على ضفاف الغدير في جبل افقه المدفوع
عند اهله بالفردوس على الارض .

وشاهدت المعبودة فتى راقدا على بساط الحشيش السندسي ،
ووجدته اجمل واكثر فتنة من آلهة الاولب ، وتخيلت ايروس وكوبدون
ومارس وجوبيتر نفسه رب الارباب عشاقا مبتلين عاديين . واذا كانت
فيهم روح الالهية فليست فيهم رائحة الجبال وعطورها وماتشير
من شهوات .

واعطت الربة جسدها الالهي لادونيس ابن الارض وصارت كل يوم
تفر من مملكة جوبيتر ، لتلاقي عشيقها على ضفاف الفسدير ، حتى
غار ايروس عشيقها الالهي الافضل والاكثر جنونا بها ، فقلب نفسه خنزيرا
بريا مخيفا ، وجاء النهر ينطح بطن ادونيس وقلبه ، عندما كان راقدا
سعيدا على ضفافه ، وتنازرت دماء ابن الارض حول الفدير ، فانقلبت الى
زهور الشقيق الحمراء التي ما زالت مراعي ذلك الفدير تزدان به ابدىا .

وعندها بدأت عبادة رب الحب والجمال ، وشيد اللبنانيون على رأس
كل ينبوع وعلى ضفة كل جدول هيكلا لعشوت ، التي انتقت فدير
افقه للمقى حبيبها الجميل ، فظهرت هكذا اصطفاؤها للينابيع والجداول
والاغدير موعدا للغرام .

وكانت عبادة عشوت تقوم على اعطاء العذارى زهرتهن للكهننة
على مطالع الهياكل . فالربة - ربة الجمال والحب - لم تجد قربانا تقدمه
الارض لها افضل من اعمال الحب على مطالع الهياكل .

وكانت تقوم هياكل صغيرة لعشوت ، تصطف على طول الشاطيء
من صور الى انطاكية . وهذه الهياكل الصغيرة (الكابلات) باقية حتى الان
على طول ذلك الشاطيء ، ولم يطرأ عليها تبديل في عهد المسيحية غير
استبدال تمثال عشوت الفاسقة بتمثال العذراء الدائمة البتولية
والكمال .

واذا كانت الان لا تزال الاجواء تعبق بالشهوات والشبق في اي مكان
من جبل لبنان قامت فيه منذ اجيال واجيال هياكل لعشوت ، فذلك
هو البقية الباقية ، والاثر الجنسي الخالد الذي تركه عذارى ذلك الزمان
في تلك الهياكل ، عندما كن يقدمن بتوليئاتهن ببهجة وغبطة لربة الجمال
والحب وارواء لشهواتها السماوية والجنسية !

ويلاحظ القاريء اليوم ان افضل ملتقى للعشاق واهل القرام كان
دوما ، وحتى الان ، في نهر ابراهيم مثلا حيث كانت تقوم اعظم
هياكل لعشوت ، وحيث رائحة الشهوات لا تزال تنضح على ضفاف النهر
المقدس الذي سالت فيه دماء العذارى غزيرة حارة ، كانت تجعل مياهه
- حسب الاسطورة - وحسب ما يخيل للناظر اليها - حمراء اللون .

وهذه ظاهرة يمكن ان نحسبها ناموسا طبيعيا ، نجد فيه الحاضر
يعيش في الماضي ، ليس فقط في تاريخه وتذكاراته ، بل ايضا في اجوائه
وهوائه وشهواته .

لذلك يتخيل العارفون الحكماء ان البناني في هذا الوقت لا يفرق
عن اللبناني في العهد الصخري والحديدي الا في اللباس والجلوس على
الكراسي والقراءة .

ولكنه في العبادة والاخلاق ، وفي حياته الفكرية والجنسية باق كما
كان ، ويبقى هكذا على مدى الدهور .

وكما ان استقلال جبل لبنان على مدى الاجيال قام على قيم معنوية
فقط - فانما كل لبناني امس واليوم وغدا يعيش على ماضيه وليس على
مستقبله .

لذا ترانا ننظر بالامر لما كان اكثر مما ننظر لما سيكون . ومن هذابتت
هذه السياسة الارتجالية التي سيطرت وتسيطر دوما على حياتنا العامة:
سياسة مداواة الحاضر بالحاضر ، والتلذذ والتغني والاعتزاز بالماضي
وترك الغد لله ، يتدبره كما تدبر لنا اليوم الذي نحن فيه .

وهذه السياسة الارتجالية هي التي كانت قاعدة لجميع المخالفات
والاعمال الاعتباطية والمفاسد والمخازي التي قامت في عهد الاستقلال بعد
سنة ١٩٤٣ وقبله ، حين تركنا الغربيون نحكم نفسنا بنفسنا ، واحاطت
المفاسد بصورة خاصة عهد الرئيس السابق الشيخ بشاره الخوري ، الذي
يدور هذا الكتاب واحاديثه في فلكه ، وهي مفاسد جعلت نور امجاده في
خدمة الاستقلال وعهده الظافر في السيادة الوطنية يتضاءل وينوص .

فانما هذا الكتاب ، الذي سيكون خليطا طريفا وحقيقيا لكل الاحداث

التي جرت في لبنان منذ انفضل عن الدولة العثمانية حتى الان ، يجب ان يتلاقى في النهاية مع الشيخ بشاره الخوري في جميع ما يسطره ويقوله .
 وليس ، ولا شك ، احد الم بكل الامور وكل الاشياء وكل الخفايا من حياة لبنان في عهد الانتداب وبعده اكثر من هذا الكاتب الذي يحدثكم الان ، والذي كان له في كل الحوادث والاحداث دورا لعبه .
 وسيكون حديثه كما يعهد الناس فكها طريفا لبقا ولكن واقعيئا
 ايدا .

عندما اشترى عمال فرنسا لبنانه الفرنسيين

... وكان ذلك طبعاً بالمال ، الرب الثاني عند جميع الناس ، والرب الاول في بيروت عاصمة لبنان ، قاعدة التجارة والمتاجرة منذ ايام الفينيقيين والمعروفة الآن عند الغربيين بشنغاي الشرق الاوسط ، وسوق الذهب في هذه الايام ، وحيث يقوم الممر العام للشيوعية في البلدان العربية ، كما تدعي جرائد اميركا وانكلترا المحافظة المعروفة .

هكذا ابتاعت فرنسا الانتداب عندنا ، قبل العاطفة وقبل التقاليد الفرنسية - المارونية ، بالجنهات المصرية ، التي كانت عملة الفرنسيين الرسمية عندما وصلوا مع الانكليز في تشرين الثاني ١٩١٨ للبلاد اللبنانية . وكان الجنيه يسوى ليرة انكليزية ذهبية ، وغرشين ذهباً ونصفاً علاوة .

فانما تلك الجنهات هي التي جعلت بالاحرى اللبنانيين يخرجون باكثريتهم من الحيرة التي كانت قد استولت عليهم في الايام الاولى للاحتلال وذلك من جراء جهلهم لمصيرهم ، حتى اليوم الذي اخذ فيه الجانبان : الجانب الانكليزي والجانب الفرنسي ، يتنازعان ويتزاحمان على وضع يد كل منهما على هذه البلاد (١) .

وفي البداية كنا نتساءل حيارى : هل تكون هذه البلاد لملك العرب الحسين بن علي وابنه فيصل الذي كان قد دخل الشام بجيوشه الظافرة ، يقف وراءهما الانكليز ويساندونهما ؟

أم تكون للفرنسيين وقد وصلوا الى هذه البلاد فرقة صغيرة جداً ضمن الجيش الانكليزي العزمم ؟

(١) ظل لبنان، تحت الحكم الفرنسي المباشر من تشرين الاول ١٩١٨ الى ان اعلن الجنرال غورو استقلال دولة لبنان الكبير في اول ايلول ١٩٢٠ ، وعلى الاثر الف لجنة ادارية تمثيلية من ١٧ عضواً استمرت حتى ايار ١٩٢٢ . وكان تساعد الحاكم الفرنسي على ادارة البلاد . وبعد ذلك جرى انتخاب المجلس النيابي الاول في ايار ١٩٢٢ ، وكان مؤلفاً من ٣٠ عضواً ، وترأسه حبيب باشا السعد .

نعم ، كان للانكليز زبائنهم في جبل لبنان من الدرروز والمسلمين ، الذين غرتهم عهود لندن بانشاء امبراطورية عربية كبرى نواتها عرش الملك حسين بن علي وعروش ابناؤه الموعودة في سوريا والعراق ، وغيرهما من البلدان العربية . وهم يكن شرقي الاردن حتى ذلك الوقت ينتظر المفاجأة الكبرى بان يصبح اماراة ثم مملكة . . .

وكان للفرنسيين خصوصا زبائنهم في جبل لبنان من الموارنة والطوائف الكاثوليكية التابعة لروما . وقد اقامت فرنسا نفسها حامية لهم ولنصارى الشرق منذ الجيل الحادي عشر .

وكانت الطوائف المحمدية في عهد الدولة العثمانية توالي بالاكثـر الانكليز وتجعل القنصلية البريطانية العامة بيروت قاعدتها ومرجعها .

وكان الارثوذكس ، مع سقوط القيصرية الروسية التي كانوا ينتمون اليها قبل الاحتلال ، عندما كانت لا تزال امبراطورية آل رومانوف ، قد اضاعوا توازنهم ، وحاروا بامرهم بعد زوال العرش ببطرسبرغ وقيام الشيوعية . وزاد في حيرتهم ما قام دوما بين الكاثوليك والارثوذكس من تنافر قديم منذ انفصل هؤلاء عن روما .

لذلك عندما وصل الحلفاء هذه البلاد ، وجد الارثوذكس من الافضل والاقرب لهم ان يلتفوا حول الانكليز بدلا من الالتفاف حول الفرنسيين ، اصدقاء منافسيهم بالدين موارنة جبل لبنان .

وجرى لهم ما يجري عادة بين الاقارب عندما يتعادون ، اذ تشتد احقادهم الى درجة يفتش من ورائها كل جانب عن عدو اقاربه ، فيحالفه ويرتمي بين احضانه .

لهذا كان الارثوذكس دوما ، حتى في زمن الاتراك ، يأخذون جانب المسلمين ويتعاونون معهم اكثر مما يتعاونون مع اخوانهم في الدين ، خصوصا الموارنة .

ولما نادى الموارنة بفرنسا سنة ١٩١٩ للحكم في هذه البلاد ، نادى الارثوذكس بالعرب . وكانت كلمة المناادة بالعرب تعني ايضا المناادة بالانكليز .

مع هذه العوامل كلها كان الجنيه الانكليزي يشغل .

وكنت في رأس الذين كلفتهم المفوضية الفرنسية في بيروت المثابة
بومذاك ، اولا بالمسيو كولندر ، وبعد ذلك باسابيع قليلة فقط بالمسيو
جورج بيكو - قلت ، وكنت في رأس الذين كلفتهم المفوضية بما يلي :

اولا - في الاشتراك بصرف الخمسة ملايين وخمسمئة الف جنيه ،
وهي القيمة الباهظة التي خصصها الفرنسيون للدعاية لهم في لبنان .

ثانيا - بجعل الاكثرية في لبنان تقول انها مع فرنسا ، وذلك امام لجنة
« كراين » الاميركية ، التي ارسلها الرئيس ولسون الى هذه البلاد تستفتي
الاهلين ، وذلك عندما اشتدت المزاخمة بين الانكليز والفرنسيين المحتلين ،
مما كاد يخلق بين الدولتين خلافا كبيرا ، ومما كاد يجعل الحليفين فرنسا
وانكلترا تتحاربان الواحدة مع الاخرى .

وكان العامل الاول الذي جعل الرئيس ولسون يتشبث بارسال
لجنة كراين لاستفتاء الاهلين في لبنان ، ومعرفة ما اذا كانوا يريدون فرنسا
ام انكلترا وصية عليهم ، تحميمهم وتعلمهم الاستقلال - كان ذلك العامل
الاول والاقوى هو تدخل رئيس الجامعة الاميركية في بيروت في ذلك
الوقت ، المستر بلس ، الذي حمل نفسه وذهب الى باريس يتصل بمجلس
الاربعة الكبار الذين كانوا يديرون اعمال العالم بعد نصر ١٩١٨ ، برئاسة
الرئيس ولسن .

وكان الفرنسيون - كما اسلفنا - قد اشتغلوا كثيرا قبل الحرب لاعلاء
شان مدارسهم العديدة وبعثاتهم الدينية والعلمية ، مما اثار بين المؤسسات
الفرنسية الكاثوليكية والجامعة الاميركية الانجيلية مزاخمة عدائية كبرى ،
تدوم وتزداد على ممر الايام .

وعرض رئيس الجامعة الاميركية على مجلس الاربعة رأي فئة مسن
الناس لا تريد الحكم الفرنسي ، فتأثر المستر ولسون من كلام مواطنه
وارسل لجنة كراين المشهورة (١)

(١) نزلت لجنة كراين الاميركية الى يافا في ١٠ حزيران ١٩١٩ ثم زارت دمشق وبيروت
واضنه ، ثم عادت الى باريس في ايلول ١٩١٩ ووضعت تقريرها الذي دل على رغبة اكثرية
السكان في الاستقلال . ولكن اميركا كانت قد انسحبت ، في تلك الاناء ، من تنظيم الصلح
في العالم ، فخلا الميدان لانكلترا وفرنسا في الشرق ، وطبقا معاهدة سايكس - بيكو السرية
على البلاد العربية ، وبموجبها ترك الانكليز سوريا ولبنان لفرنسا .

المال ضعف الرجال ، ولو لأتوا اغنياء !

كان الصحفي الفرنسي الشهير « هنري دي روشفور » يقول :
« طبعا ، الذين ليس عندهم مال يستطيعون بكل سهولة ان يكونوا حرامية »
ولكن لماذا بعض الذين عندهم مال لا يتورعون عن السرقة والمتاجرات
القذرة ؟

وكان كلام دي روشفور مأثورا ، فعلى هذه القاعدة كان اكثر الذين
اخذوا المال من الفرنسيين بعد الاحتلال ثمن الانتداب ، من الزعماء الموشرين .

واكثر الذين لم يقولوا بالانتداب ، هم الذين لم يقبضوا !

واي من جميع هؤلاء السياسيين ، الذين قالوا وزعموا في ما بعد
انهم حاربوا الفرنسيين منذ الساعة الاولى - اي منهم لم نشاهده في مطلع
الاحتلال عند الكاتبين دام بالمفوضية ، او عند الكاونيل نيجر والمسيو
مرسييه في السراي الكبيرة ، يقدم خدماته ويعرض خضوعه !

فاذا ارتضى ما كذا ظل على العهد والشكر ، واذا لم يقبض سبب
وانكر واستنكر وشتتم !

وكان بين الساسة نفر فيهم مدرك حاذق ، ضمن لنفسه السلامة
- ولربما الثروة ايضا - عن طريق مصادقة الجانبين ، فان ربحت فرنسا
او ربحت انكلترا ، يظل هو الرابع !

وتجلبت هذه الظاهرة الكبرى في سنة ١٩٢٠ عندما جمع فيصل في
الشام المؤتمر السوري ، واقتضت المصلحة ان تكون جميع اجزاء سوريا
الكبرى ممثلة فيه .

ولم يجد الفرنسيون في بيروت ، ولا الفيصليون في الشام ، مستغبرا
ومدهشا ان يكون مثلا اسعد بك حيدر عضوا في المؤتمر السوري ، وان
يكون نجله عضوا في اللجنة الاستشارية بلبنان .

وبالطريقة نفسها ، كان أمثلا يوسف نمور عضوا في المؤتمر السوري ، وكان شقيقه موسى بك نمور متربعا عند الفرنسيين ببيروت ، وعاملا لهم في البقاع .

وكان محمد سعيد حماده ، سيد الهرمل ، عضوا في المؤتمر السوري وكان حفيده صبري بك حماده يتدبر اموره مع الفرنسيين .

وجاء الانكليز باسكندر بك عمون على ظهر طراد عاملا سياسيا لهم في لبنان جعل مقره العام في اوكندة «السنترال» على البرج ، وعلى حساب خزينة صاحب الجلالة طبعاً .

وجاء الفرنسيون بأخيه داود بك عمون عاملا سياسيا لهم ، جعل مقره العام في لوكندة «نجوم» على الزيتونة ، وعلى حساب الجمهورية الفرنسية الحسنة طبعاً . وقس على ذلك عدة زعماء من جبل لبنان او الجنوب او الشمال ..

وزودت كل من الدولتين عمالها بمبالغ من المال ، وتركتهم مطلقي اليد في صرفها كما يريدون . هذا لمجد فرنسا ، وذاك لمجد العرب ، ومن ورائهم بريطانيا .



وكان الفرنسيون قد جاؤوا أيضا على ظهر مدرعة كبرى بالاستاذ اميل اده ، وقد اتخذوه مستشارا محترما وصادقا لمفوضيتهم ببيروت ، التي كان يقوم بأعمالها المسيو كولوندر (١) كوكيل لها بانتظار قدوم المفوض السامي الاصيل المسيو جورج بيكو .

وكان المسيو كولوندر اول ممثل فرنساي دخل هذه البلاد باسم الحماية الفرنسية ، التي كانت فرنسا قد فرضتها علينا بطريقة منفردة منذ البداية ، وقبل موافقة الحلفاء وجمعية الامم بجثيف على الانتداب .

ولم يظل وقت المسيو كولوندر هنا غير بضعة اسابيع ، كان المسيو جورج بيكو قد أتى في خلالها وبصحبه الكابتن «دام» رئيس عرقتيه السياسية الجديد ، والمؤتمن على الخمسة ملايين ونصف مليون جنيه شراء الانتداب الفرنسي في هذه البلاد .

(١) وصل كولوندر الى بيروت في تشرين الثاني ١٩١٨ .

ولم يسافر المسيو كولوندر قبل ان يرتكب غلطة فرنسا الاولى في هذه البلاد ، مع انه كان رجلا فهيمًا حاذقًا ، وقد صار بعد ذلك بسنوات سفيرا ببرلين ، ومن اكبر الرجال الديبلوماسية الفرنسيين .

ذهب حضرته في عيد الميلاد سنة ١٩١٨ يحضر قداسا احتفاليا في كنيسة مارجريس الموارنة ببيروت ، اقامه مطران الموارنة على شرف فرنسا . وكان ذلك في الوقت الذي بدأت فيه الدعاية الفرنسية تشتغل بنشاط كبير عند المسلمين في بيروت وطرابلس ، الذين كانوا اظهروا عداة عنيفا لكل سيطرة افرنسية تفرض عليهم .

ذهب المسيو كولوندر ممثل الجمهورية الفرنسية الاول في لبنان الجديد ، المنفصل حديثا عند الدولة العثمانية ، ووقف في الجماهير الفقيرة من الموارنة التي جاءت تحيي ممثل فرنسا ، وقال ان فرنسا تأتي لهذه البلاد خصيصا اجابة لدعوة اصدقائها الموارنة ، والمحافظة عليهم ولاعلاء شأنهم ...

وقامت قيامة الاوساط الاسلامية بعد هذا .

واذا كانت الخمسة ملايين ونصف المليون جنيه كافية لشراء الانتداب ، فبعد هذا التصريح صار من الواجب رصد عشرة ملايين جنيه على الاقل !

★★★

وقامت قيامة الارثوذكس ايضا من هذا التصريح ، وهم الذين كانوا يعادون الموارنة التابعين لروما ، اكثر مما يعادون المسلمين التابعين لمكة . وكان بطريرك الارثوذكس بالشام اكثر عداة للنفوذ الفرنسي من المفتي المسلم فيها .

وتجاه هذا الاتجاه الارثوذكسي المعادي للفرنسيين ، رأى هؤلاء - بعد ان استتب لهم الانتداب في ما بعد - تعيين اول رئيس للجمهورية اللبنانية شارل دباس الارثوذكسي ، على اعتبار ان هذا التعيين يرضي القسم الاكبر من ارثوذكس بيروت ، الذين كانوا في ذلك الحين يؤلفون الطبقة الغنية والوجيهة بين المسيحيين في المدينة . وكان بقية ارثوذكس لبنان وسوريا يأخذون العظمت والدروس والنزعات السياسية عنهم ، ويعملون بها .

رياض الصلح عند جورج بيكو

كان الفرنسيون ، في منتصف ١٩١٩ ، في معترك المساومات لاكتساب رضى الاكثرية بالبلاد التي لم يكن مصيرها قد تقرر بعد ، عندما حمل نفسه فتى جميل الصورة ، براق العينين ، ظريف الكلام ، زاهي الشعر ، يكاد خيال من الشارب يخط خطأ رفيعا فوق شفته العليا ، وجاء الى قصر جنبلاط يزور المفوض الفرنسي الميسو جورج بيكو ، وذلك بناء على رغبة هذا الاخير ، وكان الفرنسيون قد اتخذوا ذلك القصر مقرا عاما لهم في بداية عهدهم بهذه البلاد .

ذلك الفتى الجميل كان رياض الصلح .

ولعلنا نحن الذين جعلناه يزور الفرنسيون ، في وقت كان فيه كبار المسلمين يناصبون فرنسا العدا ، ويعتبرون زيارتهم لمثلها نوعا من الخيانة للقومية العربية وللوحدة التي كانوا يعملون لها تحت تاج الملك حسين . وكان الانكليز قد وعدوهم وتعهدوا لهم بها .

ولكن رياض الصلح كان شجاعا وكان متحديا ، وكان يريد ان يهاجم الذئب في عريته ، وكان يريد ان يعرف حقيقة العهود الانكليزية ، بعد ان رأى الفرنسيين لا يحترمون عهود الانكليز للعرب ولا يقيمون لها وزنا ، وبعد ان رأى الانكليز مع تظاهراتهم مع العرب ووقوفهم علنا في سوريا مع الشريف فيصل ، يتراجعون كثيرا أمام الدعاية الفرنسية ، ويتجاهلون النتائج الكثيرة التي اخذ الفرنسيون يجنونها من دعايتهم .

وسجل الفرنسيون في تلك الزيارة يومئذ حديثا عتيقا للفتى المتحمس المستنير .

مما دعا جورج بيكو ان يقول عندما ودع زائرته :

- هذا الفتى سيكون خطرا علينا دوما !

وخرج رياض الصلح من لدن ممثل فرنسا اكثر عداء لفرنسا مما دخل ، اذ انه وجد عند الفرنسيين عزما أكيدا على الاحتلال والحماية الكاملين !



واخذ رياض الصلح منذ ذلك الحين يشتغل بجميع الطرق ضد فرنسا ، وفي سبيل الوحدة السورية . وبالفعل ، بعد أشهر قليلة من ذلك ، كان - وهو يومئذ في العشرين من عمره فقط - يضع عشرة من أعضاء مجلس ادارة لبنان الاثني عشر بجيبه ، بعد ان استعان على غايته بمبالغ ذهبية طائلة وضعها تحت تصرف القضية الوجيه البيروتي عارف بك النعماني //

هذا المجلس الاداري لتصرفية جبل لبنان الفاه العثمانيون في اول الحرب العالمية الكبرى ، عندما اغوا امتيازات الجبل السياسية وضموه الى احدى الولايات . ثم بعثه الفرنسيون حيا حال دخولهم لبلاد ، وذلك في ٧ تشرين الاول ١٩١٨ .

هذا المجلس وضع مضبطته المشهورة بطلب الحماية الفرنسية وسيطرة فرنسا السياسية على البلاد .

وهذا المجلس بعينه هو الذي طبقه رياض الصلح . وهكذا كانت اول عملية قام بها هذا الفتى الجميل اعظم وادهش ثورة . وهل اعظم وادهش من ان يشترى مجلسا كاملا يمثل لبنان ، لحساب الشريف فيصل ، وان يقنع ذلك المجلس بالرجوع على طلب الحماية الفرنسية الى المطالبة بالوحدة السورية ؟

وكان اربعة على الاقل من أعضاء ذلك المجلس من لوارنة ، زبائن فرنسا الاساسيين ، وبينهم شقيق البطريك الحويك نفسه ! (١)

(١) كان هذا المجلس مؤلفا من السادة سعد الله الحويك ، خليل العقل ، سليمان كنعان ، محمود جنبلاط ، فؤاد عبد الملك ، محمد صبرا الاعور ، محمد محسن ، الياس الشويري ، يوسف البريدي ، نعيم ياخوس ، حسين الحجار . وكان يرأسه حبيب باشا السعد . وقد وضع هذا المجلس في ايار ١٩١٩ عرضة يطلب بها الحماية الفرنسية على لبنان . ولما انكشفت له نيات الفرنسيين الاستعمارية عاد فاتخذ في ١٠ تموز ١٩٢٠ قرارا باستقلال لبنان والاتحاد مع سوريا ، وسافر بعض اعضائه قاصدين الى اوربا عن طريق دمشق ، للسعي الى تنفيذ ذلك القرار ، فاعتقلهم الفرنسيون في ١٢ تموز وحاكموهم في ١٧ منه بتهمة الخيانة ، ثم نفوهم الى جزيرة كورسيكا ، حيث ظلوا مدة سنة . وكانت هذه العملية في مقدمة الاسباب التي جعلت الجنرال غورو يستعجل الهجوم في تموز ١٩٢٠ على دمشق واحتلالها .

ولم يرفض هذه الصفقة يومئذ سوى رئيس المجلس حبيب باشا
السعد ، وعضو زحله ^{يوسف البردي}

وكما ان الاستاذ اميل اده المستشار اللبناني الاول للمفوضية
الفرنسية كان يرفض قبض المال الذي كانت قد وضعت المفوضية الفرنسية
تحت امرته ليستعمله للدعاية ، هكذا أيضا حبيب باشا السعد رئيس
مجلس الادارة ، لم تغره ذهبات الشريف ووعود رياض الصلح .

وكان حبيب باشا السعد - لربما - مع اميل اده ، الوحيديين
- يومئذ - بين زعماء السياسة في ذلك الوقت ، اللذين يساعدان الفرنسيين
على ترسيخ اقدامهم ببلدان دون ان يكون لهما اية حصة من الخمسة
ملايين ونصف المليون جنيه . . .

« قبضوا . . . وقبضنا . . . وقبضيات ! »

طبعاً عندما يكون هناك مال ، وعندما تكون هناك وظائف كبرى ، يقع أقوى الرجال بالتجربة .

فليس جميع الناس - واطصهم اللبنانيون - مثل المسيح الذي اخذه الشيطان الى رأس الجبل ، وعرض عليه ما تراه عيناه من سهول ووديان وأنهار وخيرات ، فلم يأخذ شيئاً .

وعندما عبد اللبنانيون الذهب - لم يكن احد يعرفه قبل بيروت في الايام الفينيقية ثم الرومانية ثم البيزنطية ثم العربية ، ومن بعد ذلك العثمانية ، واخيراً اللبنانية .

وكانت سرية المبالغ المالية الكبرى التي اخذ يدفعها الفرنسيون لدعايتهم في لبنان قد جعلت لعاب الكثيرين من الزعماء السياسيين يسيل فشاهدنا - ورافقنا - عدداً كبيراً منهم لزيارة المفوضية الفرنسية، ورأيانهم يخرجون بعد ذلك من لدنها وقد وقعوا صك القبول بالحماية الفرنسية ، على ذلك السجل الذي كان الكابتن «دام» ، سكرتير المفوضية السياسي و « خازن دار » الخمسة ملايين ونصف مليون جنيه يقول عنه انه اغلى سجلاً في العالم !

اذ ان تواقيع الذين سجلوا تأييدهم لفرنسا عليه كلفت أكبر قيمة ممكنة من الجنيهات في عالم الدعايات ، وكان بين اصحاب التواقيع في ذلك السجل بوجه خاص بعض الذين لا يزالون أحياء ، والذين ظلوا بالرغم عن كل شيء يفتخرون بكل مناسبة بأنهم صدوا الفرنسيين ولم يقبلوا مالهم ، ويعتزون بأنهم قاموا على الفرنسيين سنة ١٩٤٣ ، حتى انهم كانوا - ولا يزالون - يتجحون أمامنا بهذا الادعاء ، مع ان وثائقهم لا تزال بين ايدينا ، ومع اننا كنا نتقاسم وايها موال المفوضية !

وبالرغم من هذا كله ، فهم ينكرون امامنا ذلك ، فيفعلون كالمسرة
الوقحة التي تزجر امام الناس رجلا كان امس في فراشها !

ونحن حسبنا نفسنا شريكا في القسمة ، لاننا كنا نعتبر - وعن حق -
اننا افضل واحق بالمال من هؤلاء الاكارم العظام ، المتبجحين
بالوطنية ، والذين كانوا - وهم يسبون الفرنسيين - يقبضون اموالهم
ويتزلفون اليهم ويبيعون وطنيتهم وقوميتهم لهم بالخفاء ، ثم يشتمونهم
ويسبونهم بالعلن

وهكذا ما اشترى احد مسبته بالثمن الغالي الذي اشتراه به
الفرنسيون !

وبالمناسبة يجب علينا ان نقر للفرنسيين بمكرمة نبيلة ، هي انهم
لم يفضحوا الذين انقلبوا عليهم في ما بعد ، بل ارسات المفوضية الفرنسية
سنة ١٩٤١ اوراقها وسجلاتها تحرقها في آتون النار ، في هضاب بيت
مري ، كي لا تقع بأيدي الذين يأتون بعدها . ومن هذه الاوراق ذلك
السجل الذهبي الذي يتضمن اسماء جميع الذين كانوا يخدمونها ويبيعونها
البلاد بالخفاء ، بينما يتظاهرون امام الناس بالتجرد والنزاهة والوطنية
المستقلة التي لا تقبل انتدابا !



• وطبعا استخدم الفرنسيون في دعايتهم لكسب البلاد جميع
الوسائل التي تحت يدهم ، واستخدموا جميع الرجال الذين استطاعوا
استخدامهم .

وهكذا استخدم الفرنسيون اكثر القبضيات المعروفين في بيروت ،
والذين كانوا اسياد الميناء والبلد ، وذلك مقابل اجور تدفعها المفوضية
لهم . وجاءت حكومة الاستقلال سنة ١٩٤٣ وقد حفظت الامثلة
عن الفرنسيين سنة ١٩١٨ - ١٩١٩ ، واستخدمت اكثر اولئك القبضيات
عينهم الذين ساعدوا فرنسا في بداية الاحتلال على تثبيت الانتداب
الفرنسي !

وظل اكثر هؤلاء القبضيات في قيد الحياة لكي يقتطفوا الموسم
الثاني سنة ١٩٤٣ ، عندما نزولوا للشارع يتظاهرون ضد الانتداب

ويعملون للاستقلال ، ويقبضون اجورا باهظة مقابل ذلك ، قد تكون أعلى
اجور قبضها باعة الوطنية ودكتجية السيادة والاستقلال في العالم ،
ثمنا لاسترضائهم ، مع اقطاع الشارع لهم يتحكمون فيه اسيادا مخيفين!

وهكذا الشكوى العامة الدائمة الآن من القبضيات وتحكمهم بالشارع
ومسدساتهم ، والجزية التي يفرضونها هنا وهناك ، وحتى على الحكومة
والبلدية - هذه الشكوى منهم يجب بالاحرى ان تكون من الفرنسيين
الذين كانوا اول من جاء ببلطجية الميناء الى ميدان السياسة والتطبيق
والتصويت الاعتباطي والتظاهرات السياسية المأجورة والاضرابات
المفروضة!

ونحن لا نزال شاهدا حيا على ذلك ، اذ انني كنت في رأسه الذين
كلفهم الفرنسيون في بداية الاحتلال بجمع اكبر عدد ممكن من القبضيات
لخدمة فرنسا والدعاوة لها!

وكان القبضيات يطوفون على الناس بعرائض في بيروت ومسدن
السواحل ، يجعلون الاهلين يوقعونها بالسيف ، وهي تطلب الحماية
الفرنسية!

ولا يزال حيا يرزق زعيم الشباب الكبير الصديق ، الذي استلم
من المفوضية الفرنسية عرائض بذلك المعنى ، فاعادها بعد ثلاثة ايام
فقط وهي تحمل توقيع عشرة الاف مسلم ، مما كان صعبا ومستحيلا
على غيره ان يعمل به!

ويطلب الموقعون على تلك العرائض فصل لبنان عن سوريا تحت
الحماية الفرنسية!

وكان ذلك الزعيم غالبا جدا ، اذ انه تقاضى عن كل امضاء لسيرة
انكليزية ذهباً!

ولم يكن يقبض غير الليرات الانكليزية الذهبية ، اذ انه لم يكن
له ثقة بالجنيه المصري الورقي، ولا بغيره من اصناف العملة الورقية
في العالم!

★★★

وهكذا ما عملت حكومات الاستقلال سنة ١٩٤٣ وبعده الا ما عملته

حكومات الانتداب من قبلها ، فلا شيء تغير في هذا الحقل . وايضا
بالرغم من الامال المعقودة على العهد الجديد ، الذي نعيش في ظلاله اليوم ،
قد لا يتغير ايضا شيء !

فطالما المسدس والخنجر لا يزالان على الخصر يحملهما البلطجي
دون سؤال ولا جواب ، وطالما عقلية الناس في الاعتباط والارتياح للبطل
الذي يضرب غيره بالرصاص ، ولو كان ذلك معتديا ، فستظل كل حكومة
مضطرة لاسترضائه وارضائه !

والقبضاي لا يرضى بقصيدة شعر !

وقد رأيناه مع أعز زعمائه واكثر تعلقا بهم ، يترك ذلك الزعيم وينساه
حالا عندما ينضب المورد .

رأيناه منذ ثلاثين سنة حتى الان مع كل رئيس جمهورية ومع كل رئيس
وزارة يقاتل ويناضل لاجله حتى يسقط . عندئذ يدبر له ظهره ويفتشر
عن خلف له يؤمن الرزقة التي ذهبت مع الذهاب !

فعلى قدر ما تدفع تخدم !

وعلى قدر اهل العزم تأتي العزائم .

وليس الفرنسيون وحدهم اخترعوا القول القائل : «اعطني فاعطيك!»

دولة « السكرتيرية » وبداية عهد الفوضى

قال لي المسيو لا لويه ، مفتش القضاء الاعلى في عهد الحاكم ترابو (١) وقد ذهب يحقق في شكاوى تقدمت على المستشار الاداري الفرنسي في زحله ، الذي كنت يومئذ معاوناً له - قال لي المسيو لا لويه :

- انني سأحقق معك !

ولما اجبته: وما شأني انا طالما الشكاوى تقدمت على المستشار نفسه !

قال : لا تحسبني مغفلاً مثل كثيرين من الفرنسيين . فلو كان لبنان منتدياً على فرنسا ، وكنت انت اللبناني مستشاراً من قبل دولتك في مدينة « غرينوبل » وكنت انا سكرتيرك ، فمن يكون افقائهم الحقيقي باعمال المستشار ؟ أهو الغريب الذي لا يعرف عن لبنان شيئاً ام اللبناني السذي يعرف عن لبنان كل شيء ؟ لهذا اقول لك انك انت المسؤول عن جميع الشكاوى التي تقدمت عن هذا المستشار ، اذ انك انت تقوده اكثر مما يقودك مهما كان نبيها !

وهنا اجبته ذلك الجواب الذي وصل الى المفوض السامي بسرعة ، وكان السبب في فصل ذلك المفتش القضائي الفرنسي العام عن وظيفته ، قلت للمسيو لا لويه :

- على هذه الحال ، طالما ان السكرتير اللبناني هو الذي يحكم وليس المستشار الفرنسي ، وانتم تعرفون ذلك ، فلماذا تعينون لنا مستشارين ترشدهم بدلاً من ان يرشدونا ؟

ونشرت جرائد عديدة ، عربية واجنبية ، هذه الواقعة التي كان لها تأثير كبير في زعزعة الموقف الفرنسي حينذاك .

(١) حكم الكومندان ترابو لبنان من ايلول ١٩٢٠ حتى ايار ١٩٢٣

وهي زعزعة تبعثها ، كما يذكر الكثيرون ، حركات عصابات تحريرية في البقاع والجنوب والشوف .



وكان ، ولا شك ، المسيو لاويه على حق وصواب ،

وليس هناك من شهادة في تثبيت رأيه افضل من شهادتي ، اذ ان اناس - خلال الاربع سنوات التي بقيت فيها معاونا لمستشار البقاع الفرنسي عسكريا كان ام مدنيا - كانوا يراجعوني انا لقضاء مصالحهم وليس المستشار ، اعتبارا منهم اني انا الذي يحكم فعلا ، وانني اقود المستشار ، وليس المستشار الذي كان يحكم !

وكما كنت افعل انا بالبقاع ، كان اللبناني معاون المستشار في طرابلس او في الجنوب يقود رئيسه الفرنسي .

وكان اللبناني سكرتير حاكم بيروت يقود الحاكم الفرنسي بالطريقة نفسها . وكان يتولى هذا المنصب يومئذ الاستاذ جورج حيمري ، الذي كان عنده من البراعة والدهاء ما جعله موضع تقدير الحكام والرؤساء في لبنان ، بحيث لم يستغن عنه احد خلال الخمس والعشرين سنة الاخيرة

وقد ترك الحيمري مرة واحدة ديوان رئاسة الجمهورية مبعدا ، وذلك في اول عهد الاستقلال ، سنة ١٩٤٣ ، عندما تعاون مع الاستاذ اميل اده ، يوم قبل اده الحكم من الفرنسيين ، بعد ان اعتقلوا اركان الحكومة الشرعية وارسلوهم الى راشيا .

ومع ذلك ، ومع ان الحيمري كان متهما بانتحيز للاستاذ اميل اده ، فانه لم يظل بعيدا غير بضعة اسابيع عن منصبه ، واضطر الشيخ بشاره الخوري الى استدعائه من جديد لاستلام رئاسة ديوانه !

وكان الحيمري خلال ولاية بشاره الخوري واسطة جاه ونفوذ لم يصل اليها احد غيره ولما استقال الشيخ بشاره ، وجاء رئيس جديد على اكتاف الثورة الشعبية ، ظل الحيمري حيث هو ، وبالصلاحيات التي كانت له .

وكان قبلا الامير جميل شهاب لمدة ١٨ سنة مديرا للمالية في عهد

الانتداب ، ولم يستطع احد زحزحته عنها . وذات يوم سأل أحدهم
مستشاره الفرنسي عن سبب خلود الامير جميل في وظيفته الكبرى ،
فاجابه المستشار :

— هو باق ليس لانه متخصص في الامور المالية فحسب ، بل لانه
ايضا رتب ادارة وزارة المالية في لبنان بطريقة لا يفهمها ولا يدركها غيره ،
فاذا اخرجناه من المديرية نضيع !

والخلاصة ، فعلى نفوذ التراجمة وامناء السر اللبنانيين عند الحكام
الفرنسيين ، قامت حينئذ دولة السكرتيرية المشهورة ، في مطلع عهد
الاحتلال الفرنسي .

واكثر هؤلاء السكرتيرين للحكام والمستشارين والقواد الفرنسيين
اخذوا وظائفهم اما عن طريقة نسبية او شقيقة او زوجة حسناء — وهذا
الامر كان له شأنه الاول مع هؤلاء الاشتهائيين الشبقيين الفرنسيين — او
عن طريق الاب شنتور المشهور رئيس اليسوعيين الذي استطاع في نهايته
وعصبيته وتعصبه ان يعطي اكثر وظائف هذه الدولة — واخصها وظائف
التراجمة والسكرتيرين — لمتخرجي كليته ، كلية مار يوسف اليسوعية ،
وكذلك عن طريق الاب سارلوت رئيس مدرسة عينطورة الذي
مثل الدور ذاته ، مماشكل في البداية سببها كما ذكرنا اعلاه من الاسباب
الاساسية التي جعلت رئيس الجامعة الاميركية يومذاك بيروت ، يذهب
لباريس ، ويطلب أمام مجلس الاربعة الكبار جلاء الفرنسيين عن بلاد المشرق ،
حيث جؤوا — كما كان يقول — لاحياء النعرات الطائفية التي ينتج
عنها التذابح والتعادي ، ولاستعباد باقي الطوائف .

ولكن الفرنسيين كانوا يعطون جوابهم على مساعيه هذه ، له
ولغيره من الاميركيين والانكليز الذين حاربوهم في هذا الميدان ، وذلك
بالسعي الى ضم اكبر عدد ممكن من المحمديين الى جانب المطالبين
بالحماية الفرنسية .

وعندما وجد الفرنسيون في بداية الامر صعوبات كثيرة تحول دون
اعلان كبار المسلمين تأييدهم لوضع يد فرنسا على البلاد ، داروا بانظارهم
نحو المروز ، الذين كانوا بطيلة الدهور جيشا قويا عنيفا يخدم جميع
الذين يقدرونه حق قدره ، ويرفعون شأنه ، ويساعدون في تقوية كيانه

كأقلية طائفية بين الاكثريتين المسلمة والمارونية .

وشاهدت بيروت يومئذ ، الى جانب قبضيات الميناء الذين كان الفرنسيون قد ضمنوا تأييد اكثرهم - فرسان الدروز يرتدون البرانس البيضاء والحمراء والقفاطين المزركشة ، ويحملون السيوف المعكوفة ، وقد كحلوا اعينهم بدائرة وسيعة من كحل الصحارى ، يأتون يوميا على ظهور خيولهم المظهمة للمفوضية يتطوعون في الفرق المحلية العسكرية التابعة للجيش الفرنسي ، لاثبات التأييد . وكان ذلك يجري بمواكب وهاجة هازجة مهللة ، تحت قيادة زعماء معروفين من عمال العهد الفرنسي الجديد في لبنان .

وكان ابرز هؤلاء العمال صديقان نشيطان كبيران ، الاستاذ امين بك حمادة والاستاذ شفيق بك الحلبي .

وكانت اروقة السراي الكبيرة تعج يوميا بهؤلاء الفرسان ، وخصوصا امام باب المسيو مرسيه المستشرق الشهر المكلف حينذاك بقبول التطوع وبدفع الثمن .

وقد بلغت مصاريف هذه المواكب ، تأتي لاعلان تأييدها للحماية الفرنسية ، ما يفوق المليون ونصف المليون ليرة انكليزية ، اخذها تقريبا الف فارس « خرج راح » ، تعويضا عن انزعاجهم في المجيء لبيروت من الشوف أو من جبل الدروز .

واكن كان يصادف ان كل فارس كان يأتي اكثر من خمس الى عشر مرات في المواكب الدروزية المتتابعة ، التي ظلت اربعة اشهر تصل لبيروت يوميا بهزيج وتهليل .

ذلك ان المسيو مرسيه كان يكتفي بان يحصي عدد الفرسان الذين يأتونه دون ان يمين الوجوه . وكانت اسماء الفرسان تتبدل يوميا ، كما كانت الملابس تتبدل ، فلا يعرف مرسيه - او يتجاهل عمدا - ان اكثر الذين جاؤوا بالامس عادوا اليوم .

وكن يكفي ان يعد المسيو مرسيه عدد الفرسان الذين يصلون لباحة السراي وخيولهم الهائجة التي كانت تحطم بلاط الفناء - حتى يدفع على قدر العدد الذي يكون قد حسبه !

وهكذا ، ليس السكرتيرية وحدهم كانوا يضحكون على الفرنسيين

ويحكمون بالفعل مكانهم ، ومن ورائهم قامت تلك الفوضى في الدوائر ،
اذ ان معظم السكرتيرية كانوا لا يزالون شبه تلامذة مدارس من يسوعية
وعازارية ورهبانية .

ولكن ليس السكرتيرية فقط هم الذين ضحكوا على الفرنسيين
وحكموا فعلا باسمهم ، بل ايضا فعل ذلك وبطريقة اكثر سخرية وهزارا
الفرسان الدروز . وقد كان الواحد منهم يتضاعف مرارا كما قلنا اعلاه
كي يقبض مرارا ، وذهب بعض المبالغين للقول ان الفرسان الذين جاؤوا في
الاسابيع الثلاثة الاولى هم عينهم الذين جاؤوا في الثلاثين اسبوعا الباقية
دون ان يتظاهر الفرنسيون انهم يعرفون شيئا مما يجري ، مكتفين بان
يعرضوا على ابناء البلد كل يوم هذا العدد المحترم الكبير من فرسان
الدروز ، ينضمون علنا لفرنسا في استعراضات يومية في بيروت !



نذكر كل هذا لنقول ولنؤكد - كما يجب ان يقوله ويؤكد المعاصرون
لذلك الوقت من كبار السياسيين اللبنانيين ، مثل عبدالله بك بيهم ومثل
عمر بك بيهم ، ومثل جورج بك ثابت ، ومثل الدكتور ابراهيم تلحوق
نذكر كل هذا لنؤكد ان الفرنسيين قد يكونون عندما جاؤوا الى هذه
البلاد ارادوا الحكم فيها بعدل وانصاف وتنظيم ، وقد يكونون ارادوا
ان يقوموا برسالة اعدادنا للاستقلال والحريات العامة ، كما حددت جامعة
الامم رسالتهم ، ولكن ليس هم الذين افسدوا كل هذا ، بل نحن .

فانما نحن - كما قلنا اعلاه - نحن دولة السكرتيرية ، كنا دوما اكثر
فهما ونباهة وحيلة منهم . وعلى هذا نحن الذين نكون قد حكمنا وافسدنا
الحكم واربما افسدنا الفرنسيين معنا !

ولا عجب فانما الفساد الذي تريد اليوم الجمهورية الرابعة اللبنانية،
جمهورية الرئيس كميل شمعون، استئصاله من البلاد، وهي تتهم العهد الذي
سبق بخلقه - فانما هذا الفساد مستأصل منذ زمن بعيد ، منذ
عهد الاتراك ، عندما كان اهالي هذه البلاد يستعملون كل طرق
الارضاء والتمليق لاكتساب عواطف اسيادهم العثمانيين وبدرجة
حاذقة ووسيلة جدا .

حتى أننا لا نكون مباغين ولا مختلقين إذا قلنا أن أهالي هذه البلاد
القوا دروسا على الأتراك في فن الرشوة والارتشاء والاستثمار ، مما هو
شأن كل شعب ضعيف مستعمر يريد الحياة ، ولا يجدها إلا في أرضاء
أسياده !

وفي خلال الحرب الأولى ، عندما حكم العثمانيون جبل لبنان مباشرة
بعد أن ألغوا امتيازاته ، رأينا هؤلاء الأتراك في جبل لبنان عن كتب ، يأتوننا
في البداية رجلا مستقيمين إنسانيين ، وينقلون بعد حين إلى وحوش
كاسرة وفاسقين وسارقين حرامية - وذلك عندما كنا نفتش عن اكتساب
رضاهم بكل ما عندنا من حيل ، وبكل ما عندنا من أسباب وطرق للأغراء !

ولا أريد أن أقول أن الكثيرات من حسان هذه البلاد كسن في رأس
أنواع ذلك الأغراء - مما يجري دوما في كل بلاد يدخلها القوي ويحكمها
فاتحا .

ولكن ما بالغ فيه أهالي هذه البلاد بالاكثربة أثناء الحربين الكبيرتين ،
هو أن العدد الأكبر من ميثاق الحسان ، كن يصلن إلى أسيرة الأسياد
الحاكمين الأتراك ومن بعدهم الفرنسيين والإنكليز والاسترالية ، عن طريق
الحنان الوالدي والبركة الأبوية .

جمهورية شارل دباس : جمهورية التجربة

وبعد الحكام الفرنسيين الذين تواوا الحكم مباشرة في البداية (١) جاءت الجمهورية الاولى ، جمهورية شارل دباس ... التي يمكن تسميتها جمهورية التجربة (٢)

وكان من مزايا شارل دباس الاولى انه :

اولا - عاش بياريس ، وكان يتكلم الفرنسية جيدا ويكتب فيها من اعلى طبقة ، كما ان زوجته فرنسية .

ثانيا - انه من أبناء الحي السرسقي . وكان الحي السرسقي ينظر الفرنسيين - كما كان ينظر الاتراك من قبل - الوسط الذي يجب ان يرضى ، لانه بماله الكثير وبحياته العالية ، يمكنه ان ينزل الضرر بالذين لا يرضى عنهم . وكانت قصور السراسقة الملقبين بملوك الشرق في عهد الاتراك ، وفي بداية عهد الفرنسيين - كانت قصورهم دور ضيافة كريمة ووسيلة ومبهجة للحكام . ولم يكن ملوك وامراء البلدان الاجنبية الذين يزورون بلادنا ينزلون ضيوفا على الحكومات ، بل كانت تلك الحكومات تطالب رسميا من قصور السراسقة دعوة ضيوفا ، حيث كان كل ملك او أمير يجد من العظمة والفخفة ما قد لا يجده في قصور بلاده ، وحيث كانت تقام ولائم وحفلات ومرقص لا مثيل لها في كرمها وسخائها .

(١) منذ اعلان استقلال « لبنان الكبير » في ايلول ١٩٢٠ حتى اعلان الجمهورية الاولى ، تعاقب على الدولة الجديدة اربعة حكام مباشرين فرنسيين ، هم الكومندان ترابو (ايلول ١٩٢٠ - ايار ١٩٢٣) ، السيد اوبوار (ايار ١٩٢٣ - حزيران ١٩٢٥) ، الجنرال فندنبرغ (حزيران ١٩٢٤ - كانون الثاني ١٩٢٥) ، السيد كايل (كانون الثاني ١٩٢٥ - ايار ١٩٢٦) .

(٢) تحت ضغط الاحداث الناشئة عن الثورة السورية سنة ١٩٢٥ ، قرر الفرنسيون انهاء الحكم المباشر في لبنان ، واقامة حكم جمهوري نيابي . وقد وضعوا يومئذ دستورا للبلاد على هواهم ، واجروا انتخابات انبثق عنها في تموز ١٩٢٥ مجلس مؤلف من ٢٠ نائبا . وهو المجلس الذي انتخب في ايار ١٩٢٦ شارل دباس رئيسا للجمهورية . وظل الدباس رئيسا حتى كانون الثاني ١٩٢٤ .

ثالثا - كما قلنا سابقا ، كان الدباس ارثوذكسيا .

اذ ان القاعدة الاساسية التي كان الفرنسيون يستندون اليها في مطالبتهم بحماية هذه البلاد ، هي زعمهم ان نصارى الشرق باجمعهم يطلبون تلك الحماية . لذلك تعمدوا اختيار الدباس الارثوذكسي ، لاقتناع الارثوذكس بالرجوع عن موقفهم السلبي ، وقبول الحماية الفرنسية .

... في حين كان ينبغي ان تحمل رئاسة الجمهورية اساميا ، في عهد الفرنسيين ، الخاتم الماروني .

ولا شك ان الفرنسيين عندما انتقوا شارل دباس رئيسا لجمهورية اللبنانية الاولى ، لم يكونوا يعرفون تماما دهاء هذا الرجل ومقدرته .

وليس الفرنسيون وحدهم كانوا يجهلون ذلك ، بل اهل البلاد انفسهم ، بدليل اننا باجمعنا ، وجدنا في تعيين الدباس رئيسا ، بعد ان كان مديرا للعدلية اثناء الحكم الفرنسي المباشري ، شيئا مستهجنا ، ومفاجأة غير منتظرة ، اذ ان الناس كانوا يعرفونه قليلا جدا ، وذلك لانه كان منذ نعومة اظفاره غائبا عن هذه البلاد ، ينتقل بين استنبول وباريس ، وهو منشغل وغارق بمغامرات ومتاجرات سياسية وغير سياسية ، كانت دأب كل متمردي في عهد العثمانيين .



عندما اعلى الدباس رئاسة الجمهورية في ايار ١٩٢٦ ، بدأ بطريقة ليس فيها اقل ابهام عهد استقرار الانتداب ، الذي كان حتى ذلك الوقت مترددا وخائفا وغير واضح .

وطبعا لما استقر الانتداب ، وعرف الناس انه اصبح امرا واقعا ، كشف السياسيون عن وجوههم بجلاء - انتهازيين كانوا ام محترفين ، غوايا ، لاهين او مخلصين لفرنسا ، صادقين الود لها ام مختلين .

ورأينا الشيخ محمد الجسر (١) يعتلي في الافق بسرعة مدهشة ، يمثل

(١) بدأ الشيخ محمد الجسر حياته السياسية في عهد الانتداب رئيسا لمحكمة الجنايات ثم اصبح مديرا للداخلية ، ثم دخل المجلس النيابي المنتخب في تموز ١٩٢٥ وقد تراسه في السنة الاولى المرحوم موسى نعور ، ثم خلفه محمد الجسر ، كما ظل الجسر رئيسا لما ادغم الفرنسيون مجلس الشيوخ بمجلس النواب في سنة ١٩٢٧

المسلمين عند الفرنسيين ، بالرغم عن ارادة اكثر المسلمين ، الذين ماكانوا يريدون لهم عند الفرنسيين تمثيلا .

كان يمثل المسلمين بنباهة مدهشة وبمقدرة كاملة ، وبشجاعة جعلته يحابه باقي رجال طائفته دون وجل ، ويتعاون مع الفرنسيين تعاوننا مخلصا قويا ، لم يكن منتظرا - مهما كان الثمن غاليا - ان يقدم مسلم اخر تعاوننا صادقا اكيدا مثله .

وجلس الشيخ محمد في صدر الديوان في رئاسة اول مجلس نيابي بلبنان ، وهو مجلس انشق طبعاً عن انتخابات عملها المستشارون - وخصوصا سكرتارية المستشارين - كما يريدون ويرغبون ، وكانت اول تدشين فاضح علني للشراء والبيع في الاصوات الانتخابية .

جلس الشيخ محمد في صدر الرئاسة ، وله من ظرفه وجمال طالعته ولطف حديثه ، وتقربه للنصارى ومصادقته لهم ، ما جعل زعماء هؤلاء ينأصرونه في كل موافقه ، ويقفون بجانبه اكثر مما كان يفعله المسلمون .

وكان بين سياسة الموارنة في ذلك الحين «الثلاثة الكبار» في المجلس والدولة تتجه اليهم انظار الناس بوجه خاص . ولم يكن الرجل الرابع قد ظهر بعد ... (1)

كان حبيب باشا السعد في شخصيته البارزة ، ومكانته العالية ومرونته السياسية التي اقتبسها جيدا عن الاتراك ، يمثل الجبل - جبل لبنان القديم بأجمعه . وكانت دماثة اخلاقه واخلاصه للفرنسيين وحنكته ترفعه على الجميع .

وكان جورج ثابت واميل ادهوجه الطائفة في بيروت ، يجلسان في واجهتهما ، لهما فيها مكانة خاصة ومنزلة مرموقة . وكانا فضلا عن ذلك على جانب كبير من السعة ، وعضوين منظورين كبيرين بين كبار الحسي السرسقي ، الذي كانت الدول ، كما اسلفنا ، تخطب وده .

وكانت وجهة هذين الرجلين الكبيرين المارونيين ببيروت تتلاقى كثيرا ، وتتصادم دوما . وقد ازدادت اصطداما وتزاحما عندما جاء الفرنسيون ينتقون بين الموارنة الزعماء الذين يرشحونهم للنيابة والاحكام ...

(1) يقصد بالرجل الرابع الشيخ بشارة الخوري .

نورة اميل اده الاولى على الفرنسيين

ولكن من هو المغامر الماروني الاول الذي قام بوجه الفرنسيين قبل جميع الذين قاموا في وجههم بعد ذلك ؟

هذا للتاريخ ، وهذا واجب يجب ان يقال .

هو الرجل الذي كان معروفا انه قبل الجميع صديق الفرنسيين . هو الرجل الذي اتخذه مستشارا اوليا لهم يوم نزولهم في هذه البلاد .

هو الذي جاؤوا به يوم الاحتلال على ظهر مدرعة حربية من فرنسا لبيروت ، محفوفاً بمجالي التكريم والتعظيم

وهو الذي استندوا الى مكانته ونفوذه وامكانياته السياسية والمسيحية الكبيرة في هذه البلاد

ولكنه كان اول من وقف بوجه الفرنسيين فكانت لهم يومئذ اول مفاجأة ،

كانت دهشتهم كبيرة عندما رأوا لأول مرة رجلا مسيحيا مارونيا معروفا بانتمائه لهم ، وقد جاؤوا به ليكون ساعدهم الاول - يقف بوجههم ويتحداهم ، وذلك عندما اظهروا رغبتهم ، بعد ان وضعوا دستوراً اوليا للبلاد بواسطة استفتاء كتابي ، اختصر على مشورة بضعة كتاب وسياسيين - قلنا عندما اظهروا رغبتهم في جعل المجلس المنشق عن ذلك الدستور (١) ينتخب افرنسيا من رجال المفوضية حاكما للجمهورية

(١) هو المجلس المنتخب في تموز ١٩٢٥ ، وقد اراده الفرنسيون يومئذ ان ينتخب حاكما فرنسيارئيسا للجمهورية ، فووقت مشادة ادت الى تعليق المجلس وتعيين السيد كايلا ، الحاكم الفرنسي بالوكالة ، حاكما اصيلا للبلاد . وظلت الحال هكذا الى ان وافق الفرنسيون على انتخاب رئيس جمهورية لبناني ، فعاد المجلس واختار شارل دباس في ايار ١٩٢٦ .

البنائية شبه البرلمانية !

وهذا الرجل كان اميل اده ، اول الثائرين .

كان يطلب الحاكمية اللبناني .

وأتهم في تلك المناسبة الفرنسيين علنا بالاستعمار والديكتاتورية ، وقال أنهم يريدون فرض حاكم افرنسي على هذه البلاد ،

وهم ليسوا الا منتدبين من جمعية الامم بصك ، يقضي عليهم ان يتركوا البلاد تحكم نفسها بنفسها تحت اشرافهم ومشورتهم فقط .

وكان ينادي عاليا ، بقوله عن الفرنسيين : « جاؤوا يرشدوننا للاستقلال ، وليس ليتحكموا بنا . والحق في الحكم لوطني لبناني ! »

ولعله كان يعني نفسه عندما يطلب الحكم لوطني لبناني .

وكان الرجل الرابع ، الفتى الوديع الاديب الهادي المتمرن يصفق وتظهر عليه امارات الاغتباط من موقف رئيس مكتبة الاستاذ اميل اده ، الذي قفز فجأة - بوقوفه بوجه الفرنسيين - من خصم عنيد مكروه عند المسلمين الذي كانوا يعتبرونه من صنيعه الفرنسيين ، الى ثائر يستमित للكرامة الوطنية !

ورأينا حينئذ العمرين - عمر بيهم وعمر الداعوق - اللذين كانا يومئذ نائبين بالمجلس ، ويجلسان في واجهة السياسة والوجهة للمسلمين ببيروت - رأينا العمرين يقفان بجانب الاستاذ اميل اده ، ويماشيانه بعنف وشدة ، وقد نسيا العبارة المنسوبة الى اميل اده سابقا ، تلك العبارة التي اغضبت المسلمين بلبنان ، وجعلتهم يعتبرون صاحبها عدوا لهم . . .

ففي الوقت الذي كانت الهيئات الاسلامية السياسية ببيروت توجه الدعوة لمؤتمر تطلب فيه الانفصال عن جبل لبنان ، والوحدة مع سوريا ، قال اميل اده : « نحن هنا بيروت والجبل واحد ، والذي لا يعجبه عليه ان يعود للصحراء . . . »

وطبعا ، يتصور القارئ أي غضب وصخب استحوذ على المسلمين عندما قيل لهم ان هذا الماروني المسيحي ، عميل فرنسا الاول في البلاد ، هو الذي قال هذا القول - هو الذي يريد ان يرجع المسلمون الى الصحراء ،

من حيث يزعم أنهم أتوا عند الفتح الاسلامي ...

وحدثت طبعاً مناقشات عديدة يومذاك حول هذا القول . وادعى بعضهم - ولكن بدون جدوى - ان الاستاذ اميل اده لم يقله ، وان خصومه هم الذين اخترعوا عن لسانه كي يجعلوا المسلمين يقومون عليه ويعادونه .

ولكن اميل اده محا - كما أوردنا أعلاه - هذه الصفحة السوداء ، عندما قام لوحده بين الزعماء الموارنة يقف بوجه الفرنسيين ويحاربهم في رغبتهم بتعيين حاكم افرنسي بعد وضع الدستور وعلان الحكم الوطني ، ولا يجد في رغبتهم هذه مجداً لمار مارون ...



وقيل يومئذ ان الرجل الرابع ، ذلك الذي كان ينتظر ساعته ، وقد بدأ يخرج من عزلته خطوة خطوة وبطريقة مدروسة ، منظمة محكمة ، هو الذي دفع ، بطرقه الخاصة النابهة الساكنة - التي كانوا يسمونها طرقاتاً « جزويتية » - اميل اده للثورة على الفرنسيين ، اصدقاء الموارنة التقليديين .

وانها لثورة جريئة على المفوض السامي ، ذي الصلاحيات التي لم يملك مثلها حكام الارض جمعاء ، فقد كان يقبض على مقدرات البلاد وأهلها بيد واحدة ، وآله من القوة في الحكم ما لم يكن لقناصل الرومان في مستعمراتهم ، وما لم يكن للمتصرفين في جبل لبنان عندما كان مستقلاً استقلالاً ذاتياً ضمن السلطنة العثمانية !

ولقد جرت ثورة اده في وقت كان قد وصل فيه الى البلاد الجنرال ساراي مفوضاً سامياً ، والسيد كايلا حاكماً بالوكالة ، وكلاهما علمانيان فتحول الحكم الفرنسي الى حكم علماني معاد للاكليروس .

وما زلنا نذكر يوم استقبال الجنرال ساراي الصحفيين ، واستلفت نظره راهباً بينهم ، هو الخوري لويس الخازن ، ذو الشاربين المعقوفين الكثيفين ، واللحية السوداء العريضة ، والعينين البراقنتين تحت حاجبين رهيبين ، فانتهزه الجنرال بصوته الجمهوري قائلاً :

— وأنت ماذا تريد ؟ ولماذا تلبس مثل هذا الثوب الحزين ، ولك هذه اللحية البشعة ، وهذين الشاربين المخيفين ؟

وقال الخوري لويس بجرأة كانت تحديا للجنرال المتحكم :

— أنا خوري ماروني ، ولي الشرف بذلك !

فقال له ساراي بسخرية : تشرفنا . . . ولكن لماذا ترتدي لباسا يجعلك بشلع المنظر هكذا ؟ وماذا تريد ؟

قال الخوري لويس : أريد ان أسألك لماذا لم تزر غبطة البطريك ، كما كان يفعل اسلافك المفوضون السامون الثلاثة الذين سبقوك ؟

أجاب ساراي مستهزئاً : ولكن أي بطريك منهم ؟ ففي البلاد ٣٦ بطريكاً . . . وهل تتصور ان ليس عندي شغل غير زيارة البطاركنة والرهايين غربان هذا الجبل . . . (كذا حرفياً)

(وهنا — كما يذكر كثيرون من الزملاء — شد السكرتير العام للمفوضية المسيو لابورد — وكان جالسا خلف المفوض السامي — بسترة الجنرال داعياً اياه للسكوت !)

(وسكت الجنرال ساراي فجأة . سكت لان السكرتير يمثل وزارة الخارجية الفرنسية في هذه المفوضية العسكرية . . .)

ولكن اميل اده الذي اقام نفسه يومئذ — وعن حق — حامى الدين المسيحي وأديرته ورهابينه ، لم يسكت .

وكانت عنده تلك الجرأة الخطرة جدا التي جعلته يحمل على المفوضية الفرنسية القائمة في جريدة «الاوريان» . وكانت الجريدة يومئذ تمشي بمشورته وقوله ، وكان لها الشأن الاول في تسيير سياسة البلاد ، لانها تصدر بالفرنسية ، ولان الفرنسيين يطالعونها ، ولان كاتبها الناشئين يومئذ ، كانوا على مقدره مرموقة في الكتابة والثقافة والشجاعة في القول ، مما جعل تلك الجريدة في ذلك الحين تحمل بين أعمدتها صواعق جوبتير . .

وكان جورج النقاش — ولا يزال — من اقدر الصحافيين في هذه البلاد ، ولم يكن قد وصل بعد لهذا الكسل المخجل الذي يعيش فيه اليوم . ولم يكن قد تحرر — كما هي حاله اليوم — من كل لون سياسي ووطني .

كان يكتب يوميا تلك المقالات العنيفة التي كانت تنتقل بسرعة
البرق الى جميع الاوساط . وكان فيها دوما روح اميل اده واراؤه .
وهي كتابات كان لها بوجه اولي الفضل في استدعاء وزارة الخارجية
للجنرال ساراي وزمرته العلمانية ، التي خالفت وكادت تقضي على سياسة
فرنسا التقليدية في الشرق - وهي السياسة التي تركز فيه على تعزيز
النصرانية .

والنصارى في جبل لبنان هم قبل كل شيء مئسات الاديرة والاف
الراهبين المنتشرين في أعالي الهضاب ، وفي مراعي الوديان المعطرة !

الرجل الرابع . . . يحمل عصمه الزيتون في طرابلس !

كان الرجل الرابع قد خرج من وراء مكتبته الصغيرة القائمة في زاوية إحدى غرف مكتب اده الوسيح ، واخذ يخلق له صداقات في المندوبية الفرنسية لدى حكومة لبنان .
وفي المفوضية السامية نفسها .

و اول صديق سياسي عند الفرنسيين ، وضع الرجل الرابع يده عليه كان الاستاذ موسى مبارك ، يومئذ سكرتير مندوب المفوض السامي لدى الحكومة اللبنانية . وكان لدى هذا السكرتير من النفوذ والقوة ما كان لكل سكرتير فهيم عند كل فرنساوي كبير .

وكان الشيخ يوسف الخازن ، النائب العلامة الظريف يقول ، عن المندوب الفرنسي وساوي وسكرتيره عندما يراهما قادمين للمجلس ، الواحد وراء الآخر :

— جاء مار روكز وكلبسه . . .

ولكن موسى مبارك بنظر الشيخ يوسف كان مار روكز . . .



قلنا وبدأ الرجل الرابع في وضع يده على سكرتير المندوب السامي ، وهو الذي عرف قبل الجميع ان صداقة السكرتير انفع من صداقة المندوب !

وكم كان عمر الرجل الرابع يومئذ ! لم يكن بلغ الثلاثين . . .

ولكنه كان قد بدأ يضمن دائرة نفوذ افرنسية كبرى تماشيه وتجد فيه رجل المستقبل !

وقد توصل الى هذا من وراء مقابلاته الخاصة الخفية مع المندوب

المستشار ، او بالاحرى من وراء ما كان سكرتير المستشار يقوله عن الرجل
الرابع للمندوب المستشار . . .

وبلغ على مدى الايام من صداقة الرجل الرابع لسكرتير المستشار ،
ان الناس أصبحوا يحسبون هذا صنيعا لذلك ، غير عارفين ان السكرتير
كان يلعب تماما اللعبة التي اتفق مع رئيسه الفرنسي وممع المفوضية
عليها : ان يكون بخدمة الرجل الرابع وبمن يحوم حوله من الانصار . . .

. . . بينما يكون غيره من عمال الفرنسيين يصادق ويخطب ود الاستاذ
اده ومن يحوم حوله من الانصار !

وهكذا يضمن الفرنسيون معرفة اعمال كل من الرجلين ، اللذين كان
من المنتظر بعد ظهور الرجل الرابع بقوة وشدة ان يشكلا جهتي قتال ،
قد تكون لها أكبر النتائج واسوأها عليهم .

الانريد هنا القول ان الاستاذ موسى مبارك كان يلعب دورا لا يليق
بكرامته ، بل بالعكس كان يلعب الدور الذي يمليه عليه واجبه كموظف
امين للوظيفة الهامة التي يقوم بها ، والتي كانت تقضي عليه ان يتظاهر
بمصادقة الشيخ بشاره ، تكمة لسياسة المفوضية ، التي كانت تريد الا
يتوهم احد انها مع اميل اده وحده .

ثم ان سياسة المندوب يومئذ - وهي سياسة تقليدية في هذه البلاد -
كانت تقضي بتقوية رجل ماروني جديد ، يكون قديرا وفهيمما ، ليجلس في
كفة الميزان الثانية مقابل الكفة الراجحة التي يجلس فيها الاستاذ اميل اده .

ولا نتكلم هنا عن الرجل الاول حبيب باشا السعد مع انه كان يتمتع
بزعامة ونفوذ كبيرين دعياه بعد الدباس للتربع برئاسة الجمهورية الثانية .

ولكن في سياق الحديث نعرض ان امكانيات حبيب باشا وامانيه
كانت تنحصر بالاكثري في سياسة جبل لبنان ، لا في سياسة لبنان الكبير
العامة ، ولم يكن يهتم لسياسة بيروت ، التي كان الفرنسيون يريدونها
ان تتخذ وجهها مسيحيا ، يقف امام الوجه المسلم الذي كانت المدينة معروفة
به في تلك الايام .

وقلنا ان جورج ثابت كان يشتغل في السياسة دوما كما هو وليس
كمحترف .

وكان اول وجه مايح يراه ، يجعله ينسى النيابة والوزارة والسياسة .
ويدير قفاه للمفوضية السامية !

لم يبق اذن للفرنسيين غير اميل اده في واجهة الموارنة ، وهم لا
يريدونه ان يكون وحده فيها .

وهنا ظهر الرجل الرابع !

وكما وجد الرجل الرابع موسى مبارك مفتاحا لينا نافعا للدخول الى
قلب المفوضية السامية .

كذلك وجد موسى مبارك الرجل الرابع الماروني المنتظر ، الذي يجب
ان يقف بوجه مطامع الاستاذ اميل اده وجشعه !

ولم يكن الفرنسيون قد نسوا ثورة اميل اده عليهم يوم اراد الرئاسة
لمواطنيه ، وهي ثورة جاءت من صديق مخلص لفرنسا ، مما قد يشجع
الكثيرين على ان يطعموا بفرنسا ويرفعوا الرأس امامها .

ومن طرائف الزمان ان الرجل الذي كان الفرنسيون يفتشون عنه
ليضعوه في كفة الميزان الثانية مقابل اميل اده ، جاؤوا به تقريبا من مكتب
اميل اده ، اذ لم يكن قد مضى عندئذ وقت طويل على خروج الرجل الرابع
من مكتب اميل اده حيث كان يتمرن . . .

. . . أو ان الرجل الرابع ، هو الذي دلهم على نفسه ، وبالطرق النابهة
التي اشتهر بها بعد ذلك كثيرا !

وهكذا ، مع موسى مبارك في المندوبية الفرنسية لدى حكومة لبنان ،
ظهر رجل العشرين سنة الاخيرة : الشيخ بشاره الخوري .



في ذلك الزمان ، كان في الدولة وجيهان زعيمان مسلمان تساويا
وتشابهها بأشياء عديدة ، واختلفا ولم يتشابهها في شيء واحد .

تساويا اولاً ، في ان مسقط رأسهما طرابلس .

وثانياً ، في مكانتهما الدينية ووجهتهما السياسية : عبد الحميد كرامه

مفتي طرابلس ، والشيخ محمد الجسر : سياسي ورجل دين ، ونائب سابق في مجلس المبعوثان العثماني .

وثالثا ، في نهايتهما الكاملة ، وقد كانا معدودين من ابرز الوجوه الاسلامية في لبنان الجديد .

لبنان الذي دخلت اليه طرابلس غير مختارة وغير مرغمة . دخلت اليه وقبلت به لا بارادتها ولا بالرغم عن ارادتها - بل تقريبا بدون انتباه ... وبدون تفكير !

وما زالت طرابلس منذ دخلت لبنان سنة ١٩١٩ ، وصيـمـارت جزءا منه ، تضرب الرقم القياسي في عدد المرات التي هدت فيه لبنان بالانفصال عنه ، مما اعطاها سلاحا خاصة للمساومة مع الحكومات المتعاقبة ، استطاعت بفضلها ان تكون هي دوما الراححة !

اذمن يستطيع ان ينال من طرابلس ؟ او يقاصص او يجازي طرابلس ؟ اذ ان طرابلس بعبع الجمهورية ، وساقها الحساس ، والجانب الثائر فيها ...

وكان عبد الحميد كرامه ذات وقت - خصوصا في السنوات الاولى للانتداب ، يعمل بطرابلس تقريبا كما يريد ، وذلك بمناوأة الفرنسيين والوقوف بوجههم ، بالرغم ان الفرنسيين كانوا على ممر الايام يزيدون من ابن طرابلس الاخر الشيخ محمد الجسر وجاهة وسطوة .

وقد استطاع الشيخ محمد الجسر ، بالنفوذ الذي اعطاه اياه الفرنسيون - وكانوا قد جعلوه اولنا ناظرا للداخلية ثم رئيسا للمجلس النيابي - وبالقوة الذاتية التي له ، وبشخصيته البارزة ووجهته بطرابلس ، ان يخفف كثيرا من نتائج معارضة عبد الحميد كرامه للفرنسيين والمطالبة بالحاق طرابلس بسوريا .

وكان في طرابلس شخص ثالث يتمتع بمركز كبير متزايد ، هو المرحوم الدكتور عبداللطيف البيسار . وكان في استطاعته - بالنفوذ الذي كوئته له مهارته في مهنته ، وبالااموال التي تدفقت عليه منها - ان يلعب دورا كبيرا في قيادة البلد . ولكنه اثر ان يبقى في عالم مستشفاه ،

تاركا قيادة المدينة لعبد الحميد كرامه وحده ، متعاوننا معه في مفاصله
الفرنسيين ، داعما الحركة بامواله .

هكذا استمرت طرابلس تناهض الكيان اللبناني ، وظل عبد الحميد
كرامه يجلس في واجهتها بلا هوادة . وجميع الساسة المناهضين لفرنسا
في البداية لانوا مع استقرار الانتداب ، الا عبد الحميد كرامه . وما حمل
عبد الحميد كرامه راية لبنان الا في اليوم الذي حمل فيه الفرنسيون
حقائبهم وعلمهم وجلوا عن البلاد .

ولكن ، عندما كان عبد الحميد كرامه يقاتل الفرنسيين ، وعندما كان
الشيخ محمد الجسر يتلقى الضربات عنهم ، ويشغل لمنع طرابلس من
الثورة - من كان ذلك الفتى الموردا للحدادين ، الازرق العينين ، اللطيف
الكلام ، الهادئ الاعصاب ، الذي وقف بين الكبريين المسلمين المتخاصمين ،
منتهزا حقد الاول على الفرنسيين ، ومحاربه اياهم ، وخضوع الثاني
وخدماته لهم ، فيحمل غصن الزيتون ويدخل بين الزعيمين ، عاملا عند
الاول لتخفيف حنقه على الانتداب ، وعاملا عند الثاني لتخفيف خضوعه
لانتداب ، ففتح هكذا بابا لهدنة اسلامية طويلة في طرابلس بين
المفتي والشيخ ؟

ولقد وقع الشيء فعلا وعمليا ، ووقفت نوعا ما في الفيحاء الجميلة
الثورة البيضاء ، والاضرابات والتظاهرات التي كانت تتابع يوميا ضد
لبنان - مما جعل الفرنسيين يلاحظون أكثر وأكثر هذا الرسول للسلام
الفتى اليافع السياسي الذي كان لا يزال غاويا وليس محترفا .

وكان هو ، هو الرجل الرابع !

عهد الدباس : عهد الجبارة بالاسماء فقط !

وبينما نترك الشيخ بشاره الخوري يمشي بخطى وسبعة نحو الادوار الرئيسية التي سيلعبها سحابة عشرين سنة على الاقل ، تذهب بنا الالهواء نحو ضامة الجمهورية الاولى ، جمهورية شارل دباس (١) ، ونحو ضعف الرجال الاقوياء الجبارة الذين كانوا فيها ، والذين لم يجمع لبنان بوقت واحد مجموعة براقفة جذابة مثل مجموعتهم .

وكانت جمهورية الدباس ، ولا ريب ، القاعدة التي انطلقت منها حياتنا البرلمانية الجديدة .

ولكن اعمالها - التي لم تكن كبيرة ولا عظيمة - ليست هي التي خلقت لها هذا الصيت الكبير المستأصل عند الناس حتى الان ، بانها كانت جمهورية طمأنينة وعدالة وهيبة .

فانما جمهورية الدباس لم تكن براقفة وباهرة باعمالها - كما يتوهم الكثيرون - بل كانت براقفة وباهرة برجالها !

فكما قلنا اعلاه ، ما اجتمعت مجموعة من كبار السياسيين مرة واحدة وبعدهد وافر في لبنان ، ولمدة قصيرة ، في غير ذلك العهد . وكان رجالها يشكلون حول الدباس هالة جعلت لعهد ذلك الشعاع الذي لا نزال نذكره حتى الان باعجاب ، وهو عهد بدأ وعاش كبيرا في البداية ، ثم انتهى كما نذكر صغيرا وزريا !

فانما عندما يكون هناك رئيس جمهورية راجح العقل ، تسانده بعساكرها واموالها دولة حامية كبرى ، وحوله عدد كبير من السياسيين لكل منهم شخصية بارزة ودهاء متمازن وزعامة سياسية راسخة ، لا يمكن أن لا يقال عن عهده انه كان ابهى عهود لبنان بعد انفصاله عن الدولة العثمانية .

(١) بدأت جمهورية الدباس في سنة ١٩٢٦ وانتهت في سنة ١٩٣٤

وكانت هناك جمهرة من اهل السياسة فاقت بدهائها وعبقرياتها
جميع ما جمعته السرايات والمجالس النيابية من بعد .

كانت جمهورية الدباس غنية حقا بالرجال . كان فيها حبيب السعد
والعمران ، عمر بيهم وعمر الداعوق ، وكان ايوب ثابت ، وعبد الله بيهم
وموسى نمور . وكان اميل اده ، وجورج ثابت ، والشايخ محمد الجسر ،
وميشال شيحا والامير فؤاد ارسلان ، وشقيقه الامير توفيق ، وكان بترو
طراد والامير خالد شهاب وشبل دموس والشايخ يوسف الخازن . وكان
اوغست اديب وعبدالله ابو خاطر . وكان ميرزا يوسف افتيموس ،
وعدد كبير من الشخصيات البارزة .

هؤلاء جميعا اجتمعوا في المجلس والحكومة في وقت واحد ، مما
لم يجتمع مثله بوقت واحد في عهود الجمهوريات الثلاث التي جاءت
بعد جمهورية الدباس .

وكان كل واحد من هؤلاء يشكل شخصية محترمة معروفة ممتازة .

وكان كل منهم تقريبا خطيبا كبيرا ومتحدثا فهيما ، ومشاغبا
حاذقا ، وصاحب اطماع في الاعالي ، طويل الحدود وكانت هذه الاطماع
هي الدافع الاول والاخير للتعاون مع الجمهورية الاولى ورئيسها - ومع
الفرنسيين المشرفين عليها !

ذلك انه لم تكن هناك خدمة وطنية كامنة وراء نشاط هؤلاء السياسيين
كما يزعم التاريخ العادي المبطل - والمزيف دائما .

بل كانت الاطماع السياسية هي التي تحرك نشاطهم ، في وقت
كان الفرنسيون قد فتحوا فيه للجميع باب الدخول الى احضان الدولة
والسير فيها نحو الشهرة والسلطان ، بعد ان كانت تركيا ضيقت لدرجة
تامة ميدان العمل السياسي بوجه السياسيين اللبنانيين خاصة
والعرب عامة .

وكانت تظهر هذه الاطماع عند الجميع - عند الذين ذكرنا والذين
لم نذكر . فانما جاء لبنان الجديد كالهجرة لاميركا ، يفتح ابوابا للرزق
وللمعالي لم تكن تخطر على بال !

كانت اطماع هؤلاء الرجال تظهر قبل كل شيء ، وفي وجه كل شيء ،

وخصوصا بالتزاحم على اكتساب رضى المفوضية الافرنسية اولا - وعلى تأمين الحظ عند الدباس ثانيا !

وجاءت الجمهوريات الباقية تحت الانتداب . وكان السياسيون فيها جميعها يعملون فقط لارضاء المفوضية السامية ، واكتساب حمايتها ، ويزدادون استعبادا لها ، على اعتبار انها وحدها صاحبة القول الفصل اما في عهد الدباس فقد كان السياسة يسعون لاكتساب المفوضية السامية واكتساب رضى الدباس في الوقت نفسه . اذ ان هذا الرجل الذي بدأ كبيرا ولم ينته كبيرا ، كان اثناء رئاسته للجمهورية دوما على اتسم وفاق مع الفرنسيين .

وقد كانت عنده تلك المقدرة التي عجز عنها كل رئيس جمهورية بعده ، من انه كان يعرف كيف يرضي اسياده في المفوضية السامية ، كما يرضي نوابه ووزرائه وسياسيه من اللبنانيين في آن واحد !

وتلك السياسة التي اتصف بها طيلة رئاسته جعلته وحده دون باقي الذين جاؤا بعده ، يقضي مدته الطويلة دون ان يقع بينه وبين الفرنسيين خلاف واحد ، كالخلافات التي كانت تقع بين الرؤساء الذين جاؤوا بعده وبين الفرنسيين ، مما كان ينشر الفوضى في البلاد ، ويجعل الفرنسيين يلجأون الى الحكم مباشرة ، فيعزلون الرؤساء بسطر واحد ، ويحلون المجلس برقع سطر ، ويعينون رؤساء جددا في جمهورية برلمانية مرسوم اعتباري !

واذا كان الدباس في عهد الانتداب قد بقى رئيس جمهورية لبنان مدة ثماني سنوات ، اي اطول من جميع الذين جاؤوا بعده في ذلك العهد ، فذلك للاسباب التالية :

اولا - لان الفرنسيين كانوا لا يزالون في بداية عهدهم بالانتداب ، ولا يريدون ان يجعلوه علنا بطريقة مفضوحة حكما مباشرا يتحدى الرئاسة الوطنية ويرمي بها من نافذة السراي اية ساعة اراد .

(ثانيا - ن الدباس كان وحده الذي يعرف كيف يوفق بين كرامة الرئاسة ويجعل لها مكانة معنوية ، وبين ديكتاتورية المفوض السامي .)

وثالثا - وهنا الالهم ، لان الدباس كان يملك الشجاعة على الادعاء بانه

يتحمل مسؤوليات جميع اخطاء الحكم الفرنسي غير المباشر بالاسم ،
المباشر بالفعل ، وذلك دون ان ينتظر أن يطلب من الفرنسيون حمل تلك
المسؤوليات .

واذا كان الناس لم يصدقوا دعواه - كما كان الواقع - فانهم ثم
يكونوا يكذبونه - طالما انه كان يصرح في كل مكان انه هو وحده المسؤول
عن كل ما يجري ، وطالما انه لم يعمل مرة واحدة ما كان يعمله الرؤوساء
والحكام الذين جاؤوا من بعده ، عندما كانوا يجيبون كل محتج على عمل
خاطيء ومجحف : لست أنا الذي احكم ، بل الفرنسيون !

جمهورية... معاقبة على سفى رجل ...

صار لبنان فجأة جمهورية ، ومستقلا استقلالاً نسبياً ، بالنسبة
للسلطان الذي كان يتمتع به اسياده الفرنسيون . ولكنه على كل حال صار
جمهورية ، والكلمة لذيدة على الاسماع تجعل صاحبها يعتز بها !

ولكن هل كان جدي الشيخ يعقوب الرياشي - مع كل ما كان عنده
من نباهة وبعد نظر - هل كان يفتكر مرة واحدة قبل الحرب العامة
الاولى ، وهو يدير اعمال معاملته للحريز في قرينتنا الخضراء « الخنشارة » ،
انه سيأتي يوم يصبح فيه لبنان جمهورية ودولة ، مما اعتبرناه اعجوبة
الزمان ، ومما اغتبطنا له كثيرا ، مع ان جبل لبنان فقد بهذا الوضع الجديد
تلك النعمة التي كانت دول العالم تحسده عليها باجمعها ...

يوم كان يصدق القول العامي : « يا حظ من له مرقد عنزة في
هذا الجبل ! »

يوم كان امان واطمئنان ، وكان المكلف يدفع ربع مجيدي ضريبة عامة
عامة سنويا اي ليرة لبنانية تقريبا . وكان باربعة مجيديات وخمسة بشالك
يمون البيت للشتاء ويعيش مع عياله بطمانينة !

يوم كان ابن الجبل يمشي ببطء وهدوء على قدميه ، واذا اراد البذخ
يركب الحنتور على الاكثر !

يوم كان مجالس ادارته المؤلف من اثني عشر عضواً - يعمل اكثر بكثير ،
لخدمة لبنان ، مما عملته جميع المجالس النيابية التي جاءت بعد الاستقلال
مع ان الانبي عشر كانوا غالبا شيوخا طاعنين في السن ، لا يزينهم العلم
الكامل ولا نظم الشعر ، بل يمتازون فقط بحب البلاد واخلاصهم لها ،
ويمتازون ايضا في شيء خاص مضحك ومهيب معا ، وهو اجماعهم على
صبغ شعرهم الابيض بصباغ اسود رخيص الثمن ، يسيل اكثر الاحيان

في ايام الصيف من شدة الحر على وجوههم وقمصانهم البيضاء ، فلا يعودون معروفين !

ومع ذلك كانوا يعملون عملا مجديا ، ضمن صلاحياتهم الواسعة ، اذ ان كلا منهم كان لا ينظر الى ابعاد من منطقته فيحصر جهوده في خدمتها على افضل وجه ممكن ، في الوقت الذي يعمل فيه كل من رفاقه الشيء نفسه في منطقته ايضا .

وهذا هو بالاحرى الدليل الاكبر على حسنات الدائرة الفردية ، في الوقت الذي اكتب فيه هذا الكتاب ، وفي الوقت الذي تصدر فيه الحكومة قانون الانتخاب الجديد على اساس الدائرة والدائرتين تلبية لرغبات الشعب وكان مجلس ادارة لبنان دليلا قاطعا على ان النائب اذا جاء للمجلس ممثلا لمنطقته لوحده ، عرف حدود دائرته وحقوقه فيها وواجباته نحوها واشتغل لاجلها .

وعلى ذكر مجلس الادارة والانتخابات ، نذكر ان شيوخ كل قضاء - المدعويين اليوم بالمختير - كان ينتخبون اعضاء ذلك المجلس ، ما عدا بلدة زحلة ، فانها سبقت منذ ذلك الحين جميع الديموقراطيات البرلمانية في الشرق ، اذ كانت تنتخب عضوها بالانتخاب المباشر ، مما يثبت ان زحاه عاشت بامتيازات خاصة ضمن استقلال جبل لبنان .



(لما قامت الجمهورية في لبنان سنة ١٩٢٦ ، واستقبلنا اعلانها من لدن الفرنسيين بحماسة كبيرة ، لم تكن نعرف ان لها صورا متعددة ، دستورية وغير دستورية ، وانها ستكون مثل المرأة المستهترّة ، تتعشق كل يوم رجلا جديدا ، وانها ستكون معلقة على شفاه الدكاتور الفرنسي ساوي الذي كان اسمه المفوض السامي والذي كان يكفيه ان يقول كلمة واحدة حتى يقلبها رأسا على عقب !)

ومنذ عهد جوستينيانوس ، القنصل الروماني الذي ارسله اغسطس قيصر لبيروت - قنصلا عليها ، وذلك بعد ان زوجه ابنته الحسناء جوليا فليكس ، التي اُبتنت هياكل له شتروت وقصرا صيفيا لها في هضاب الالهة ، المعروفة الان بهضاب دير القلعة من خراج بيت مري ، حيث

نشيد اليوم بيتا جميلا عاليا لنا ، وذلك على انقاض هيكل ربة الحب والجمال ، فنكون هكذا قد بعثنا عاداتهما من جديد ، بالعيش حيث كانت العذارى تأتي لتعبدها ، وتقدم لها بتوليياتها قربانا . . .

قلنا ، ومنذ عهد جوستينيانوس الذي اسس مدرسة الاداب الاولى في بيروت وفي الشرق باجمعه ، عرفنا على ممر الازمان اسيدا كثيرا ليس وطنيين لبنانيين فقط بل من جميع الملل والشعوب تقريبا . ولكننا ما عرفنا بعد عهد القنصل الروماني جوستينيانوس غير المفوضين الساميين الفرنسيين يأتون الى هذه البلاد ولهم ما كان له من ساطة وسلطان .
(كان المفوضون السامون يحتكرون لانفسهم الكلمة الاخيرة في كل شيء وفي كل الامور .)

وكنا نقول دوما ، عندما ينزل بنا هنا وهناك بعض الحيف من الفرنسيين : نشكر الله الذي نجانا من اعظم ، لانهم على كل شيء قديرون ! لهذا كانوا يعملون بهذه الجمهورية ما يريدون تماما .

حتى ان هذه الجمهورية كانت تبدل اسمها من وقت لآخر حسب ما يخطر على بال «البروقنصل» العظيم ، كما كانت السراي تغير رجالها حسب اهوائه ، كما تغير المرأة الحسناء قمصانها !

(وكان رئيس جمهوريتنا يترك الرئاسة فجأة اذا كان حضرة المفوض السامي قد تغلظ خاطره عليه !)

ورأينا يوما ، كما سيأتي الحديث ، احد المفوضين الساميين - الكونت دومارتيل - يقاطع رئيس جمهورية كان قد ساعده قبل يوم واحد ليفوز بالرئاسة - لان ذلك الرئيس الجديد أهمل دعوة عشيقته المفوض السامي - زوجة احد الدبلوماسيين الاجانب - للغداء الرسمي الذي اقامه احتفاء بصعوده الى منصة الرئاسة !

وبأجمعنا ، لم ننس كيف ان المفوض السامي يومذاك انتهى الى ارغام ذلك الرئيس - اميل اده - على ان يترك السراي التي كان قد جعلها مكتبه ، وينزوي الى بيته ، لا يستطيع ان يعمل شيئا الا بأمر البروقنصل .

(وايضا ولا شك ان دستورنا ضرب المقياس العالمي ، ليس فقط

بالتعدلات المتواصلة التي كان يدخلها عليه المفوضون السامون في كسل
مرة كانوا يجدون هذه المادة او تلك المادة لا تنطبق على سياسة ارتجالية
خطرت جديدا على بالهم .

كما وان دستورنا ضرب الرقم القياسي في المرات العديدة التي علقه
فيها الفرنسيون كاملا او جزئيا ، وعلقوا معه رئاسة الجمهورية والمجلس
النيابي .

(وكنا ننام مساء عندنا رئيس جمهورية ومجلس نيابي ، فاذا بنا
نستيقظ في اليوم التالي لنجد كل هذا قد الغي تماما ، او قد علق الى
زمن غير معين !

وعندئذ بدلا من ذلك العدد الكبير من كبار الرجال الذين كانوا
يشكلون الرئاسة والوزارة والمجلس ، كان يأتينا حاكم فرد - لبناني عسلي
الغالب - يقوم باعمال رئيس الجمهورية ووزرائه ونوابه المعلقين ياجمعهم .
وكان هذا الشيء يستلفت النظر ، وبدل على ان ليس العبرة بكثرة الرجال
وبالوظائف المعظمة العالية ، وان حاكما واحدا يمكنه ان يحكم الدولة بافضل
من عشرات الرؤساء والوزراء الذين يحكمونها في أيام الدستور .

وقد رأينا بعد ذلك - حتى في أيام الاستقلال بعد جلاء الفرنسيين -
رأينا وزارات من ثلاثة او اربعة وزراء يحكمون ان لم يكن افضل ، فعلى
الاقل مثل وزارات الثمانية والعشرة التي جاءت بعد ذلك ، والتي كانوا
يدعونها غالبا وزارات الجبايرة !

ولكن اين هم الجبايرة في لبنان ؟

لقد كانوا ولا شك قبل ان جئنا الى هذا العالم ...

اذ انا حضرنا آخرة جميع الذين اسميناهم جبايرة في عهدنا ، فكانت
آخرتهم مسكينة زرية آخرة اقزام !



وبينما كانت جمهورية الدباس تجتاز عهدها ، لكي تقطع ثماني
سنوات من حياة لبنان السياسية ، كان الفرنسيون يمطرون البلاد
بالقرارات والصحف والمجلات الباريسية والجنדרمة الملقبين - وعن

ظرافة - بالبندورا ، وكانوا يفرقون البلاد بالصور المزلطة وبنسائهم وعائلاتهم ومستشاريهم ومعاوني مستشاريهم ومعاوني معاوني مستشاريهم ، الذين كان الانتداب يستقدمهم من فرنسا بكثرة عجيبة ، والذين كل منهم يتقاضى معاش اربعة اضعاف ما كان يتقاضاه اكبر موظف وطني في الدولة !

فقد كان مثلا ، معاون المستشار يتقاضى معاشات وتعويضات تفوق معاش وتعويضات رئيس الوزارة ، مما يجعلنا نقول ايضا ان معاش المستشار وتعويضاته كانت تفوق - ربما - معاش رئيس الجمهورية وتعويضاته !

وكانت العملة غالية في تلك الايام

وكان الرئيس الدباس لا يعيش معيشة بذخ ولا مكارم .

ومع انه كان قنوعا وبغير حاجة كبرى للمال ، فهذا لم يمنعه بعد ان ترك الرئاسة سنة ١٩٣٤ ان يسعى لان يكون رئيسا للنواب . وبعد ان فاز بما اراد ، جعل المجلس يقرر له تعويضا قدره ١٨ الف ليرة عن وظيفته السابقة قبل الرئاسة كمدير للعدلية ، مما جعل صحف البلاد وانديتها السياسية تقوم على الدباس وتتنكر له بعد ان رفعته كثيرا يوم كان رئيسا للجمهورية .

كما وانه كان قد اضاع كل مكانة وهيبة ، عندما ترك الرئاسة غاضبا حانقا متأثرا جدا - مما دل واثبت ان عنده ايضا ذلك الضعف الغريب الذي رأيناه دوما بعد ذلك برؤسائنا ووزرائنا منذ قامت هذه الجمهورية ، فلم يعرف واحد منهم كيف يخرج من الوظيفة مع كرامته !

بل كان كل منهم يخرج ذليلا غاضبا ، ضائع التوازن !

الرجل الرابع بولف الوزارة ... وفي فلكه فرعون وسحرا

في مطلع عهد الدباس ، وقعت تلك الحادثة التي كانت نقطة البداية في ذلك الصراع العنيف الذي ساد حياتنا السياسية عشرين سنة، ولما ينته! على اثر انتخاب الدباس رئيسا ، ألف اوغست باشا اديب اول وزارة لبنانية (١)

وكان «الرجل الرابع» قد قطع شوطا كبيرا في بلوغ الخطوة عند الفرنسيين ، فاذا به يتولى وزارة الداخلية في تلك الوزارة . دخل حضرته وزارة الداخلية ودعا كالحمل ، ولطيفا وقريبا جدا للناس .

ولكنه ما كاد يدخل السراي حتى اخذ يثبت وجوده بسرعة مذهشة . واخذت وزارة الداخلية التي كانت صلاحياتها في السابق محصورة بالمندوب الفرنسي ، يتحكم فيها كما يشاء ، وما وزيرها غير منفذ طائع لتعليماته واوامره - اخذت وزارة الداخلية تعمل لنفسها مقاما ومكانة بطريقة مرنة وسائنة مطمئنة ، كأن الوزير الجديد لا يخشى من جانب المندوب ملامة وغضبا . ولربما جرى ذلك بالنسبة للصدائفة والتفاهم اللذين كان قد اوثق رباطهما مع المندوب وسكرتيره . ولعل هذين هما اللذان تركاه يأخذ هذه المكانة المرموقة التي كان بدأ يتمتع بها ، فكان هذا اول وزير في الجمهورية اللبنانية استقل نوعا ما بأعمال وزارته وعمل لها كيانا خاصا .

وحكمت وزارة الباشا اديب - التي كانت مؤلفة من رجال اغلبيهم ضعفاء - مدة قصيرة ، وذلك الى اليوم الذي اضطر فيه رئيس الوزارة السفر الى باريس للاشتراك بمؤتمر الديون العمومية التي كانت تركيا

(١) الف اوغست اديب هذه الوزارة في ٣١ ايار ١٩٢٦ واستمرت حتى ٥ ايار ١٩٢٧

مرتبطة بها مع أوروبا ، وأخصها فرنسا ، وكان على لبنان الجديد ، بعد ضم ولاية بيروت إليه ، وقسم من ولاية سوريا ، ان يؤدي حسابا عما يلحقه من تلك الديون .

وفجأة ، بعد أيام من سفر اديب باشا ، وبينما كان هذا منشغلا في باريس في المؤتمر ، عاملا لتحميل الجمهورية اللبنانية اقل ديون ممكنة اسقط المجلس النيابي وزارته ، ودعا الدباس وزير الداخلية الشيخ بشارة الخوري - وطبعاً بالاتفاق مع المفوضية السامية - لتأليف الوزارة الجديدة ، مما لم يكلفه كثير عناء لما كان عنده من حيلة ومقدرة (١) .

وهكذا فجأة ، وبطريقة غير منتظرة ، صعد الرجل الرابع الى ذروة الحكم بسرعة مدهشة ، وفقط بعد اشهر قليلة من دخوله السراي !

وعلق كثيرون يومئذ تعليقات متنوعة على موقف الشيخ بشارة الخوري من رئيسه الغائب اوغست باشا اديب .

وذهب العذال للقول انه طعنه بظهره ، وانتهز مناسبة سفره ليستقطه وليجلس مكانه .

ولم يكن هناك - والحق يقال - اقل دليل على ذلك ، وهذا ما كان يدعو بشارة الخوري للقول انه مظلوم وبريء من دم ذلك الصديق . وكان يقول ايضا بمرورته المشهورة ، وابتسامته الساكنة الهادئة :

- لسبت انا الذي اضطررت للاستقالة ، وطالما انه استقال ، وكان من اللازم ان يؤلف غيره الوزارة ، فلماذا يستغرب الناس تكليفي بتشكيل الوزارة الجديدة ؟

★★★

ولكن ، كان ولا شك من الضروري الزعم ان بشارة الخوري هو الذي سحب الكرسي من تحت الباشا اديب ، في بلاد ترى دوما الشر والحيلة والخداع في كل عمل يقوم به الرجال العموميون وينجحون فيه !

واول القائلين ، واكثرهم انتقادا لموقف الشيخ بشارة الخوري

(١) الف الشيخ بشارة الخوري وزارته الاولى في ٥ ايار ١٩٢٧ وعاشت حتى ٥ اب ١٩٢٨ . وترأس وزارته الثانية من ١٠ ايار ١٩٢٩ . وبعد ذلك لم يعد الى الحكم الا سنة ١٩٤٣

المزعوم ، كان طبعا الاستاذ اميل اده نائب بيروت ، ووجه النواب يومئذ .

ومنذ ذلك التاريخ بدأ الصراع الكبير : صراع الجبارين

هو الصراع الذي عاشت هذه البلاد عشرين سنة ضمن دائرته ، وكان دوما السبب في مشاحناتها ومشاداتها وانقلاباتها السياسية هو الصراع الذي غالبا ما كان يحول قوة وعبقريّة الرجلين الكبيرين عما كان يمكنهما ان يقوموا به من خدمات للبلاد ، الى تقاتل حزبي ، والى تسخير ميزاتهم الكبيرة لخدمة احقادهما الواحد ضد الآخر .

وضرب مرض الانشقاق والتفرقة والتشاكس ليس فقط بين انصار الرجلين في المدن والقرى ، بل ايضا في السرايات ، حيث اتخذ كل موظف تقريبا موقفا حزبيا مع احد المتصارعين ، وكان ذلك في دوائر الحكومة بداية تلك الفوضى التي اوصلت الحكم الى حالته المعروفة التي انتهت اليها اخيرا ، اذ ان التعاون بين الموظفين زال من جراء الحزبية ، وما تولده من تنافر وخصام ، واخذ كل فريق منهم يخدم مصلحة حزبه دون سواها ، ويعمل للضرر بمصلحة الحزب الاخر .

وبدأت مع هذا الصراع حملة التشهير في الصحف والاندية السياسية والاجتماعية . واخذ كل من الجانبين يتهم الآخر بكل الآفادار ويحاول جره الى الشارع ليرمي به بالوحول .

واخذت البلاد تعيش سياسيا على قواعد التنافر والتزاحم الحزبي بين اميل اده وبين بشارة الخوري .

وما جرت بعد ذلك احداث ، ولا قامت انتخابات ومساومات وحرركات سياسية ومشادات عامة ، الا وكانت متصلة بالصراع بين الخوري واده ، واده والخوري . كما سيراه القراء في سياق هذا الحديث الذي قد يكون فيه الكثير من الصور الفكهة والطريفة ، ولكن فيه ايضا وبلاكثر كل الحقائق ، وفيه الرواية الجريئة الصريحة للاجداث التي كان دوما لنا اختلاط بها ، والتي حضرناها واشتركتنا فعلا بمعظمها ،

وكان من الطبيعي الا يرى بسرور اميل اده الماروني ، مارونيا اخر يلمع نجمه ، ومنافسته له تقوى وتكبر .

ولا شك ان ذلك السياسي الحديد الشاب ، الشيخ بشارة الخوري ، الذي دخل السراي من بابها الكبير ، كان قد امتعض لو ان الاستاذ اميل اده اخذ رئاسة الوزارة ، وكان اعلنها حربا شعواء على ذلك الرجل الكبير الذي كان لوقت ما معلمه في مكتبه الشهر للمحاماة !

وزاد في حفيظة اميل اده التفاف فئة من وجهاء بيروت حول بشارة الخوري ، « هذا الدخيل الجبلي » ، على قول اهل الحي السرسقي يومئذ وهو الحي الذي ينتمي الاستاذ اده اليه ، فهو زوج احدى كريمات ذلك الحي ، من السيدات الكاملات الاوصاف والمزايا في هذه البلاد .

نريد ان نقول : واحاط ميشال شيحا العالم العلامة ومدير البنك المحترم والكاتب الاملي بشارة الخوري من اليمين ، واحاطه من اليسار هنري فرعون وجيه الكاثوليك بالبلاد ، المليونير الجريء المعروف ، وصاحب المكانة في عالم الرياضة وحياة الاندية الاجتماعية العالية ، والاوساط القنصلية والشركات الكبرى ، وما ورائه ووراء بنك شيحا من عناصر وانصار وامكانات قوية تجارية معروفة .

وفي مقدمة رجال الاعمال الذين احاطوا ببشارة الخوري منذ السماعة الاولى ايضا ال كنانة وفريد شقير المليونير المشهور والقتال ، وعدد كبير من رجال المال والاعمال ، أخذوا يدورون بفلكه ويستبشرون ويرون فيه الشمس الطالعة !

وكان هناك ايضا اصهار واقارب وانساب ال شيحا ، الكثيرون المعروفون في عالم الواجهة والقوة المالية ، وغيرهم ممن تنتسب اليهم السيدة عقيلة بشارة الخوري ، مما جعل يومذاك لرئيس الوزارة الشاب هيئة اركان حرب قوية غنية وجيئة .

هذه الهيئة كان اميل اده واوساطه منذ الاساس ، ولتزامهم في الواجهة ، وقبل ان يصل الشيخ بشارة الخوري الى الحكم ، لا يحبونها ويتجنبونها . اذ ان عالم الاستاذ اده الاجتماعي كان بالاحرى عالم طبقة العائلات الكبرى في الحي السرسقي ، ذات الثراء الموروث ، تتمتع عائلاته الكبيرة الاسم بثرواتها وتعيش بمعزل من هذه الامة في حياة ترف وبذخ ومباهج ، في الوقت الذي كان فيه عالم فرعون وشيحا وشقير وكنانة عالم الصناعة والتجارة والمصارف والشركات وهدفه الرئيسي هو المتاجرات والسباق في حلبة الاشغال .

وكان هذا العالم - عالم الاعمال - الذي اخذ يحيط ببشاره الخوري،
النقطة الحساسة التي جعلها الاستاذ اده في محاربة بشارة الخوري
نقطة الضعف في هذا الاخير ، فأخذ انصار الاستاذ اده في حملتهم الشهيرة
على بشاره الخوري يسمون عالمه بـ «الكونسريوم» الخيف ، ناسبين الى
هذا الكونسريوم المتاجرة بالنفوذ .

وظل حزب اميل اده ٢٥ سنة بعد ذلك يلاحق ببشاره الخوري باتهاماته
هذه ، حتى انقلبت الايام اخيرا ، واعتزل بشاره الخوري الحكم ، وعاد
الى بيتته .

وكان اول هجوم يومذاك على الشيخ بشارة الخوري كرئيس
وزارة اتهمه يومئذ بانه استثمر مركزه وسهل للسادة فرعون وشيخا
وشقير - الانسباء الثلاثة - شراء ارض الحكومة المعروفة بارض سكة
الحجاز على ساحة البرج ، وذلك بشروط مفيدة للكونسريوم ، منها
تشييدهم البناية التي ابنتوها فوق تلك الارض ، والتي كانت في وقتها
اكبر بنايات بيروت ، واستثمار هذه البناية لمدة مئة سنة واكثر ، على
ان ترجع - لربما ! - الحكومة بعد ذلك ...

بين المروبة والفيقية

خلال خمس وعشرين سنة تقريبا ، عاش لبنان في سياسته ضمن اطار
الرجاين ، اميل اده وبشاره الخوري ، وقد جعله صراعهما المتواصل ميدان
قتال ومشادات اشغلت الاندية والسرايات والاوساط السياسية باجمعها .

ولم يكن الاستاذ اده يريد ان يتصور ان هذا الشاب الهادي الوديع
الذي تمرن بمكتبه ، هذا الجبلي « الغشيم » الذي لم يعيش في ظلال الخي
السرسقي ، يمكنه ان يكون الاول بروما ، وذلك في الوقت الذي كان فيه
بشاره الخوري يعتبر انه بعائلته المشهورة الكبيرة بين العائلات الجبلية ،
وبعلمه اوفير وادبه الغزير ، يمكنه ان يعتلي في بيروت الى اعلى القمة ،
خصوصا وحواله تلك المجموعة من الانصار بين رجال الاعمال البيروتيين ،

وفعلا ، ما تولى الشيخ بشاره رئاسة الوزارة في ايار ١٩٢٧ ، حتى
ظهرت فيه صفات كانت مجهولة قبلا ، بالنظر لطبيعته المتكتمة ، وليزة
السكوت التي كانت تلازمه .

واخذ يأتي الى المجلس النيابي وهو - في اشد الازمات - هادئا
رصينا يقبل برحابة صدر ويصبر غريب جميع تهجمات وحملات بعض
النواب عليه ، واخصها التي كانت تأتي من جانب المصارع الاخراميل اده .

وكان يظل ساكنا ، دون ان يبدو عليه التأثر ، حتى تمر امامه
فرصة مؤاتية ، فينتهزها ، ويقول كلمة محكمة تكون فصل الخطاب .
وهكذا كان يخرج من المجلس منتصرا في اغلب الاحيان .

وكان الشيخ محمد الجسر اول من عرف في هذا السياسي الناشئ
رجل المستقبل . وقال مرة للاستاذ اده بعد جلسة نيابية اظهر فيها
بشاره الخوري سعة صدر غريبة :

* - ارى ان هذا الجبلي القروي يطلع على السطح بعجلة وسرعة ...

واخشى ان يصعب علينا كسر السلم قبل ان يسد علينا باب السطح .

ولا نعرف اذا كان الشيخ محمد الجسر - هو الاخر - يخشى من صعود بشارة الخوري ، او انه كان يقول ذلك للاستاذ اميل اده توددا اليه فقط .

ولكن الذي عرفه ان الشيخ محمد الجسر كان يميل للاستاذ اده أكثر من ميله لبشارة الخوري ، وظل هكذا حتى الساعة الاخيرة ، وقد يكون ذلك لان الاستاذ اميل اده كان صديقه وعشير صباه .

وكان سماحته يحاول ان يجعل لكلمة الاستاذ اده في المجلس مكانة اكبر من كلمة الشيخ بشارة الخوري غير ان بشارة الخوري كان في رئاسته للوزارة ، يعرف كيف يجعل سياسته تتجانس وتتناسق مع سياسته المفوضية السامية ، ومع سياسة رئيس الجمهورية ، بطريقة استطاع بها ان يتحاشى كل خلاف يمكنه ان يقع بينها وبين ذينك المرجعين الرئيسيين في حين ان رئاسة اميل اده للوزارة (١) ، جعلته يسارع منذ استلامه الحكم الى استفزاز غضب المفوضية ورئاسة الجمهورية معا . ويرجع ذلك الى الروح العاصية والارادة الجامحة المتين كان الاستاذ اميل اده يتحلى بهما .

والواقع انه لما تولى اميل اده رئاسة الوزارة ، بدأت المشاحنات حالا بينه وبين المفوضية ورئاسة الجمهورية ، اذ اراد حضرته ان يقلب الاوضاع القائمة رأسا على عقب . . . وقد احدث ضجة بعزل عدد كبير من الموظفين ، اوفى تعديل مناهج التعليم في وزارة المعارف لصالح البعثات الدينية الاجنبية المسيحية ، وفي استبعاد سياسة الدولة عن العرب والعروبة ، اذ ان اميل اده كان يفهم لبنانيته مستقلة متعصبة ، لا يريد لها نسيبا ولا قريبا !

وكان اميل اده يتكلم علنا ضد عروبة لبنان ، بينما كان الرجل الرابع ، بفضل دهائه السياسي ونفسه الكتومة ، يتحاشى دوما الخوض في موضوع موقف لبنان من البلدان العربية . واذا اضطرته الظروف لخوض

(١) تحت ضغط المعارضة التي يقودها الاستاذ اميل اده ، استقالت وزارة الشيخ بشارة الخوري الثانية في ١١ تشرين الاول سنة ١٩٢٩ ، خلفتها وزارة برئاسة الاستاذ اميل اده ، ظلت في الحكم من ١٢ تشرين الاول سنة ١٩٢٩ الى ٢٠ شباط ١٩٣٠ .

الموضوع ، فانه كان يقول اشياء تناسب نزعات الحضور الذي يسمعونه وترضي المقام الديني الذي ينتمي اليه سامعوه . وهكذا كان الشيخ بشاره دوما يتجنب الجزم في الموضوع ، فلا يتحدى النصراني ولا يتحدى المسلم ، بينما كان اميل اده يقول رأيه بصورة كاسرة .

وهذا ما جعل المسلمين في لبنان والبلدان العربية يطمئنون الى الشيخ بشاره اكثر من اطمئنانهم الى اي ماروني غيره ، خصوصا وانه لم يكن بإمكانهم ان يطمئنوا الى الاستاذ اده ، وهو اول من خرج على الناس بأسطورة الاصل الفينيقي ، للبنانيين ، زاعما انهم ما كانوا ، ولا مرة ، عربا ولا مستعربين .

وكان يأتي بأدلة مستندة على قدر ما يمكن للتاريخ - خصوصا القديم منه - اثباته من اقواله ، وراح يتعاون مع مجلة « فينيقيا » التي انشأها الشاعر المعروف باللغة الفرنسية شارل القرم ، وراحت تبث الدعاية لنظرية الفينيقية بين اللبنانيين .

وحاول الكثيرون من القائلين بالعروبة يومئذ ، دحض انتماء اللبنانيين للفينيقية . وكان اول من اهتم للقضية ذلك السياسي الشاب الاخر رياض الصلح . وهو الذي اكتشف بالمناسبة في دائرة معارف « لاروس » الفرنسية ، ان الفينيقيين عرب اقحاح ، جاؤوا من نجد في الجزيرة العربية ، واستوطنوا شواطئ البحر الابيض المتوسط وسموا انفسهم فينيقيين ، واقاموا لانفسهم مملكة كبيرة فتحت البحار وغزت شمالي افريقية وابنتت قرطجنة وخرعت الالف باء ، والارجوان .

وفي وسط هذا الخصام بين الجانبين ، لم يسود الشيخ بشاره الخوري وجهه ولا مرة بالقول مع المسلمين ان لبنان غير عربي ، كما وانه لسم يفضح نفسه امام الكنائس والاديرة بالقول ان لبنان عربي محض .



وعندما كان الاستاذ اميل اده رئيس وزارة جعلت بعض اعماله تثبت للمسلمين في لبنان انه يعمل سياسة لبنانية اعتزالية محضة . ومعنى السياسة اللبنانية المحضة جعل الحكومة اللبنانية ترندي الطقم الفرنجي المسيحي اكثر من ارتداء العباءة العربية .

و ذات صباح اجتمع المجلس النيابي ، و اظهر عدم رضاه عن سياسة
رئيس الوزارة الانعزالية ، التي تفضب المسالمين و حلفائهم الارثوذكس ،
كما تفضب عددا من الموارنة من غير انصاره .

وا حس الناس حالا ان الرجل الرابع يشتغل من وراء الستار ،
مع تظاهره بالتزام الحياد ، منذ اليوم الذي صار فيه الاستاذ اده رئيس
وزارة ، و انه هو الذي يثير عليه الان العناصر الاسلامية في المجلس ، يضمها
الى بعض النواب الموارنة الذين يماشونه .

و كان بشارة الخوري قد ترك حماس اده للبنانية الانعزالية
بتزايد و يقوى حتى جعله أخيرا يخرّب و يهدم رئاسته بيده .



و جاء الوقت الذي وجد فيه رئيس الوزارة اكثر ريته في المجلس
تنقلب الى اقلية (١)

فاعتزل ، ولكنه اعتزل غاضبا حائقا ، بعكس الرجل الرابع الذي
ترك الوزارة مبتسما ساكنا .

و غضب و حنق الاستاذ اده ، هما اللذان جعلنا الناس الذين كانوا
يعتبرون - ولا يزالون يعتبرون - الاستاذ اده من اكبر الرجال ، ينسبون
اليه ايضا المرض الذي اصاب الدباس ، و اصاب من بعده كل رئيس وزارة
أو رئيس جمهورية في هذه البلاد : وهو مرض عدم معرفة الذهب
بالتسامية و سكون .



و قامت يومئذ ظاهرة كان لها معناها الكبير في هذه المناسبات
التي كانت قائمة .

ذلك ان رئيس الجمهورية الدباس كلف الاستاذ اده بعد استقالته
بتأليف الوزارة عن جديد - كما يقتضيه العرف و العادة . ولكن استعصى
الامر على ذلك الرجل الكبير ، مما جعله يحاول استعمال شتى الطرق

(١) دخل المجلس النيابي وزارة اده في ٢٠ شباط ١٩٢٠ ، فاضطرت الى الاستقالة .

لتشكيل وزارة جديدة ، بأية طريقة كانت وبأي عدد كان نكايته
بخصمه .

واستعصى عليه الامر جدا : فحاول ان يؤلف وزارة من ١٤ و ١٦
وزيرا ، من مجلس لم يكن فيه اكثر من اربعين نائبا ، وذلك ليرضي اكبر
عدد من النواب ، ومع ذلك لم ينجح (١)

وفي تلك الايام ، لم يكن احد يجسر في بلد ناشيء عدد سكانه مليون ،
وكان بالامس متصرفية صغيرة من الدولة العثمانية ، ان يؤلف وزارة تزيد
عن الاربعة او الخمسة وزراء ...

(١) ظلت الازمة الوزارية مفتوحة مدة اسبوعين في جو مكفهر ، فلما فشل اده في
تأليف الوزارة من جديد ، ألفها اوغست باشا اديب في ٥ اذار ١٩٣٠ .

جورج لطف الله · المرشح لعرش لبنان !

مضت رئاسة الدباس الاولى بسلام ، من سنة ١٩٢٦ الى ١٩٢٩ .
ولعلها الرئاسة الوحيدة التي لم يكن لها قصة - اللهم اذا حسبنا قصة
الامير جورج لطف الله قصة !

وانها لقصة طريفة ، وغنية ، ومضحكة . وكان يغذيها نهر من
الجنيهات .

وعند الفرنسيين مثل ماثور يقول : « هناك رب للفقراء ! »

وتقول بالمناسبة : هناك رب للصحافيين والسياسيين !

وهو ذلك الرب الذي جاء بالامير جورج لطف الله الى هذه البلاد ،
يطلب رئاسة ، ثم عرشا !

كان ذلك قبل نهاية ولاية الدباس الاولى باشهر ، ولم يكن حتى
ذلك الوقت ، احد يقول بترشيح نفسه للرئاسة .

﴿ اذ ان الرئاسة كانت ملكا للمفوض السامي ، يعطيها لمن يشاء . وكان
المجلس النيابي ينتخب الرئيس اسميا . ولكن المفوض السامي كان يحكم
بالمجلس النيابي كما يريد ويشاء ، ما دام يستطيع ، ليس فقط ان يوقف
قرارات المجلس ، بل ان يرسله الى بيته بدون ان يكون مجبورا ان يعين
سبا لذلك ! ﴾

ولم يكن احد قد تكلم عن الملكية في لبنان ، قبل ذلك بطريقة صريحة ،
منذ انفصاله عن تركيا ، غير رجل مستنير مؤمن بما كان يقول ، هو
الاستاذ حبيب البستاني ، الذي كان عنده نشاط وشفب وعنف ابن عمه
معاصرنا الان النائب اميل البستاني ، ولكن لم يكن عنده ملاينته !

وكان يقول انه انشأ حزبا بالبلاد يطالب بملكية لبنان لا جمهورية ،
يكون الملك فيها اجنبيا مسيحيا - كما كان متصرف جبل لبنان يوم كان

لا يزال ولاية تابعة للسيادة العثمانية!

ولكن تبين بعد ذلك ان ذلك الحزب الملكي كان مؤلفا فقط من صاحبه كرئيس وكنايب رئيس وكاعضاء . . .

ومات حبيب البستاني ، واخذ حزبه معه ، وما عاد احد تكلم عن الملكية في لبنان بعد ذلك حتى اظهر ذات يوم الخديوي عباس ، وقد كان لاجئا في سويسرا ، بعد ان اخرجته الانكليز من مصر انه يريد شراء عرش بلبنان! وجاء عمال له يتحدثون عن الاموال التي سيصرفها عندنا في هذا السبيل .

ولقد عرضوا علينا المشروع ، وعرضوا منافعه وميزات مكانة سمو الخديوي ، واستعداداته الطيبة للدفع . ولكنهم لم يعرضوا فعلا شيئا من جنيتها ، مما جعل الناس يعرضون بسرعة عنه وعن مشروعه . وهنا يجب ان نروي قصة الامير . . .

القصة التي اضحكت البلد زمنا واغنت عددا كبيرا من المشتغلين بالسياسة . وقد كانت قصة ذهبية لما رمى فيها الامير جورج لطف الله من مسال!

. . . ولما حام حولها من شبهات وطرائف ، ولما ظهر فيها عند اكثر السياسيين من جشع ، وكذلك لما اظهره الشيخ محمد الجسر وبعض نوابه من الاستخفاف بالمال .

ولكن كيف كانت حكاية ترشيح الامير جورج لطف الله لرئاسة الجمهورية ، وقد كان يقول عنها:

— طبعاً ساعمل مثل نابوليون الثالث: الرئاسة ستكون عندي طريق العرش!



في هذه القصة اشياء تكاد لا تصدق . وفيها مشاهد من حكايات الف ليلة وليلة ، مال وحسان ، ومبارزات ، وليال رومانية ، وانهر من الآلي والذهب ، ودسائس ومشاغبات . . . وتزوير في وزارة الخارجية بباريس ، وشيخ معمم رئيس مجلس نيابي بلبنان ، يضيع اكبر فرصة

للإثراء والسعة، في الوقت الذي كان فيه أكثر زعماء السياسة بلبنان يتصدون لانتهاز الفرصة الصحيحة ، وللتعرف الى كنوز هذا الأمير الذي ترسله السماء إلينا!



اجتمع ذات مساء ، في مطلع العام ١٩٢٩ ، بعض الصحفيين ورجال السياسة اللبنانيين ، من اهل المتاجرة والتملق ، حول مائدة سخية في قصر الجزيرة بالقاهرة . وكان صاحب القصر الامير جورج لطف الله يرأسها .

جاؤوا كالعادة ، يرسلون المدائح والثناء ، مع انه كان جبارا ومغريا كان حساسا كثيرا من هذا الجانب ، مما كان يجعله يغدق النعم على هؤلاء الاساتذة في فن الكلام!

كان ضعيفا جدا امام التمداح والثناء ، مع انه كان جبارا ومغريا بعضلاته القوية ، ذا شعر مبعثر حالك السواد ، ولون اسمر حادق . وكان مليونيريا كبيرا ، من وراء ثروة كان والده قد وضع قاعدتها عندما هاجر من لبنان لمصر ، حيث استطاع ان يربط مصيره بمصير الخديوي عباس المالك يومذاك . . .

وعندما كبرت ثروة الرجل ، وكان مصابا بمرض العظمة - وهو مرض اصاب انجاليه من بعده بطريقة اقوى واشد - قلنا وعندما كبرت ثروته ، ابتاع القصر التاريخي الجميل المدعو بقصر الجزيرة في ضواحي مصر ، وجعله مقرا لسكناه ومنزلا لضيافة عظماء الارض وكبارهم

وكان الخديوي اسماعيل قد ابنتى هذا القصر بسرعة وبكرم عظيمين لتنزل فيه الامبراطورة اوجيني الحسنة عندما تأتي لمصر مع ملكها أوروبا ، تدشن افتتاح قناة السويس ، فلا يتبدل عليها شيء ، في قصر الجزيرة مما هو في قصر التويلري بباريس ، حتى الفراش والشراشف والمرائيات واواني الزينة وباقي مفروشات القصر .

ويقال بالمناسبة ان الخديوي اسماعيل جعل في جدران غرفة نوم الامبراطورة وحمامها ثقبيا خفية ، يستطيع منها ان يمتع نظاره بعري اوجيني دي مونتجو ، الساحرة الجذابة .

وعاش مواطننا المهاجر الثري في ذلك القصر مع انجاله الاربعسة ،
ذوي القامات الجبارة ، يتنشقون في جنباته هواء العظمة والجاه ، وهو
الهواء الذي كان يسكرهم ويضيع توازنهم ويجعلهم يحلمون بالعروش .

وتلك الليلة ، حول تلك المائدة الفاخرة كان جماعة الممتلئين النبهاء
من ساسة وصحافيين - واكثرهم لبنانيين - يحيطون بالامير
جورج لطف الله .

وكانت الامارة قد اخذها والده من الملك حسين بن علي ، عندما
اعتلى هذا الاخير عرش الحجاز في الحرب الكونية الاولى ، فانضم حبيب
لطف الله الكبير مع اولاده اليه ، ينادون بالعروية ويجاهدون بجانبه
حاملين له هدايا ثمينة وأموالاً طائلة وضعوها في خدمة عرشه ، مما جعله
يقربهم اليه ويعطيهم لقب الامارة .

وكان الحديث على المائدة طريفاً وطريفاً ، وكل من الحضور يفتش
عن أفضل الطرائف يقولها لسيد المكان حتى خطر فجة خاطر جديد
لاحدهم المرحوم انطون الجميل ، رئيس تحرير «الاهرام» يومئذ ، وقال
بمناسبة الحديث عن الجمهورية اللبنانية الجديدة ، وقيامها بالطريقة
الارتجالية التي جرت :

— ولماذا لا يتكلمون في بلادنا لبنان عن عرش وملك ؟ فانما كل ايامنا
عندنا عرش وامارة . . .

ولمعت عينا الامير ، وظهرت على فمه ابتسامة عريضة ، وضرب
بقبضته القوية على المائدة ، فاهتزت الاطباق والملاعق وطار ديك رومي
في الفضاء ، وقال :

— اذا كان ليس هناك احد في لبنان يتكلم عن عرش وامارة فاننا
سأتكلم عنهما !

وعندئذ انتهز المدعوون ، الذين كانوا قد احتسوا الخمر الفاخرة
النادرة ، فرصة ما اثاره هذا الحديث عند الامير من اطماع ، فراحوا
يباحثونه فيه ويؤكدون له امكان تحقيق تلك الامنية ، وانه الوحيد الذي
يليق به العرش ، وليس غيره اهل لان يكون اميراً بلبنان !

وما انتهت الهيئة ، الا وكان الامير جورج لطف الله يعتبر نهائياً انه

صار اميرا او ملكا بلبنان . وكان ايمانه بذلك مطلقا لدرجة قيل انه في اليوم الثاني ارسل يستحضر رسوما عن صور تيجان الملوك وصولجاناتهم وعروشهم ، ليوصي على افضل تاج وصولجان وعرش للمملكة المنشودة !

وبعد ايام من ذلك ، صار قصر الجزيرة ملتقى تجار السياسة واهل الدعايات والمغامرات ، فضلا عن جيش من الصحافيين العاملين في أسواق الاستثمارات السياسية ، يقومون بالبروبغندا اللازمة للامير .

وبالغت الدعاوة له مبالغت مستغربة ، حتى ان بعضهم - وبمذكرات مطبوعة - ارجع الامير جورج لطف الله عشرة اجيال السى انوراء ، ووجد له محتدا ملكيا قديما جدا ، وجعله سليل بيت مالك عظيم في بلاد المشرق ، وصوره للناس داهية وعبقريا في العلم والسياسة والادب ، وأميرا من أمراء ألف ليلة وليلة ، بلغت مكارمه الحد الاعلى في المنح والعطاءات والهدايا التي يقدمها ، حتى انه اغرق مئات الحسان بأنهر من المساس والجواهر !

وطبعاً، كما قلنا اعلاه ، كان مرض العظمة والتفشير قديما جدا في اشقائه أيضا . فكان كل منهم له جنون جديد يشابه جنون اخيهم ، اللهم الا واحدا منهم ، هو الامير ميشال .

واذكر ان احدهم - وقد كان في البداية وزيراً للملك حسين في روما - انعم ذات مساء على نفسه بلقب مارشال ، فارتدى بزة عسكرية مذهبة ذات نجوم وسيوف عديدة ، وأخذ يعرض خدماته على حكومة بولندا ، التي كانت يومئذ في خصام مع روسيا البولشفية !

واكد انه مستعد ان يقدم لها فرقة الخيالة الصحراوية البالغة مائة ألف فارس ، التي أنشأها في الجزيرة العربية ، وهو قائدها الاعلى !



وبدا الامير جورج لطف الله حالا اتصالاته بوزارة الخارجية الفرنسية، مدركا ان هذه الوزارة هي التي يمكنها ان تعمله رئيسا للجمهورية عن طريق مفوضيتها السامية ببيروت ، ثم بعد ذلك يبقى يمشي وحده نحو الامارة ، ومن بعدها نحو الملكية !

وسافر الامير الى باريس قبل ان يأتي لبيروت !

وهناك في وليمة كبرى اقامها على شرف سكرتير وزارة الخارجية اخفى عقدا من اللؤلؤ ، نادر المثال ، ثمينا جدا ، ضمن منشقة السفارة فوق طبق الطعام المعد لزوجة السكرتير العام .

وكانت دهشة السيدة عظيمة جدا عندما جلست الى المائدة ، واكتشفت هذا الكنز الثمين ، ولم تستطع اخفائه بالرشاقة اللازمة ، مما جعل أكثر الصحافيين الحاضرين يتحدثون في اليوم الثاني عن ذلك العقد .

وطبعا عدا عن العقد دفع الامير بباريس أسمايرة العروش ما دفع ، ومنها الثلاثين ألف جنيه التي اعطاها لموظف كبير في وزارة الخارجية ، مقابل كتاب حمله من باريس عليه توقيع سكرتير الوزارة العام ، يطلب فيه السكرتير العام باسم الوزارة ، الى المفوض السامي الفرنسي ببيروت ، مساعدة الامير جورج لطف الله ليكون رئيسا للجمهورية اللبنانية !

وطبعا ، اتضح بعد ذلك ان الكتاب كان مزورا ، وان الموظف الكبير في وزارة الخارجية الفرنسية ضحك على الامير وأخذ المال ، وأعطاه ذلك الكتاب بعد ان مهره بخاتم الوزارة فقط . . . مما هو سهل عمله على كل موظف فيها ، يستطيع دخول مكتب السكرتير العام .

وكان المفوض السامي قد عرف حالا بالتزوير ، ولم يفضح الامر محافظة على سمعة وزارته بباريس . ولكن الامير ظل حتى الساعة الاخيرة لا يعرف ان الكتاب كان مزورا ، لهذا كان مدهوشا جدا من موقف المفوض السامي ضده بعد ذلك ، ومتابعته مساعدته للدباس على تجديد رئاسته !



قلنا ، حمل الامير جورج لطف الله كتاب وزارة الخارجية ، وقد تخيل انه المصعد الذي سيعصده به الى الرئاسة ثم العرش ، وجاء لبيروت بطليل وزمر ، تتقدمه حاشية من السكرتيرية والخدم السود والدعاة والصحافيين ، وذلك بعد ان نظم عماله له هنا مهرجان استقبال عظيم .

ونزل في قصر سرسقي استأجره بأعلى الاثمان ، وكان اول ما اعتنى به ساعة وصوله انه سحب من المصارف ، وبطريقة علم بها الناس ، أموالا

كبيرة . ثم استخدم عنده أمهر وأحذق طبياخ في ذلك الزمان ، طانيوس الشمالي ، الاستاذ الاكبر في علم الطعام بالامس ، وصاحب محلات وفنادق طانيوس الشهيرة الان .

وكان الامير يعرف - عن حق - ان هناك شيئين اساسيين يمكن بهما جلب الناس اليه : بطنهم وجيبهم ، أي الطعام الشهي والذهب .

وفتح أبواب القصر على مصراعيه ، يدخله الناس بين سياجين من الخدم الزوج ، المرتدين الاثواب المزركشة ، ذات الالوان الصارخة ، واتخذ له ديوانا في احدى غرف القصر ، حيث وضع مقابل المكان الذي يجلس فيه الزائرون صندوقا حديديا عظيما ، يفتحه دوما وبطريقة حاذقة - عند المناسبات ، فيشاهد زواره اكداسا من الذهب والجواهر ، ليس لها مثيل حتى في افلام السينما ... ، فيسيل لعابهم وتضعف نراهم . وهاتوا اخبارا حسنة ووعودا جميلة عن الرئاسة لسموه وخذوا جنيهات ...

وكنت انا شخصا قد اعطيت الامير القابا كبيرة جديدة ، ومنها لقب «مونسنيور» ولقب المونسنيور - سياسيا - يعطى فقط للامراء المالكين ، او المنحدرين من اصل ملكي .

ويتساءل القارئ طبعاً كم كلف هذا اللقب ، وكم دفع الامير ثمنه ؟ ولكن لم يكن هناك بيننا وبين سموه كلفة في هذا المعنى ، فقد كان كريما وكنا نستاهل !

لقد كان كريما معنا - كما كان كريما مع جميع الصحافيين الكبار في هذه البلاد ، الذين كانوا يجتمعون كل ليلة على مائدته الشهية ، ويعلونه بالامال ، حتى في الاوقات التي تكون الامال برئاسته قد ماتت تماما !

وهؤلاء الصحافيون الذين كان بينهم من يصلي بالنهار ويفخر على العالم بتجرده ونزاهته ، ومع ذلك يبيع نفسه بالليل - هؤلاء لم يكن بإمكانهم بعد ان انتهت حكاية الامير ، ان ينكروا انهم كانوا دعائه الماجورين - وذلك عندما اقام عليهم الامير الدعوى بعد ان خسر المعركة نهائيا ، يطالبهم فيها بارجاع المال الذي كانوا يأخذونه منه . ونذكر من هؤلاء

الزملاء جبران التويني ، خليل كسيب ، جبرائيل خباز ، خير الدين الاحدب ،
محمد اليافي ، نحن وغيرنا .

ويجب القول ان كل واحد منا مديون بوقف الملاحقة القضائية ضده
للرجل نفسه الذي كان جورج لطف الله قد كلفه باقامة الدعوى ، وهو
الاستاذ الكبير عبد الله اليافي ، الذي اكتسب منذ ذلك الحين صداقة
الصحافيين ، ومن هذا تبين له - كما كان يقول دوما - ان صداقة
الصحافيين لا تأتي ابدا مجانا !

وكان ديوان الشيخ محمد الجسر في ذلك الحين أظرف ديوان وألبقه ،
يجتمع فيه كل صباح أهل الروح من ساسة وصحافيين ، يتناولون
الطرائف والظرائف ومعظمها عن الامير جورج لطف الله واخباره المجلبة
ومغامراته السياسية والعاطفية ، التي كانت تلعب فيها حسان معروفات
ادوارا مغرية ، مقابل أجور باهظة وهدايا ثمينة ، عدا عن ان الامير - وقد
كان جوادا جموحا قويا - كان كذلك الامير يفتش بين نصيراته كثيرا عن
ارواء غليله من محاسنهن .

وكان ذات يوم ديوان الشيخ محمد يفص بالنواب وأهل السياسة
واللطافة ، وبينهم الاستاذ اميل اده الذي اتصف دوما بفكاهة لسانه
وظريف حديثه . وسألنا حضرته ، وكنا نقرأ من الصحافيين ، كيف اننا
أمضينا اوراقا مقابل المال الذي كنا نأخذه من جورج لطف الله . واستأذنا
بالجواب من الرفاق الاكارم - ولا ننسى لا الخباز ولا كسيب ولا التويني ،
ولا بشاره الخوري الشاعر ولا شبلي الملاط ، ولا باقي اسياء الصحافة
الذين كانوا حضورا وقلنا :

— ولكن الحساب بيننا وبين الامير سددهناه القابا وتمداحا واشعارا
وبروبفندا . ومع ذلك ، ماذا يمكنه ان يسترجع منا غير الذي اورثنا اياه
الوالد ؟

وكان هذا الكلام بعد ان غادر الامير البلاد طبعاً .

ولا شك ان رئاسته كادت تتحقق ، لكثرة ما اشترى الامير رجالا
ودعاة ، ولو ان الشيخ محمد الجسر - الذي كان خصم الامير - رضى
بالتلاثين الف جنيه ، التي حملناها له نقدا وعدا ، من أوراق المئة جنيه
المصرية - حملناها انا وسكرتير الامير ، المدعو جورج خوري ، في الهزيع

الاول من ذات ليلة ، ورفضها الشيخ رفضا باتا !

ولكن لماذا ؟

لانه كان وحده لا يزال في هذه الجمهورية السعيدة يؤمن اولا بالنزاهة ، ثم يؤمن ثانيا بالمفوض السامي ، الذي كان قد طلب منه منع المجلس من انتخاب جورج لطف الله رئيسا . وتأمين تجديد الرئاسة للديباس .

والان ، لا يجب ان يتساءل القراء اذا كنا انا وجورج ، قد أرجعنا الثلاثين الف جنيه ، كاملة كما اخذناها !

هكذا انتهت مغامرة امير قصر الجزيرة . ولكننا اثناءها عرفنا ان الكثيرين من كبار زعماء السياسة وأركانه العالية ، وبينهم احبار من امراء الدين في البلاد ، الذين كانوا يفتخرون اماننا بالتجرد والنزاهة والكرامة كانوا قد تعرفوا كثيرا على صناديق جورج لطف الله . ولكنهم لم يكونوا صريحين كما كنا نحن ، بل كان عندهم الوقاحة لان ينكروا كل ما كانوا يعرفون اننا نعرفه عنهم !

اسهينا في هذا الحديث لنقول تماما للجيل الحاضر ، ولاصحاب الانقلاب الاخير بلبنان ، الذين يدعون ان الفساد ولد بعد الاستقلال — اسهينا لنقول لهم ان الفساد قديم جدا ، وقد كان في عهد الجمهورية الاولى ، كما كان — وكما هو — في عهد الجمهوريات الثلاث التي تبعت . وسيبقى هكذا في هكذا في الجمهوريات الاخرى التي ستتبع طالما ان بيروت هي بيروت ، والجبل هو الجبل . . .

وجل ما هناك ان الاشياء كانت تجري في السابق بنوع من الظرف والكتمان ، ولم تكن العين قد وصلت للوقاحة التي هي فيها الان !

الثالوث العربي ومؤتمر الساحل

كان في ذلك الزمان ، ثلاثة من ازهى واقوى واذكى فتيان المسلمين ببيروت يجتمعون اجتماعات متواصلة في ادارة الصحيفة التي كانوا يتعاونون على اصداها .

وكان رياض الصلح احدهم وقد عاد حديثا من المنفى الذي اضطره الفرنسيون للذهاب اليه ، كما انهم اضطروه بعد ذلك للذهاب الى المنفى مرارا عديدة .

وكان رياض الصلح بعد عودته من منفاه الاول ، قد عقد هدنة مع الفرنسيين على ان لا يشتغل بالسياسة .

واين كان منفاه بالاكتر ، في كل مرة ابعده فيها الفرنسيون عن بلاده؟ كان منفاه باريس !

كان يهرب من مطاردة الفرنسيين في بيروت وينزل عليهم ضيفا في عاصمتهم !

وكان رياض الصلح ، وهو بباريس يفتنم دوما المناسبات ليتعرف الى كبار السياسيين الفرنسيين ، وليخلق بينهم اصدقاء - ان لم يكن للقضية التي كان يشتغل لها - فعلى الاقل لنفسه ، ولشخصيته الفذة التي كان لها - بنظر الفرنسيين - ذلك الراسمال الاكبر للرجال السياسيين ، وهي الظرافة وفكاهة الكلام . فانما دوما في فرنسا كان الرجل الظريف يشق طريقه ويسبق كل رجل اخر مهما كان عبقريا .

وكان رياض الصلح يتحلى بتلك الميزة ، مقرونة بالنباهة وجمال الطلعة والاعتماد على النفس .

ومرة ، بينما كان رياض الصلح منفيًا - وبباريس كالهادة - وذلك لانه كان يعمل ضد الفرنسيين في بيروت ودمشق وقد اقسام المفوض السامي

هنا ان يقطع رأسه - كان حضرته يتفق مع وزارة الخارجية الفرنسية لتقريب وجهات النظر بينها وبين الوطنيين التونسيين القائمين على الحماية الفرنسية يومذاك!

فهذا شيء وذلك شيء .

وكان أسم رياض الصلح اخذ يشع في العالم العربي ، ويأخذ يوما عن اخر اتساعا اكبر واقوى .



وعندما عاد تلك المرة لبيروت ، اتخذ له مقرا ادارة تلك الجريدة - جريدة « العهد الجديد » - لصاحبها ذاك الذي كان أيضا مكتوبا له ان يصبح فجأة داهية من الدهاة اللبنانيين ، ورئيس وزارة من اقوى رؤساء الوزارات الذين عرفناهم!

هو خير الدين الاحدب .

خير الدين الاحدب الذي كان في جريدته « العهد الجديد » يشكو من شيتين :

اولا - من التزاحم الذي قام بينه وبين رياض الصلح في عالم السياسة وزعامة الاحياء واكتساب القضايات ببيروت ، مع بقائهما صديقين حميمين . وكان رياض الصلح قد سبقه كثيرا في هذا المضمار .

ثانيا - من الضائقة المالية التي كان دوما يشكو منها ، وذلك من وراء اسرافه وسخائه واشتغاله المستديم بالسياسة ، ودعوته للوحدة العربية ، التي كان يومذاك مع رياض الصلح ، ومع الرفيق الثالث صلاح عثمان بهم يحملون لوائها ، ويزاحمون فيها جماعة مؤتمر الساحل المعروف الذي كان يترأسه الوجيه الكبير سليم علي سلام .

وكان المؤتمر مؤلفا من وجهاء بيروت للمسلمين الاصليين الذين اخذوا يهولون بمؤتمرهم على الفرنسيين ، ويقولون بضم طرابلس وجبل عامل ونصف البقاع لسوريا .

وهكذا كانت سياسة رياض الصلح ورفيقاه الاخران اوسع من سياسة مؤتمر الساحل بكثير .

كانت سياستهم عربية شاملة تقول بامبراطورية تبدأ من حدود
طهران وتنتهي في عريش مصر .



ووجهاء بيروت المسلمون كانوا دوما ، وبنوع خاص ، يتأثرون من
كل وجهة او سيادة تدخل عليهم في بيروت وتقاسمهم النفوذ ، وليس
من جبل لبنان فقط ، بل حتى من طرابلس او صيدا او غيرها من المدن
الاسلامية اللبنانية .

فانما عندما جاء الصلحيون من صيدا لبيروت ، اقتطعوا لنفسيهم
وجاهة اخذت تزداد اتساعا وتوسعا يوما بعد يوم بازدياد عدد المتعلمين
بينهم ، تساعدهم في السير الى الامام فطرتهم الذكية التي تفردوا بها كمجموع
وكأنهم باجمعهم اتخذوا لهم السياسة مهنة وتوجيها ، فانصرفوا اليها
يجدون فيها مجالا وسيعا للظهور ، في وقت كانت تمر فيه الاسر الاسلامية
البيروتية مرور عدم الاكتراث بالامور العامة .

... وهكذا اخذوا في تحقيق الكثير من اطماعهم ومشاغباتهم - قلنا
« ومشاغباتهم » ، اذ تتساوى عندهم الروح الوطنية مع الروح الثائرة التي
لها نشاط غريب ولذة قوية في خلق المشاكل وفتح الابواب الخطرة . وعلى
هذا النسق كان لا بد لهؤلاء الدخلاء الكبراء ان يزعجوا الاسر الوجيهة
الاسلامية الكبرى ببيروت ، التي استمرت مدى عشرات السنين وحدها
بالزعامة ، مما جعلها تأخذ في التذمر من طغيان آل الصلح ، وتشبيدهم
- هكذا و بسرعة - مكانة مرموقة في المدينة ، مما هو ولا شك أفتئات على
وجاهة وزعامة تلك الاسر ، ومما كان من شأنه أن يزيد التنافس الذي كان
قد بدأ فعلا مع ظهور رياض الصلح في عالم السياسة سنة ١٩٢٠ ، عندما
كان لا يزال في اوائل العمر شابا جميلا ، يتصور الناظرون اليه انه بالاكثر
معد لان يشتغل في سبي الحسان ، او الظهور بطلا في الافلام ، اكثر مما هو
معد ليشغل في المشاكل السياسية والقضايا العامة .

وعلى هذا منذ ذلك الحين اي منذ ٢٥ سنة ، وهذا التنافس يزداد
خصوصا والصلحيون ظلوا وما يزالون - حتى بعد مصرع زعيمهم الجميل
رياض الصلح - لا يرتدعون ولا يرجعون خطوة الى الوراء ، ويقفون في

وسط الطريق ، يحاولون - وبعض الاحيان بنجاح - منع الماشين نحو الامام
من الوصول !

وهكذا تبقى الاسر البيروتية الاصلية يزعجها طغيان الصليحيين عليها
وإذا لم تظهر ذلك كثيرا ، احتراماً لنفسها ، فهي على الاقل بين بعضها
البعض تشكو اغتصاب هؤلاء للوجاهة في السراي وفي المدينة .

وكانت هذه الاسر قد اخذت - من وراء هذا - تجد الافضل لها
الاعتزال في بيوتها ، كيما لا تتلاقى كثيرا في الميدان العام مع هذه الجمهرة
من ابناء الصلح ، الذين جاؤوا لبيروت بطبل وزمر وبعقول راجحة وثقافة
ممتازة ومبادئ ثورية وطنية وروح مغامرة لا يخيفها شيء ، وجاؤوا
خصوصا بالقضية العربية التي اقاموا انفسهم في لبنان حماة لها ، وحاولوا
احتكار الجهاد فيها ، واستثمروها - ان لم يكن ماديا - فعلى الاقل
سياسيا ووجاهة حتى النهاية .

وقد ارتفع ذات يوم صوت التذمر من طغيان الصليحيين في مجلس
ظريف لبعض اهل السياسة ، بحضور الامير مجيد ارسلان ، وكان حضرته
من المعجبين الدائمين بالصليحيين - وذلك بمناسبة اشتداد وطأة
هؤلاء في بيروت بعد الاستقلال ، واشادة الهياكل لرياض الصلح وصحبه ،
وتوجيه الصليحيين لانفسهم وتوجيه الشيخ بشاره الخوري لهم الى صدر
المقام . وكان قد برز منهم في ميدان السياسة كذلك الامر جمهرة جديدة
كان افرادها بالامس تلامذة صغار في المدارس ، وكان ايضا سامي بك الصلح
قد ركب حصانه يوم راشيا ، ونزل فارسا صنديدا يفتح بالقوة البرلمان
الذي كان الفرنسيون قد اقلوه . وكان تقي الدين الصلح قد وجد
الميدان الفسيح للماعيبه ومشاغباته وطرائفه ومغامراته ، يحيط به الاخوان
كاظم وعادل وعماد واعمامهم وابناء اعمامهم ، وباجمعهم جهابذة اقوياء ،
مما هو عدد كبير ونادر في اسرة واحدة باجمعها تشتغل بالسياسة ، مما
جعل ايضا الظرفاء يقولون هازلين : ان كل غريب يصل البلد ويكون حسن
الهندام ، براق العينين ، ظريف الكلام ، فشارا متلاعبا جريئا ومغامرا ،
يجب ان يكون من ابناء الصلح !

وكان عطوفة الامير قد بلغ من حبه لآل الصلح واعجابه بهم درجة
جعلته داعية كبرى لهم ، يمشي مع رياض حتى النهاية ، ويكون عند

مصرعه المفجوع الاكبر في هذه البلاد ، حتى قيل وثبت ان الدموع التي ذرفها
الامير مجيد ارسلان على رياض الصلح تساوي في كميتها الدموع التي ذرفها
باقي الناس عليه رحمه الله .

... وقال الامير بمناسبة الشكوى من الطغيان الصلحي على السياسة
بيروت :

— وماذا نعمل في اصدقائنا كبار المدينة ، اذا كانوا يقبعون مع وجاهتهم
ضمن بيوتهم حردانين ؟ وماذا نعمل اذا كان فرسان آل الصلح يرابطون
بالشوارع والمجلس والسراي ، يقطعون الطرقات بنباهتهم ونشاطهم
على باقي الناس ؟

عندما اكتشف الشيخ محمد عنتره فلهده

ولكن ، على ذكر الامير مجيد ارسلان ، متى دخل الامير مجيد الى ميدان السياسة والسراي ، وجاء الناس يرددون اقواله ؟

ان الامير مجيد ارسلان صورة لبنانية مدهشة فريدة في بابها يجب ان تكون - كما كان يقول الجنرال سبيرز - صورة طبق الاصل عن الدروز الاولين الذين استوطنوا لبنان ، واستطاعوا بالتهويل والسيوف والتروس والشوارب العالية والاسماء المطنطنة والتكاتف المذهبي ، السيطرة على هذه الجبال ، التي كانت دوما عاصية .

وهل يجب ان نسبق مجرى هذا الكتاب ، ونقول اننا الان ، في الزمن الذي وصلنا فيه في سياق هذا الحديث ، اي في الوقت الذي كان الشيخ محمد الجسر برئاسة المجلس النيابي قد وصل للاوج في امجاده حول سنة ١٩٣٣ ويوم كان الدباس لا يزال رئيسا للجمهورية - هبط من جبل لبنان فتى يافع ، طويل القامة ، قوي البنية ، يكاد الشعر يخط شاربيسه ، اللذين اشتهرا بعد ذلك كثيرا عندما اخذا يرتفعان الى الاعالي متحديين السماء وملانكتها - هبط هذا الفتى الصغير السن ، الكبير القلب ، الى بيروت فجأة فاكسح ساحة البرج وجعلها ميدانا له يتمشى على مصاطبه ، ترافقه جمهرة من زله : بضعة فتيان اشداء من بني معروف ، تقدح عيونهم شررا وتنظر شررا ، تتسلى ايديهم بالتلاعب بقبضات مسدساتهم ، يسرون على بضع خطوات من اميرهم ، والناس حولهم ينظرون اليه واليهم باستغراب ودهشة ، ، وقد اكتملت فيه هو جميع معالم البأس ، حتى ان بدائته الطبيعية كانت ايضا في هذه البلاد مظهرا من مظاهر قوة البأس ، وشرطا من شروطها .

وكان يزيد في جسامته جسده ، المسدسات العديدة التي اعتاد على حملها ، وله ذوق خاص بها ، يحاول دوما - في الظاهر - ان يخفيها

عن العيان بوداعة ، وذلك تحت بزته الحسنة الهندام . ولكنه في الوقت نفسه يعمل على استلقات نظر الناس اليها !

ويمكن القول أن الامير مجيد ارسلان يملك الان اجمل مجموعة مسدسات ، و « تومي غن » وخناجر وسيوف بين الافراد ، جاءت اكثرها هدايا من الاصدقاء والسياسيين اللبنانيين الذين يسوحن في أوروبا وأميركا وكل واحد منهم يرى من واجبه ان يعود بهدية للامير مجيد . . ولم يكن يحترار كثيرا في اية هدية ينتقيها ، بل حالا كان يبتاع مسدسا او بندقية او اي سلاح ناري ، من طراز جديد ، مما يشكل اليوم اكبر « جيخانة » خصوصية في هذه البلاد !

وهكذا نجد في قصر الامير بعاليه وفي قصر خلداه غرفة للسلاح ، جدرانها ترزح تحت اثقال البنادق والمسدسات المعلقة عليها .



وكثيرا ما كان الامير يظهر في بيروت - تكملة للعدة الحربية التي كان يحملها - متجزما جزمة طويلة الساقين ، لماعة براقه دوما ، ومرتديا سروالا حراثريا وسيعا ، وعلى رأسه الكبر كوفية وعقال مذهبان ، وهو لباس يليق به كفارس مغوار . ويقول دوما للذين يستغربون شواربه المناطق للسموات ، وهذه الاسلحة المتعددة التي يتمنطق بها ، وهذه الاثواب المستغربة في بلد زعمائه ووجهائه متفرنجو اللباس - يقول دوما مشيرا الى هندامه المدهش الذي يشبه البسة عنتر والوزير ، كما نراهما في الرسوم الخنفسارية الشرقية المعلقة في دكاكين الحكاواتية والحلاقين .

- بهذه الشوارب وهذه القيافة ، وهذا السلاح اخاطب الدروز بلغتهم ، وفي اليوم الذي احلق فيه شواربي وارمي اسلحتي واحتدي بوطا افرنجيسا قد افقد اعجابهم ، فلا يعودون يتبعونني للمعارك !

ولكن اية معارك ؟

وهل اتيح للامير معركة دموية ربما كان اتيح له ان يظهر بطولته فيها ؟

لم نر الامير يخوض اية معارك ، ما عدا تلك المعركة « الدونكوشية » ، في تلك الصورة الزيتية المعروفة الكبيرة التي كان يعلقها بارتياح كامل ، على جدار قاعة الاستقبال في مصيفة بعاليه . نشاهده في تلك الصورة داخلا الى

المعركة - معركة مجهولة - يمتطي جوادا تقدح عيناه الشرر ، وقد وقف شعر عنقه مثل المسلات ، ورفع رأسه حتى قارب الاجواء ، يمتطي به الامير غاضبا حردانا، متمنقفا بالسلاح من رأسه حتى أخمص قدميه، وقد اعتلى شارباه حتى كادا يضيعان في الغيوم ، يتجاهل تلك السباع - بحجم البسينات - المتمرغة بين اقدام الجواد الابجر الخيف ، تظهر عليها دلائل الخوف العظيم ، وتنظر الى الامير مذعورة وهي ترتجف هلعا وخوفا !

وكان عدد كبير من الفتيان الاشاوس المعجبين بالامير يعلقون في بيوتهم باكرام واجلال نسخا عن هذه الصورة .

ووصل خبرها في ايام الاستقلال، عندما اصبح الامير بطل بشامون، الى الجنرال سيرز وزير بريطانيا المفوض في بيروت، وكان له لذة خاصة بكل ما يعمله صديقه الامير ، فذهب خصيصا لمشاهدة الصورة واخذ عنها نسخا فوتوغرافية ارسلها لاصدقائه من كبار السياسيين والقواد العسكريين في انكلترا ، حيث لاقت ترحابا ظريفا جدا . وقيل يومئذ ان ملك الانكليز السابق نفسه رغب الى الجنرال سيرز ان يهديه نسخة عن هذه الصورة التي لا بد ان تكون وجدت عند جلالته مرحا كبيرا ، وقد يكون عاقبها في قاعات التصاوير الشرقية المستغربة في قصر بوكنفهام !



كان المارون امام قهوة النجار في تلك الايام يتلاقون بالفارس المغوار الذي كان قد اتخذ مقرا (سنة ١٩٣٤) عاما هناك في جوار سراي البرج بعد اعلان ترشيحه للنيابة يترقب الاخبار ، ويجلس على ثلاث او اربع كراسي مرة واحدة ، عملا بتقاليد القضايات الكبار ، زعماء الشباب بيروت ! اذ انه كان من مستلزمات الزعامة المسلحة في ذلك الزمان ان لا يجلس الزعيم على كرسي واحد !

فالكرسي الواحد مقعد العامة العاديين المسلمين الضعفاء ، ذوي الاقضية الهزيلة ، من الذين لا يحملون سلاحا ، خوفا من ان يجرحوا انفسهم !

كان الامير مجيد قبل البحث بترشيحه لا يأتي لبيروت ، ولم يكن يحيط نفسه هكذا بذلك الموكب البهج من الفتيان الاشاوس ، يمشون في ركابه ، ولم يكن قبل ذلك ايضا يعرض في المدينة - بهذه الضجة - فروسيته

للناس ، ويعرض معها شيبابه الغض للحسان . ولكن اخذ يفعل ذلك للدعاية بعد اعلان ترشيحه للنيابة خلفا لعمه الامير فؤاد ارسلان ، الذي كان نائبا ممتازا بالمجلس ، وصاحب شخصية مرموقة في الاوساط السياسية واخصها الاجنبية ، جعلت كلمته مسموعة ونفوذه السياسي ممتدا وقويا . ويشاهد المارون كل يوم تمثال الامير فؤاد يقوم في مفرق الطرقات على شاطئ خلد ، حيث يخيل للملاحظ انه يقود الناس نحو السبيل السوي .

وقد كانت حياته ايضا هكذا تتمشى على السبيل السوي ، وهو الذي جعل للفرع الارسلاني الذي ينتسب اليه المكانة المرموقة التي اخذها ، بعد ان كانت وجهة الارسلانيين الكبرى تنحصر في الفرع الاخر ، فـسـزـع الامير مصطفى .

وكان الامير فؤاد رجلا فنانا حلو الحديث كريم السمائل له سمرة جذابة ، جعلته امير المجالس وحبيب الحسان ايضا .

وكان رجلا اجتماعيا من طراز اعلى ، له مكانته في القصور والبيوتات الارستقراطية الكبرى بيروت ، وعلى الاخص المسيحية منها ، حيث كان يحتل منزلة الصديق والفارس المنشود ، تفتتح امامه ليس فقط ابواب صالونات الاستقبالات ، بل ابواب خدور الجميلات .

وقد جعلته هذه الشروط والمزايا العالية اول سيد غير مسيحي يوفق فطريا ، وبدون خطة مقصودة ، بين النصرى والدروز ، ويجعل مجتمعاتهم متجانسة وحفلاتهم متوافقة ، وذلك في الوقت الذي كان فيه النفور الطائفي على اشده من جراء خروج المسيحيين بعد انتداب الفرنسيين الى الميدان السياسي العام بطريقة وسيعة ، اخذ يعتقدوا الدروز نوعا من التحدي .

وكان من الاسباب الاولية التي جعلت الامير فؤاد يجد عند ربسات القصور تلك الخطوة المعروفة ، هي انه كان بين الاسباد اللبنانيين الارستقراطي الاوحد الذي تحلى بميزات « الجنتلمن » وبذلك الاسمرار - كما قلنا اعلاه - غير المألوف الذي يجتذب بنوع خاص ناشدات الجديد والعلاقات المستغربة ، وهن اللائي يجدن ارتياحا في الخروج بمغامراتهن على كل التقاليد ويأبين ان يعرفن للمغامرات العاطفية دينا ولا آونا !

وكان الشيخ محمد الجسر يصادق الامير فؤاد مصادقة قوية جدا ، جعلته بعد وفاته يفتش عن اقرب الناس اليه ، يعطيه مقعده في النيابة .

وحالا ذكر الشيخ محمد طبعاً ، ان الامير فؤاد كان دوما يظهر عطفاً خاصاً من بين الامراء الارسلانيين على ابن اخيه الصغير الامير مجيد ، وكان يقول ويتكهن عنه - وهو يداعبه ويلعبه - انه قد يصبح رجل المستقبل للارسلانيين ، لما كان يراه فيه من جرأة وروحاً فياضة .

وكان الامير فؤاد في المجلس النيابي صاحب كلمة عالية وقول جرىء ، يحمل على المتدبين حملات كبرى ، ولكن بالعبارات البقة المرنة ، ذات الصور الجميلة التي انصف بها عقال ونبهاء الدروز في مناقشاتهم السياسية والاجتماعية .

وكان في المجلس عندما يهاجم الانتداب ، يوافق هجومه باعترافه لفرنسا برسالتها التمدنية والتحريرية في العالم ، ومع اعلاء شأن ابطالها ، مما كان يدعو مندوب المفوض السامي للحيرة عندما يسمعه ، ويتساءل اذا كان من الواجب ان يعتب عليه لانه يلعن الانتداب ، او يشكره لانه يثني على فرنسا !

ولا ننسى يوم قام يؤكد بالمجلس ، وبطريقة فجائية حب اللبنانيين لفرنسا ، على ان تبقى بلادها ، مما دعى يومذاك المسيو سالوميالك مندوب المفوض السامي ، ل اظهار امتعاضه بقوله :

- لا نريد منك ان تحب فرنسا لا هنا ولا هناك !

وانسحب المندوب من الجلسة ، وكانت يومئذ بداية الخصومة الشديدة التي قامت بين الامير صديق فرنسا وعدو الانتداب وبين المتدبين ، وهي خصومة كان من المنتظر ان تسفر عنها نتائج كبيرة ، ولكنها ما كادت تتجلى حتى توفي الامير فؤاد فجأة .

وقيل يومئذ - عن خطأ طبعاً - في بعض الاندية المعادية لفرنسا والتي امتازت بسوء الظن بالفرنسيين وباختلاق اخبار السوء عنهم ، انهم هم الذين تدبروا للامير فؤاد حتفه ، وعملوا بطريقة خفية لموته ، وهو اتهم خنفساري لم يعرفه احد انتباهه حتى ولا الامراء انفسهم .

وطبعاً ، كان الذين اذاعوا تلك الشائعة ، يريدون باية طريقة كانت

ان يسودوا صحيفة الفرنسيين ويصورونهم مقاتلين مجرمين ويشيروا حفيظة
اصدقائهم الدروز عليهم ، في حين ان من واجبا دوما الاعتراف ان
الفرنسيين خلال سنوات انتدابهم على هذه البلاد كانوا يخطئون كثيرا ،
وكانوا يظهرون سذاجات عديدة ويبالغون جدا في المتاجرات والاستثمارات
ولكننا لم نسجل لهم ولا مرة مثل هذا العمل الذي نسيه بعضهم اليهم ،
في وفاة الامير فؤاد ارسلان .

وعندما مات رحمه الله ، وقامت البلاد تمشي في موكبه الاخير ،
لاحظ الملاحظون انه - وهو مسجى في تابوته - كان ايضا يجسر وراءه
جمهرة عديدة من غادات بيروت المعروفات حزاني حيارى !

ولم يكن الامير فؤاد رودولف فالنتينو ، ولكنه كان لبقا وحلو اللسان
كثير الادب والظرف ، وكان من الجبل ، درزيا واميرا ، مما كان شيئا
مستحليا مرغوبا بنظر طالبات الجديد . وكان هذا كله يجتذبهن ويزيدهن
اعجابا بالرجل وهو في قيد الحياة ، وقد زادهن دموعا عليه يوم وفاته .



وكما قلنا لم تكن قد اكتملت حينئذ بشيخ الشباب الامير مجيد
السن القانونية (الخامسة والعشرين) التي ينص عنها القانون كشرط
النسابة .

وكان لقب شيخ الشباب هذا ، اول لقب من الالقاب العديدة التي
حملها الامير مجيد . ومنها بعد ذلك تلك التي اطلقناها عليه في المناسبات
المؤاتية ، فصار الناس يعرفونه مثلا بلقب القائد العام لثورة الباروك -
بمناسبة الثورة التي اعلنها بعد سنوات من ذلك ، على حكومة خير الدين
الاحدب ، مما سنأتي على تفاصيله في وقته ، وكان الرجل الرابع زعيمها
السياسي .

ومن تلك الالقاب ايضا التي لبست الامير ، لقب عنتر خلده . وخلدة
هي « البلاج » الجميل الفتان الذي يملكه الامير مجيد على شاطئ بحر
الروم ، ويقوم على جانبه الان المطار الدولي العظيم المعروف باسم مطار
خلدة ، وقد ابنتى الامير مؤخرا هناك - على يد المهندس الانيق نديم
مجدلاني - قصره العربي الجميل السذي يتراءى من بعيد

كأنه احد قصور الف ليلة وليلة ، وهو صورة عن قصر بيت الدين
التاريخي ، ولكن افضل واجمل !



وادخل الشيخ محمد الامير مجيد ارسلان للمجلس بالتزوير . ليس
بتزوير الاصوات ، مما كان له سوق كبيرة ، ومما اخذت ظواهره تلويح
حتى في ذلك الوقت ، بل بتزوير السن وزيادة عمر الامير اربع او خمس
سنوات ، حتى يصبح ٢٥ سنة !

الامير مجيد وقصر الخنصرة

لم يكن التزوير في ذلك الوقت شيئا جديدا في السرايات والمجالس والمعاملات العامة والخاصة ، فانما التزوير قديم مثل الخبز ، في بلاد زورت دوما على مختلف العصور ، حتى انها بدأت في التزوير على السماء قبل ان اخذت تزور على الناس ، وذلك في مختلف الديانات الكاذبة التي خلقتها قبل ديانات التوحيد ، والتي كان كهانها يزورون لها العجائب كيما يؤمن الناس بها ، وعلى شرط ان عباد تلك الالهة كانوا يعرفون بتزويرها ويسكتون عنها - كما سكتنا عن التزويرات المتواصلة التي عملناها دوما وتجاهلنا ما فيها من عار وعيب ، مما دعا لانتشار التزوير في النهاية وامتداده الى جميع المرافق والحياة السياسية والاجتماعية باجمعها !

ولهذا السبب ، عندما تكاتفت الجمهورية اللبنانية الثانية باجمعها للتزوير في عمر الامير مجيد ، لم يجد الحكماء والعارفون شيئا جديدا بالامر حتى انهم ما استغربوا ولا شك الشكوى من كل تزوير قام بعد ذلك وفي كل وقت ، حتى في هذا الوقت الذي عملنا فيه انقلابا على التزوير ، فاي شيء في العالم ليس فيه تزوير حتى في الامور المجردة النزيهة ؟

وبتراعى اننا نحن في لبنان ، نريد ان نجعل للتزوير طابعا في كل الاشياء كيما لا يقال انه جرى شيء عندنا كامل الاوصاف والمزايا !

وكان الامير مجيد قبل ذلك ، رغما عن انشغاله الدائم بأسلحته من مسدسات وخناجر وقنابل ومتراليوزات ، ومن تخصيص ساعات عديدة من اوقاته لاستماع سير أبطال الاساطير ، ورغم انشغاله في تدريب أكثر التلامذة رفاقه في مدرسة الفرير على الاعمال الحربية وتوزيعهم فرقا تهاجم بعضها بعضا ، كما كان يفعله مثلا نابوليون عندما كان يتمرن على الفن العسكري في مدرسة بريين - رغم كل هذا كان الامير قد تعلم ايضا في تلك المدرسة قسطا من الكتابة والقراءة وكان بالمناسبة سباقا بالعربي

ولم يكن دوما ناجحا بالفرنساوي ، بالعكس عما جرى له بعد ذلك عندما كبر
بالعمر ...

احل لم يكن الامير نابغة في صفوفه ، ولكنه كان نابغة في خلق المشاكل
بالمدرسة وبين التلامذة . وكان عنده تلك الميزة التي تختص السماء بها
بعض التلامذة الذين يحفظون القراءة والكتابة ، دون ان يفتحوا الكتاب
كثيرا ، ودون ان يكتبوا على الورق كثيرا ...

وكما قلنا اعلاه ، تلقى الناس باجمعهم خبر تكبير عمر الامير ليصبح
ان يكون نائبا ، بكل هدوء ولم يقم احد يحتج على هذا التزوير ، وهي حكاية
لم تشكل جرما كبيرا حتى في ذلك الوقت مما يدل على ان وجدان ذلك
الزمان عند السياسيين لم يكن ضيقا قدر ما صار اليوم بعد الانقلاب
في لبنان . مما فيه متاجرة جديدة لمدعي التجرد والنزاهة !

وكان الفرنسيون طبعاً راضين عن تدبيرات الشيخ محمد الجسر ، اذ
انهم لم يكونوا قد نسوا - على قصر الوقت - ان الامير توفيق ارسلان
والد الامير مجيد وقف في تأييده للفرنسيين في صدر الاحتلال بوجه الامراء
الباقين الذين كانوا يوالون الشريف ويعملون بسياسته . وسجل الامير توفيق
مناصرتهم للفرنسيين في الصف الاول ، مما جعلهم عندما جاءت الفرصة
لا يجدون حيفا في اعطاء نجله خمس سنوات زيادة على عمره كيما يصير
نائبا !

وكان الامير مجيد يومئذ كبيرا بعقله وبجسمه ، مما جعل الناس لا
يتميزون انه يوم جاء نائبا كان قاصرا ، لم يبلغ سن الرشد بعد !

وكان الفرنسيون بهذه المناسبة ايضا يتابعون سياسة المتصرفين
في جبل لبنان في عهد الاتراك ، الذين كانوا يقيمون دوما شبه توازن بين
الاسرتين الدرزيتين المترعمتين : الامراء الارسلانيين والمشايخ الجنبلاطين ،
فلا يوجهون الواحدة على الاخرى كثيرا ، حتى لا يجعلون التنافس على
الزعامة بين الاسرتين المتزاحمتين يدخل في طور العنف والتقاتل .

وهذه السياسة الحكيمة نجحت - الى حد ما - مع الفرنسيين في
اوائل عهدهم ، كما نجحت مع الاتراك قبلهم ، ولكن عهد الاستقلال بعد
نهاية الانتداب لم يرهاها تماما ، وهذا ما جعل - كما سيراه القراء في سياق

هذا الحديث - المختاره تقوم وتشترك ذلك الاشتراك الفعال على الجمهورية الرابعة - جمهورية بشاره الخوري - في الانقلاب الأخير الذي اطاح برجل الاستقلال من رئاسة الجمهورية ، بطريقة فجائية لم يكن احد ينتظرها .



وكل التفات يرعى الامير مجيد في عهد الانتداب وبعده ، يجب من الطبيعي ان يزعم قصر المختاره ، ولكن الست سيدة المختارة يومئذ ، المسالمة الفهيمية ، التي درست اصول السياسة على الاتراك ، فكانت تداري - حتى في اشد الاوقات حراجه - جانب الانتداب وتأخذه هكذا بطرقها المرنة البقعة احيانا كثيرة الى جانبها ، كانت في كبرها وفي احترامها لنفسها لا تظهر امام الناس انزعاجها مطلقا من رعاية الفرنسيين في بعض المناسبات للامراء الارسلانيين خصوم المختاره ، الدائمين ، لهذا رآها الناس لا تظهر اقل امتعاض من موافقة الفرنسيين على تبديل امير ارسلاني في المجلس بابن اخيه ، ولو لزم لذلك تكبير عمر هذا الأخير .

وهو هذا التوازن الذي أهمل الرجل الرابع الشيخ بشاره الخوري متابعته أو بعثه عن جديد . ولربما فعل الشيء مرغما ، بعد أن صار رئيس جمهورية الاستقلال .

أو انه لربما لم ير من قصر المختارة - رغم سياسة الست المرنة المتوددة معه - ما كان يجعله يعيد ذلك التوازن ، ويقف عن تكبير الامير مجيد وتوجيهه في وجه قصر المختارة .

ولربما ايضا لان الشيخ بشاره الخوري - يذكر في المناسبة ان الامير مجيد رافقه دوما وفي الضراء أكثر من السراء ، ومشى بجانبه منذ الساعة الاولى في حياته السياسية . وكان العنصر الدرزي القوي الذي لا بد منه لكل حزب سياسي بلبنان يريد أن يكون مكتمل العوامل والحظ في النجاح وكذلك لمواقف الامير مجيد في الرجولة ومجاهبته الاخطار التي كانت تواجه بشاره الخوري في عراكه السياسي الدائم ، ومن هذه المواقف موقف بشامون ، وهو موقف سينمائي فريد في بابيه ، سنأتي على ذكر ما ترتب عليه من نتائج طيبة للاستقلال ، مع ان الامير ببشامون لم يفتس بارودة ، ولم يقتل احدا ، ومع ان حرب ببشامون باجمعها كانت معنوية من نوع حرب النظارات ، فخلق لها الامير بمراجله وحبيب ابو شهلا بحيله ومناوراته اسطورة جميلة اضحكت العالم واعجبته واطربته كثيرا .

الست نظيره ، سيرة القصر : فسر المختارة

كانت المختاره منذ نشأتها حتى آخر ايام الست تتمشى على سياسة تقليدية لا تتبدل ، تقضي دوما في العمل للتقرب من الحكام واكتساب صداقاتهم وعدم الاصطدام بهم مباشرة ، اعتبارا ان الشيء الذي لا تأخذه باللطف وحسن الكلام ، لا تستطيع اخذه بالزجر والقوة . وهي سياسة جميلة تتفق مع ما ازدان به الدروز من ادب خالص ومجاملات ولباقات ورثتها الست ومشت عليها حتى آخر ايامها .

وحتى في اشد الازمات التي كانت بين نجلها الثائر الدائم الشاب زعيم الحزب التقدمي الاشتراكي اليوم ، والذي كان قد اخذ على نفسه منذ الساعة الاولى التي خرج منها الى العالم السياسي ، مناوأة الحكام ، ومعارضة الدولة ، فكانت الست قبل وفاتها في كل مرة تشتد فيها معارضة نجلها للدولة تزداد توددا وتقريبا من السلطات ، لتخفف كثيرا من الازمات التي تكون قد قامت .

وجدير القول هنا ، ولو كانت المناسبة لم تأت بعد - ان الشيخ بشاره الخوري ، الذي لم يكن في ذلك الوقت قد احتل المقام المرموق في عالم السياسة ، يوم مصرع فؤاد بك جنبلاط شيخ المختاره الذي اغتاله الجناة بطريقة مفاجأة - جدير القول ان الشيخ بشاره الخوري اعتبر منذ الصغر ان من واجبه وواجب اشقائه مشايخ آل الخوري الوقوف بالاحرى دوما بجانب الامراء الارسلانيين . وقد كانوا منذ الزمن القديم على تحالف معهم ، ينتسبون واياهم الى الحزب الزبيكي ، والارسلانيون من زعمائه الاولين .

وهناك ، فضلا عن ذلك ، دين حديث ظل دوما بشاره الخوري يذكره بالخير ويريد تسديده بكل الحسنات ، وهو يشكل عنده ذكرى عزيزة جدا على قلبه ، تقول ان مشايخ آل الخوري مديونون بحياة والدهم الى الارسلانيون . وكان ذلك في بداية الحرب الكونية الاولى عندنا ابعد جمال

باشا خليل بك الخوري ، والد الشيخ بشاره عن لبنان ، معتزما التلخص منه في منفاه . وكان الشيخ خليل الخوري قد وصل في رحلته للمنفى الى منتصف الطريق ، عندما تصدى الامير شكيب ارسلان لجمال باشا - وكان له عنده حظوة كبرى - واستطاع انقاذ الشيخ خليل الخوري من الابعاد الذي كان سينتهي حتما باعدامه ، كما كان الشيء معروفا .

وحفظ انجال خليل بك الخوري هذا المعروف للامير شكيب في قرارة نفوسهم . وقد نكون رأيناهم لهذا السبب هبوا للتعاون مع الشيخ محمد الحسري في مساعدة الامير مجيد ياتي نائبا للشوف بدلا عن عمه المتوفى - كما ورد أعلاه - حافظين الجميل أولا ، ومحافظين ثانيا على تقاليدهم الحزبية مع الامراء .

وهذا باجمعه كانت المختاره في ايام الست - وربما - تمتعض منه ، ولكنها لا تجعل الشيء يظهر مطلقا ، لا بل بالعكس تظهر ارتياحها له .

اذ انها في رسالتها واحتفاظها بسكونها وهدوئها ، لم تكن تدع مجالاً لحد ينسب اليها وللمختاره الحسد والغضب . حتى انها كانت تذهب الى اكثر من الارتياح ، وتحاول ان تظهر امام الامير مجيد بمظهر الام التي تحتضن ولدا محبوبا وتنتظره - وربما - تعمل بالحقيقة لمساعدته .

ويمكننا بالمناسبة ان نذهب الى اكثر من ذلك ، ونردد هنا قولاً كانت المست قد أسرته لنا في زمن مضى ، وهو انها كانت تسعى دوما عندئذ اصداقائها الفرنسيين - الذين كانت حملات الاميرين شكيب وعادل عليهم تزعجهم - لاعطاء الامراء حصتهم كحصاة الجنبلاطين في السراي والمجلس اعتبارا انها هكذا تحفظ التوازن ولا تجعل الارسلانيين يمتعضون ويخلقون المشاكل والمشاجرات بين الدروز .

وقبل ان ياخذ الامير مجيد الثيابة ، لم يكن مضى وقت طويل على مصرع سيد المختاره الشيخ فؤاد جنبلاط وهو مصرع سجل بلبنان في ذلك الحين اول اغتيال سياسي في بلاد كانت فيها الخصومات السياسية تبلغ عنفا كبيرا ، ولكنها خصومات قليلا ما كانت تصل الى حد الاغتيالات .

وظهرت الست بعد مقتل زوجها فجأة وبطريقة غير منتظرة ، تحمل لواء المختارة ، وتخرج لميدان السياسة علنا ، بعد ان كانت قبل ذلك تتدبر سياسة المختاره من وراء ستائر خدرها ، وبسكتم واعتزال كاملين ، مما

كان يجعل معظم اهل البلاد لا يعرفون عن قوة شخصيتها ومقدرتها غير الشيء القليل .

ظهرت فجأة ، وحملت سيف النعمة ضد الذين اغتالوا زوجها ، وخرجت . وفي خروجها من خدرها خرجت هكذا على التقاليد التي كانت تقضي بتحجبها ، ولكنها احاطت عملها هذا بالشيء الكثير من النبالة والكبر والجرأة الجميلة التي يحبها الدرزي كثيرا ، مما جعل الناس - حتى اشد رجال المذهب الدرزي تمسكا بالتقاليد - يجدون في ظهورها كرامة واعتزازا لا عصيانا وتحررا ، غير متجنين على العادات والحياة الدرزية .

قامت الست تحافظ على تراث الامجاد للجنبلاطيين ، لتعطيه بدورها الى نجلها كمال بك جنبلاط ، الذي كان قد اخذ ايضا بعد وفاة والده ، وبالرغم عن حداثة سنه ، يظهر بكل مناسبة خوفه على عز المختاره وزعامتها الكبيرة من بعد مصرع سيدها ، ومن كل شيء فيه توجيه للامراء الارسلانيين وهو توجيه كان الجنبلاطيون يريدون دوما مثله للمختاره ، حتى ان بعضهم كان يريد له للمختاره باجمعها ، ويلومون الست بعد ان ماشت الفرنسيين وصار لها تلك المكانة الكبرى عندهم - لانها لم تعمل معهم لتخصيص المختاره بميزات لا يكون للارسلانيين مثلها .

وكانت الست تقول انها بحاجة للخروج من خدرها ، حتى تتولى الزعامة السياسية للجنبلاطيين ، لبينما يكبر ابنها فتسلمه الامانة كاملة قوية .

وقد كان يومئذ حكمت بك جنبلاط ابن اخ الزعيم الصريع وزوج ابنته ، لم يشترك بعد بالحياة السياسية التي امتاز بها بعد ذلك ، ولكن لمدة قليلة ، لانه لم يعيش طويلا . وكان قد اعتنق في حياته السياسية القصيرة خطة الست المسالمة ، وهي الخطة التي قادته اخيرا ، وقبل وفاته المفاجئة لان يمد يدا صريحة جلية مخلصا للارسلانيين ويتعاون معهم ويشاركهم ويشاركوه في سياستهم العامة - مما كان فتحا جديدا في سلسلة الخصومات المتواصلة التي قامت في خلال القرنين السابقين بين الاسرتين الزعيميتين للدروز .

ولا شك ان سياسة الست مع الفرنسيين كانت قد بلغت في ذلك الحين شأوا كبيرا ووجا عاليا ، اذ ان المنتدبين كانوا قد وجدوا من المختاره

تعاوننا صادقا ، فاحذوا يرفعون من شأنها ويزيدون من نفوذها مما جعلها تفرض ارادتها على القرى التابعة لقطاعيتها ، وهي ارادة توجت بالاكثـر نحو الخير والاخلاص للبنان ولفرنسا - ومع ذلك انفارق عن المشائخ الجنبلاطين السابقين بان الست كانت تفرض ارادتها بطريقة صديقة ودية ، لدرجة خلقت تقربا حيا بين الجانبين ، مما جعل الاهالي يعتبرون ان الست زعيمة صديقة محبة لهم ، لا اميرة مطلقة عليهم . وكان هذا ايضا من الاسباب التي حدت للاغتفار لها تركها تقاليد التحجب والاشتغال بالامور العامة التي هي من شأن الرجال . وللدروز على مدى الدهور اعجاب بالشجاعة عن اية طريق اتت ، ووجدوا الشجاعة مجسمة في تلك السيدة وسموها اخت الرجال ، ورفعوا شأنها اكثر واكثر واحبوها ، وسلموها القيادة ، مما كان خارجا عن عاداتهم . ولكنهم كانوا قد توسموا فيها اخلاصا وكرامة ، جعلتهم يجدون كل ما عملته حسنا وفاضلا .

ولم يكن احد من الذين عرفوا الست في حياة زوجها خجولة حية جميلة وديعة ، تعيش منفردة مبتعدة وراء جدران قصر المختاره - وهو اشبه بالاكثر بقاعة متهدمة ، مبعثرة الابراج ، مختلفة الطراز ، منه بقصر منتظم يشبه باقي القصور - لم يكن احد يفترض في ذلك الحين ان الست ستكون مدعوة لان تلعب دورا كبيرا ، ولان تتمتع في حياتها بسلطان سياسي لم يصل اليه احد من المشائخ الجنبلاطين قبلها مع كل عظمتهم وتراثهم وامجادهم .

كان الناس يسمونها الست ، واطلق الافرنسيون عليها لقب « سيدة القصر في لبنان » . وكانوا في تقاريرهم لوزارة الخارجية يلقبونها هكذا ، وهذا اللقب هو غير الذي اعطاه الكاتب الفرنسي بير بينوا لروايته المعروفة بذلك الاسم . وهي الرواية التي بطلتها حسناء لبنانية مسيحية ، جعلت قصرها مسرحا لمغامرات سياسية وغرامية وعينا ساهرة لخدمة لندن في لبنان ، وقد ابتدع الكاتب الفرنسي هذه الحكاية وجعلها صاخبة فضاحة ، وجاء فيها على معلومات ووقائع معينة جعلت كل حسناء لبنانية ابنة بيت معروف كبير ، ولها اية علاقة مع الاوساط البريطانية ، تخشى ان يفترض قراء رواية بير بنوا انها هي بطلة تلك الرواية . ذلك ان الرواية غائصة في بحور الحب والليالي الرومانسية والمشاعبات الحزبية والجاسوسية السياسية .

وبطبيعة الحال وعلى النوال الذي تكلمنا عنه ، اصبح قصر المختارة

في عهد الست ملتقى كبار رجال السياسة المحليين والاجانب ، وفي مقدمتهم الصحفيون الاميركان والانكليز والفرنسيون الذين اخذوا يفدون على هذه البلاد بكثرة ، ويجدون ان الذي يزور لبنان ، ولا يزور بكركي والمختاره يكون مثل الذي يذهب لروما ولا يزور البابا .

وكان الصحفيون الاجانب يجدون انفسهم امام سيدة حسناء كاملة الرصانة والحكمة ، ذات لغة عذبة وابتسامه لطيفة ، ونظرات وديعة هادئة ، لا تتم مطلقا عن المتباهة التي ورائها ، وكتب مراسل جريدة « شيكاغو تريبيون » بعد زيارته للمختاره في ذلك الحين : « كان ولا شك من المؤسف لو كانت سيدة كبيرة ذات نباهة وحديث جميل - كهذه السيدة - تحتجب وراء جدران هذه القلعة الحربية ، فلا يسمع الناس كلامها الطريف ويشاهدون جمالها الوقور الذي يوحى التجلة والتقدير . » وكانت الست نظيرة في كل اعمالها تجعل الناس يشعرون ويفهمون انها تتابع حرفا حرفا الرسالة التي حملتها عندما خرجت للميدان السياسي مما جعل المختاره تبقى ولا تموت .

تبقى زعيمة كبرى في جبل لبنان ، تحافظ على امجاد الجنبلاطين الذين ظلوا مئات السنين من اركان في هذا الجيل .



يتساءل الغريب الذي يطلع على سياسة لبنان كيف ان الدروز ، لهم فيه هذه المكانة القوية ، مع انهم يؤلفون اقلية مطلقة بالنسبة للطائفتين الكبيرتين المارونية والمسلمة .

والجواب على ذلك ليس فيه تردد ولا ابهام .

ولو كان فيه ما يمس بادعاء غير الدروز البطولة والشجاعة .

والجواب ان الدروز رجال سيف وحربية ، وعندهم تتجلى روح المغامرات والمخاطرة ، كأنهم لا يخافون الموت .

وقد يعود ذلك لربما لاعتقادهم بالتقمص لحياة اخرى افضل واحسن .

على كل حال هذه الشجاعة التي عندهم ، وهذا السيف السنيي يحملونه دائما ، جعل الطوائف المسالمة الاخرى تحسب لهم حسابا كبيرا يعطيهم اكثر الاحيان في الامور العامة حصة الاسد ، وهي حصة مضاعفة بالنسبة للحصة التي تاخذها طوائف الاقلية المشابهة للطائفة الدرزية بعددها .



الست تنقل الثورة من لبنان الى سوريا

كانت المفوضية السامية قد دعنتني يوم قيام الثورة بسوريا على الفرنسيين سنة ١٩٢٥ ، وهي الثورة التي بدأ بها دروز حوران ، واشترك فيها بعد ذلك بطريقة جزئية دروز جبل لبنان - دعنتني المفوضية السامية التي كانت ولا شك تقدر في بعض المزايا السياسية - للذهاب للمختاره اكون بينها وبين الفرنسيين صلة اتصال ، وذلك في مناسبة الهياج القائم عند الدروز يومئذ .

وكانت الست طبعاً تلعب دور السلام بين القرى المهتاجة في جبل لبنان ، التي كانت تستعد لمشاركة السوريين في ثورتهم ، وبين المفوضية السامية ، وتعمل على تهدئة الخواطر واقناع الفرنسيين بقبول الشيء الكثير من مطالب الثوار العامة .

كما وانها كانت من جانب آخر تخفف من الدعوة للثورة في القرى الدرزية اللبنانية ، وتطلب منها الكف عن حرب العصابات التي كانت قد بدأت بها هنا وهناك ضمن الاراضي اللبنانية . وهي عصابات كان فتيان الشوف قد شكلوها كثيرة متعددة ، وكانت بدأت تعبت بالامن وتعمل على عرقلة اعمال السلطات العسكرية .

وكانت الست في نهايتها لا تردع هذه العصابات عن مهاجمة الفرنسيين - خوفاً من اتهامها بالتعاون مع فرنسا ضد أبناء طائفها - بل تطلب من تلك العصابات الذهاب الى جبل الدروز وغوطة دمشق حيث تشترك مع الثوار السوريين ودروز حوران في القتال الذي كانت رحاه تدور بشدة ، بدلا من ان تعرض لبنان لمجزرة طائفية اذا احتكت هذه العصابات بالقرى المسيحية مما يجعلها بدون شك تصطدم بالموارنة فتقع الكارثة التي ما زال اللبنانيون العقلاء يخافونها ويعملون على استدراكها وتلافيها منذ مذابح الدروز والنصارى سنة ١٨٦٠ .

وساعد تدخل الست هذا كثيراً على تخفيف شر العصابات ضمن لبنان ، وعلى تحويل هذه العصابات للحرب في سوريا فقط ، وهو شيء خدمت به حضرتها الامان والسكون بلبنان كثيراً مما كان له تقدير كبير عند الفرنسيين الذين رفعوها يومئذ الى المرتبة العليا واعتبروها صديقة فرنسا الكبرى والشأوا في قصر المختارة مخفراً يكون في خدمتها ، وبعثوا لها بضابط كبير يحكم الشوف عسكرياً ، ويمشي بأرائها وحسب مشورتها.



وهكذا قصر المختاره - كما جاء بعد ذلك في مقال لصدقي الكاتب الاميركي هارولد كابلين في مجلة « البارتران ريفيو » عن رحلته الاستكشافية للبنان سنة ١٩٤٨ ، اذ قال : « وهكذا قصر المختاره ، الذي كان في عهد الاتراك حصن النفوذ الانكليزي بلبنان من جراء انتساب الذور في ذلك الوقت الى انكلترا ، مقابل انتساب الموارنة لفرنسا والارثوذكس لروسيا . » اذ ان في هذا ايضا من الواجب ايضا ان تنطبق القاعدة اللبنانية السياسية الارتجالية الدائمة التي تجعل الماروني يكون انكليزيا اذا كان الدرزي فرنسيا وهذا ما كان يجعل لكل فتصليية من فتصليات هذه الدول الثلاث الكبرى مرجعا سياسيا لكل طائفة من الطوائف المذكورة .

قال هارولد كابلين : وهكذا رأينا قصر المختارة الذي كان قبل الانتداب الفرنسي بيت انكلترا في الشرق ، يصبح بيت فرنسا ، مما يدل على ان الدروز - تمشيا على سياستهم التقليدية منذ القدم - يمشون للامام بسيوف مرهفة وقلوب مغامرة ، بعد ان يضموا دوما دولة كبرى ورائهم تحمي ظهورهم . لذلك بعد ان تخلت انكلترا عن حمايتهم بقبولها مختارة او مكرهة الانتداب الفرنسي ، فانهم كانوا ولا شك يلومون انفسهم ويزدرون بنباهتهم ، اذا كانوا تركوا للموارنة وحدهم استثمار وجود الفرنسيين في لبنان منتدبين وحكاما . ولهذا السبب خصوصا ، وتمشيا على هذه القاعدة ، نال الدروز من الفرنسيين حصة الاسد ، وتربعوا في ايامهم بعز ما عرفوه الا منذ مائتي سنة عندما كان جبل لبنان ملقب باسمهم : جبل الدروز !

انما الدروز في التسوية السكوتية غير المقصودة التي عملوها مع فرنسا عن طريق المختاره يومذاك ، وخصوصا بعد ثورتهم عليها في سوريا ، جعلوا

فرنسا تحسب لهم دوما الحساب الاكبر وتقف بجانبهم وتفدق عليهم النعم .
ثم امنت جانبهم بعد ذلك لدرجة جعلتها تعتبرهم حصنها الحصين
في انتدابها في لبنان .

ولكن لماذا يجرنا الحديث الى مدى اوسع من المدى الذي نريد
ان لا نتعداه في مباحث هذا الكتاب ؟

انما علينا ان نقول كيف ان الدروز - وفي مقدمتهم قصر المختارة -
تحالفوا مع الفرنسيين في ذلك الحين ، قدر واكثر مما كان الموارنة تحالفوا
معهم ، بوصفهم زبائن فرنسا الاصليين في هذا الشرق ، وهكذا اثبتت
سياسة الست - يعاونها في ذلك بعض الامراء الارسلانيين والحكماء من
الدروز ، ان شأن الاقلية في لبنان يمكن ان يصبح لها عند الفرنسيين
شأن الاكثرية واكثر .

وكان الكونت دي جوفنيل المفوض السامي قبل نهاية الثورة هو
الذي اكتشف قبل اللبنانيين انفسهم عبقرية الست السياسية ، عندما
راها تخرج من خدرها بجرأة غريبة وتستلم زعامة المختارة .

وكان في ثقته وايمانه بها انه انتقاها من بين جميع كبار الرجال الذين
كانوا يعرضون انفسهم للخدمة ، لتكون وسيطة بينه وبين الثوار ، عندما
رأى انه يهادنهم ويكف شرهم عن الافرنسيين .

وكان قد فعل ذلك متراجعا ، اذ ان دي جوفنيل تراجع كثيرا كما
هو شأن الفرنسيين دوما ، الذين لم تستطع الحروب ولا الاجيال ان تغير
طبيعتهم المتقلبة ، وتجعل لهم شأنا وتتبعها في القول والرأي .

فانما دي جوفنيل هو الذي اعلن اول ما وطأ قدماه رصيف ميناء
بيروت سنة ١٩٢٦ ، ليخلف الجنرال ساراي ، قوله المعروف ، الذي
ظلنا نرودده من بعده كثيرا بمثابة محط للكلام ، عندما وقف على شرفة
سراي البرج وخطب متوعدا ومنذرا الثوار يقول :

- الحرب لمن يريد الحرب ، والسلام لمن يريد السلم !

الصوائف: ترضل السياسة والسراى

كان الكونت دي جوفنيل سياسيا مدعيا لاهيا ، وصحفيا ممتازا ،
يهتم بالاكثر لمجالس المجون والظرافة ، ولغازالة الحسان اللواتي يأخذن
بالاخرى القسم الكبير من وقته !

وكان مداعبا كبيرا ، متلعبا فى الحديث ، فكه اللسان فائشا جدا
لدرجة يفشى معها بكل سهولة وبدون اكترات أسرار مفوضيته ويعرض
فضائحتها على الطرقات ، وخصوصا فى جريدة « الاوريان » التي كان قد
اولاها كل عطفه ، واختار صاحبها النقاش والخباز صديقين له يجد فيهما
- كما كان يقول - لطفا وظرفا ، مقرونين بالجشع وحب الكسب ، واستسلم
بكليته تقريبا لهما وجعلهما مستشاريه فى الامور العامة والخاصة .

وطبعا كانت استشارتهما تكلف صندوق المفوضية كثيرا لانهما كانا
يومئذ اغلى صحافيين فى هذه البلاد ، مما جعل كلامهما دوما من ذهب .

وبالمناسبة يجب القول انهما بين الصحافيين كان عندهما تلك الميزة
التي يعتبرها بعضهم نقيصة ، وهي ميزة عرفها الناس فينا كثيرا . انهما
لم يكونا مثل الحسناء المتراوغة الكاذبة التي تصلي بالنهار امام الناس ،
وتخطىء مع عشاقها لوحدھا بالليل !

نقول هكذا ، لاننا نتمثل الصحافة ليس عندنا فقط ، بل فى العالم
اجمع ، بضاعة للبيع . ولكنها فى بلاد صغيرة مثل بلادنا - عندما تباع نفسها
لهذا ولذلك ، فهي مهما تكتمت وفتشت عن السترة ، لا بد فى النهاية
ان تنفضح !

وصاحبنا « الاوريان » المستشاران الغاويان ، استطاعا بعض الزمن
ان يقودا دي جوفنيل بقرنيه نحو السياسة المسيحية المحضة ، فيتمشى
عليها بالبداية ، حتى اليوم الذي ازعجت فيه المسلمين والدروز كثيرا .

وطال الامر هكذا ، ودي جوفنيل ، يدير اذنيه لذيнок الصحافيين الهازلين ، مما كان يزيد من ضغائن المحمدين نحو الافرنسيين ، حتى اتيح لنا التقرب منه أخيراً ، وجعله يسمع لنا ، وعندئذ أخذ يلجأ الى سياسة التقرب من المسلمين ، وعلى الأخص التقرب من الدرروز في جبل لبنان وفي المختاره بنوع خاص ، وكان التوفيق حليفه مما كانت نتائجه في ذلك الوقت العصيب - والثورة قائمة في كل مكان - أن دي جوفنيل اكتسب مساعدة الست ، وبعض الأمراء الارسلانيين ، والزعماء الدرروز في نقل اعمال العصابات الدرزية التي كادت تملؤ جبل لبنان الى سوريا ، فكسر هكذا من حدة الثورة .

ولكننا كنا مشيينا كثيرا في الفصول السابقة الى ما بعد أيام دي جوفنيل وما تحدثنا عنه الان وعن سياسته مع دروز لبنان ومع ست المختاره ، الا لان مجيء الامير مجيد ارسلان للمجلس بعد تزوير سنه ، جعلنا بطبيعة الحال نتطرف الى هذه التفصيلات التي هي مقدمة ، ولا شك للدور الرئيسي الذي لعبه بعد ذلك كمال جنبلاط ابن الست والامير مجيد ارسلان ، في جميع الاحداث السياسية التي مرت على هذه البلاد ، وخصها احداث الانقلاب الاخير الذي اطاح بالجمهورية الرابعة - جمهورية الشيخ بشاره الخوري ، المدعوة عن حق - عند الذين ينظرون الى الامور من الجانب الوطني والسيادة اللبنانية - بجمهورية الاستقلال ، والمدعوة من جهة ثانية - ولربما عن حق ايضا - عند الاحزاب المعارضة المعادية لبشاره الخوري بجمهورية الفساد !



ورغم ما كان عليه صاحبا « الاوريان » في عهد جوفنيل وقبله من مكانة وسلطان ، مما كان يجعلنا نتعثر في اروقة ادارة « الاوريان » بالعدد الكبير من المستوظفين والمستوزرين ، يأتون يتوسطون الجريدة الكبيرة تسعى لهم وتساعدهم للوصول - رغما عن هذا ، فان الأستاذ جبران التويني هو الصحافي الاول الذي جاء بالصحافة للسراي ، تدخلها من بابها الكبير وتأخذ وزارة .

وقد كانت الصحافة تدخل السراي قبل ذلك خائفة وجملة مستعطية لاستقصاء الاخبار من جهة وللاشتراك بمجلس الشيخ محمد الظريف

من جهة اخرى . وقد كان مجلسه مجتمعاً صحافياً سياسياً ، يأتيه رواده يومياً يحمل كل منهم الاخبار السياسية التي يكون قد استطاع الوصول اليها والطرائف الجميلة التي يكون قد اخترعها . وهو مجلس كان يخلع على سراي البرج ثوباً من الفكاهة والظرافة ، وسرعان ما انقلبت الى ثوب من الهزل والسخرية ، تعدى مجلس الشيخ محمد الى الوزارات ومصالح الدولة ، فسيطرت روح المجون في كل شيء ، وحتى في الاشياء الجديدة حداً ، التي اخذ ذلك الهزل يخفف من قيمتها ويلبسها رداء من السخرية فانتشرت هذه الروح وطفقت على المناقشات العامة والمباحث الهامسة ، وخصوصاً في المجلس النيابي حيث لم يعد أحد من النواب يتورع في قول الكلمة الهزلية المضحكة التي تخطر على باله ، ولو كان في ذلك جعل المناقشات العامة الجديدة القائمة تضيع وتصبح موضوع سخرية .

واستأصمت العادة حتى اصبحت طبيعية ، مما جعل النواب والوزراء واهل السياسة يفتشون بالاحرى عن الكلمة الفكهة يقولونها ، ولو كانت تخلق جواً من الهزل في مجالس ومقامات مطلوب منها الجد والرصانة .

واخذت هذه الروح الهزلية - كما قلنا - تتسرب وتمتد حتى عمّت جميع دوائر الدولة ، فلم يعد هناك من احترام وحفظ حرمة لشيء ، مع الفارق الاكبر ان طرائف مجالس الشيخ محمد ومجتمعاته كانت تمتاز باتقان فن المجون ، ولم تتبذل كثيراً ، وبالقدر الذي تبذلت فيه بعد ذلك طرائف المجالس والمجتمعات التي ظلت تتابع حتى يومنا هذا .

وكان ذلك بالطبع لانه - كما قلنا اعلاه - كان قد اجتمع في ذلك الزمان في المجلس والحكومة رجال من اهل المقام والروح وجاءت الظرافة اليهم طبيعية جميلة ، يقولونها ويبقون على مكانتهم بين الناس ، ويظل الناس يحترمونهم

وقف مثلاً جورج بك زوين ، اعتق نائب بهذه الجمهورية ، الملقب بالاسد اللبناني ، - فهو في عهد الاتراك عندما كان عضواً بمجلس الادارة ببعداً ، حاول اقتحام باب المتصرف بالقوة - مما كان يستوجب شجاعة نادرة المثال في ذلك الحين الذي كان فيه المتصرف سيد الحياة والموت .

قلنا ، وقف جورج بك زوين بالمجلس يشكو من الحكومة أنها تسرف باموال الخزينة وترمي الفلوس من الشباك .

وجاء تأكيدا لقوله بادلة تثبت التلاعب كادت تطيح بالوزارة ، واجاب الشيخ يوسف الخازن صديق تلك الوزارة وهو الاديب الصحفي الامعي الذي لم تكن حضرته تخونه مطلقا ، والذي ساعد اكثر من الجميع ، ومن غير قصد سييء طبعاً ، على جعل المجالس التي اشتهر فيها مجالس مستهزئين ، مما ابعث كل روح جدية عنها - اجاب الشيخ يوسف الخازن : - طالما ان الوزارة ترمي الفلوس من الشباك فماذا تنتظر حتى تقف تحت الشباك ؟

وانقلب استجواب جورج زوين من وراء هذا الى عاصفة من الضحك والاستهتار .



قلنا اعلاه ، دخلت الصحافة السراي من الباب الكبير مع جبران التويني ، عندما جاء وزيراً للمعارف (في وزارة اوغست اديب ١٩٣٠) .

وكانت الصحافة دوماً - وخصوصاً الصحافة الكبرى - في هذه السراي السمسارة رقم اول لصاحب المصلحة الذي يلزمه وساطة والمرشح الذي يطلب نيابة ، او وظيفة ، وللوزير الذي يحب التوجيه والدعاية وللنائب الذي يطمع بالوزارة وللتاجر الذي يفتش عن صفقات يربح فيها ويجعل غيره يربح .

كل هذا شيء عادي مع الصحفيين في السراي ، مما لا ينتهي مطلقاً ، مهما قامت انقلابات ومهما جاءت حكومات شجاعة تقيم نفسها حارسة الطهارة والعفة والاستقامة ، كحكومة هذا الزمان ، او حكومات خائفة مضطربة لا تعرف كيف تدافع عن نفسها .

فانما يجب ان نعترف ، ويعترف الزملاء ، ان الصحف التي تتكلم في هذه البلاد على مشتركيها وبيع اعدادها لا تعيش طويلاً .

لا شك ان كلامي هذا يثير غضب بعض الصحفيين المتجحين عن كذب ورياء بالتجرد والابتعاد عن الكسب . ولكنني عرفت دوماً ان الصحفيين الذين يفضبون كثيراً ويصخبون علناً لاتهام الصحافة بعدم التجرد والنزاهة هم بالاكثر الذين قاموا باكبر المتاجرات وقد يظنونها خافية عن الناس . والناس مهما عملنا لهم ، ومهما تخفيننا امامهم ، فهم يصلون دوماً الى وقت

لا يمكنهم فيه ان يؤمنوا مطلقا بتجرد ونزاهة بعض الصحافيين .

ونذكر بهذه المناسبة أننا كنا دوما نحترم ونحب الصحافيين الذين ليس عندهم ألقاحه لان يفخروا علينا وعلى غيرنا بنزاهتهم وتجردهم ، وهما بالفم فقط ، وكانت الصحافة في تلك الايام اقل شأنا و اقل مهارة وفنا ، وخصوصا اقل عددا مما هي اليوم .

واكن كان ايضا لها فارق اخر ، وهو فارق محمود ، له شأنه . كانت الصحافة تعرف باجمعها تقريبا ، وعلى قدر الامكان ، القراءة والكتابة بالعكس عما هي الحال الآن ، حيث مقابل عدد من الصحافيين يعرفون الكتابة نجد عددا اخر منهم يمكننا ان نسمي قسما منه نصف امي ، والقسم لآخر اميا تماما !

ولكن ما جئنا هنا لنلقي درسا وعظات بالصحافة مع اننا ، قد نكون مدعويين قبل الجميع لمثل هذه المهمة ، وذلك لما يقوله الناس عنا من معرفة وخبرة بهذه المهنة ، ولاننا نعرف اكثر من غيرنا أن الصحافة اقتباس وقراءة وان الذي لا يقرأ كثيرا لا يعرف ان يكتب جيدا .

وقد قال عنا الريحاني منذ عشرين سنة ، في كتابه قلب لبنان وقد كان من اسبياد الصحافة الدوليين - قال عنا :

- هذا صحافي يعرف ان يكتب لانه يقرأ الف سطر ليكتب سطرا !



دخلت الصحافة للسراي بجبران التويني ، وكان حضرته قد اقتطع له مكانة قوية في عالم الكتابة بجريدة «الاحرار» التي كانت اكثر انتشارا وقوة في ذلك الوقت من جميع الصحف العربية بلبنان ،

فأخذت من وراء ذلك مكانة سياسية ونفوذا كبيرا ، جعلها كبار السياسيين يفتشون عن صداقتها ، وفي رأسهم الشيخ محمد الحمر ، الذي ذهب في سعيه لاكتساب جريدة «الاحرار» ، انه دعا اخيرا التويني احد أصحابها الثلاثة ليكون وزيرا .

وذلك بمجرد انه صحافي فقط ، مع الاعتراف انه كان متحليسا بميزات عديدة .

وجبران التويني صار وزيراً للمعارف ثم في عهد الاستقلال في سنة ١٩٤٦ ، وزيراً مفوضاً في الأرجنتين ، وفي كلاً المرتين كانت حملاته على الحكومة تجعلها تسرع لاسترضائه بالمناصب العالية .

وانتقى الشيخ محمد التويني وزيراً لانه لم يكن يستطيع أخذ غيره وزيراً من الشركاء الثلاثة بجريدة «الاحرار» التي يريد اكتسابها : سعيد صباغه ، خليل كسيب ، جبران التويني ،

فانما جبران التويني كان روح الجريدة والمفكر الكبير بين شريكه

وهكذا كان هو محرر الجريدة والمشرّف على سياستها ، بالرغم عن مقالات كان يسمح من وقت لآخر لاحد شريكه ان يوقعها بامضائه .

دخل التويني الوزارة ، فأيقظ حالاً اطماع باقي اساطنة الصحافة ، فأخذوا ينشطون في صحفهم ويتزاحمون على تحسينها وتجميل كتابتها وجعلها قوية ، طالما أن الصحافة توصل للوزارة .

وكان ذلك النشاط الذي اوحاه التزاحم والطمع بدخول السراي ، سبب النهضة الجديدة الاولى للصحافة اللبنانية ، والباب المفتوح لخروج اكثر الصحف من عقمها التقليدي ينشر مقالة افتتاحية طويلة مملّة يومية ، وفي تكليف المقص بعد ذلك بتحرير ما تبقى من العدد . وقد دشنت هذه النهضة طرازاً جديداً من الكتابة ، يتفق مع هذا السباق بين الصحافيين على جعل جرائدهم تفتح امامهم ابواب السراي ، كما فتحت جريدة «الاحرار» تلك الابواب امام جبران التويني .

وهكذا من وراء هذا النشاط الصحفي واقبال الجرائد على التحسين ، بدأت قوة الصحافة ونفوذها يظهران ، يساعدها يومئذ الشيخ محمد الجسر ، بنوع خاص وبطرق عديدة . وكانت مساعدته المفضلة الناجعة في فرضه ضريبة على النواب والوزراء الاغنياء ، يدفعونها هنا وهناك ، وطبعاً بطريقة كتومة للصحافيين الذين كان سماحته يعمل لتشجيعهم واكتسابهم وكان للشيخ محمد الجسر فن مستطاب في جعل الصناديق المقفلة جداً تتفتح امام اصدقائه ،

مثلاً ، صندوق النائبين المحترمين المليونيرين الاكبرين يومئذ ، اميل ثابت وعبود عبد الرزاق ، وقد اضطرهما الشيخ محمد مراراً عديدة

للاشتراك فعلا ، وبطريقة وسيعة ، لا تتفق مع يدهما الماسكة ، في المساعدات المالية التي كان سماحته يتدبرها لاصدقائه ، والتي جعات مثلا الشاعر الالمني الكبير بشاره الخوري صاحب جريدة «البريق» حينذاك ، يعاتب اميل ثابت ذات يوم ، لانه كان يشني باحدى المناسبات وفي مجلس من النواب على تجرده ، ويقول انه عرض عليه مالا فرفضه .

وجاء بشاره الخوري لاميل ثابت معاتباً يقول له :

— ماذا عملت معك حتى تخلق لي هذا الصيت ، فتقطع رزقي هكذا؟ هل تتصور انني بعد كلامك هذا سأمزق كتاب المفوضية الذي أحمله اليك منها؟

قلنا ان الصحافة خطت في دخول جبران التويني للوزارة خطوة كبيرة ، ومن وراء ذلك وضع اكثرها نفسه في خدمة سماحته، طالما انه هو الذي يدخل الصحفيين للوزارات ، وطالما هو الذي يتدبر مساعدة الصحافة ، مما كان سبباً اولياً لوقوفها بجانبه عندما انتهت مدة الدباس الثانية سنة ١٩٣٤ ، وقال الفرنسيون بوجوب انتخاب رئيس جمهورية جديد .

مخارة المبناء في السراى

وتبعنا لذلك التشايط الصبحفى الجدىد ، ظهرت جرىدة سنة ١٩٣٣ «اللىجور» الفرنسىة تغذىها أموال بنك فرعون شىحا وىوحى أقوالها وكتاباتنا الرجل الرابع ،

ظهرت جرىدة «اللىجور» ، طالما كانت هناك جرىدة «الاورىان» تقول قول الاستاذ امىل اده ، فمن الطبقى انشاء جرىدة باللغة الافرنسىة تنتمى الى بشارة الخورى .

وطبعنا ، كان فى تلك الاىام للجرائد الصادرة بالافرنسىة مكانة أقوى جدا من جمىع الجرائد العربىة بالنسبة للمنتدبىن ، الذىن يقـراون «الاورىان» و «اللىجور» مباشرة باللغة الفرنسىة ، ولا ىنتظرون ترجمات الجرائد العربىة بطرىقة غالبا ما تكون مزىفة ومقتضبة ، فىضىع فى ذلك الكثر من قوتها ومعناها .

ظهرت جرىدة «اللىجور» وظهر معها شىئان جدىدان: ترشىح الرجل الرابع الشىخ بشاره الخورى لرئاسة الجمهورية ، ونزول نسىبه وصدىقه هنرى فرعون الملىونىر ووجه الكاثولىك الاول للمىدان السىاسى .

ولم ىكن أحد ىعرف حىنداك ان فى رأس الشىخ محمد موال ىرىد ان ىفنىه ، ولا ىتوفىق مطلقا مع دهائه وخبرته السىاسىة ،

لهذا تلقى الناس يومئذ بدهشة اعلان سماحته ترشىحه أيضا لرئاسة الجمهورية مزاحما بشاره الخورى صدىقه وزمىله ،

ولم ىكن هناك مانع دستورى ىمنع هذا الترشىح . فمع اعتقاد الناس ان الرئاسة فى لىبان ىجب ان تكون مسىحىة ، لىس هناك مادة فى الدستور تعىن طائفة معىنة لتلك الرئاسة .

ولكن تجاهل الشىخ محمد - عندها اعلن ترشىحه - الحقىقة

السياسية المعلومة ، والتي كان هو نفسه يقولها في كل مناسبة ، من ان لبنان ليس منفصلا عن باقي البلدان العربية الا لان له طابعا مسيحيا دوليا معروفا ، مما يقضي ان يكون رئيس جمهوريته مهورا بهذا الطابع ، وخصوصا في ظل انتداب افرنسي جاء الى هذه البلاد مرتكزا على اساس تقاليد وصداقات فرنسا التاريخية مع نصارى الشرق ، وقد أقامت فرنسا نفسها منذ أجيال حامية لهم ،

لهذا اصطدم ترشيح الشيخ المسلم لرئاسة الجمهورية بالفرنسيين قبل الجميع . وبعد ذلك اصطدم بالانعراليين اللبنانيين الذين يريدون لبنان دوما مصطبغا بالصبغة المسيحية مهما كثر عدد غيرهم فيه .

ومع هذه الحالة ، ومع ان اميل اده كان ن اركان الانعراليين الاشد عنفا ، فقد رأيناه يأخذ جانب ترشيح الشيخ محمد ، ويحاول اقناع الفرنسيين بقبول ترشيحه ويسانده في الصحف والاندية السياسية التي كان يسيطر عليها وأخذ يعمل كل شيء في هذا السبيل ، واذا لم ينجح في ذلك فلا يكون الخطأ منه مطلقا ،

وتبارت أقلام الكتاب في جدال عنيف، وقامت الجريدتان الافرنسيتان: «ليجور» التي تساند الشيخ بشاره الخوري ، و «الاوربان» المعروفة بانتسابها للاستاذ اده ، بحملات صحفية عنيفة ، الواحدة ضد الاخرى، خرجتا فيها عن التحفظ التقليدي الذي كان مأوفا في الصحف حتى ذلك الوقت ، مما دشن عهد التشهير الصحفي الذي تتابع منذ ذلك الحين . وفتحت الجريدتان بالمناسبة قاموس المسبات والشتمات والاتهامات الفظيعة ، هذه ترسلها للشيخ بشاره الخوري وتلك ترسلها لاميل اده .

وكانت ولا شك حملات الخباز والنقاش ابعده مدى وأكثر جرأة، لعرفتاهما ان المفوضية السامية لم تكن تنظر الى ترشيح الشيخ بشاره الخوري بعين راضية .

وطبعا ، ازعجت هذه الحملات في البداية الكثيرين من أهل الرصانة والتعقل والمسألة ، ولكنها على طول الزمن ، ومن وراء ترديد تهمها يوميا حتى أصبحت جزءا لا يتجزأ من كتابات الصحف ، اعتاد الناس عليها ، وما عادوا يجدون فيها أشياء جديدة جذابة .

واتضح بهذا المعنى ، ومن الوجة الصحفية ، ان فن السب والشتم

والتعامل على كبار الرجال تسهل الكتابة فيه جدا ، فهو النوع من الكتابة
يهضمه القارئ ويلتذ به ويقبل على شراء الجرائد لاجله ،

وفي ذلك الزمن بدأت السوق الصحفية العاهرة ، كسوق بنسات
الهوى ، التي وصلنا إليها في هذه الايام ، والتي تجعل كل جريدة لا تتورع ،
عندما تكون هناك مناسبة ، من سب السماء نفسها واتهام القديسين
الابرار بكل الموبقات .

فانما وصلت الحال بالكاتب اليوم في حملاته التمهيرته على الناس ،
انه عندما تضيق قريحته ، يستعير حتى لغة البحارة على الميناء ، او لغة
اهالي زحله على البردوني ، يسب بها ويشتم !



في ذلك الوقت بدأت الحرب الصحفية في الاوربان ضد بشارة
الغوري وفي الليجور ضد اميل اده ،

وهي الحرب التي عاشت عشرين سنة ، وظلت في قيد الحياة حتى
بعد وفاة اميل اده ، اي حتى اليوم الذي ليست فيه «الاوربان» في سنة
١٩٤٨ ثوب الوقار ، وصار رئيس تحريرها النقاش رجل اعمال وتجارة
أشهر مما هو رجل قلم وكتابة .

الجمهورية الثانية ونشأة الكنتة الدستورية

اشتدت المعركة للرئاسة بين الشيخ محمد الجسر والشيخ بشاره الخوري لدرجة كادت تخلق نزاعا طائفيا خطرا ، مع ان الكثيرين من النواب المؤارفة كانوا يُبدون الشيخ محمد .

واستدرك الفرنسيون الامر ، وكانوا غير راضين عن الترشيحين . وقد يكونون هم الذين جعلوا اميل اده لا يرشح نفسه يومئذ ، وذلك بالاتفاق معه ، باعتبار أنهم كانوا مزمعين على عمل تحكيمي تقتضيه الظروف . ووجدوا في ترشيح الشيخ محمد حجة لتحقيقه ، وذلك في الحل الذي وجدوه مناسباً ، اذ اوقفوا فجأة وبدون سابق انذار مفعول الدستور والحياة البرلمانية ، وعينوا في ٣٠ كانون الثاني ١٩٣٤ ، بقرار من المفوض السامي ، حبيب باشا السعد رئيسا للجمهورية الثانية وذلك لمدة سنة واحدة جددوها سنة اخرى بعد ذلك .

وهكذا استيقظ المرشحان الكبيران في الصباح فوجدا ترشيحهما غارقا في البحر .

وذهب كل منهما الى بيته، وهو باق صديق الاخر .

اذ انهما ظلامدة ترشيحهما على افضل الصلوات ، ولم يلجأ احدهما للتشنيع بالآخر ، بل اظهرا روحا رياضية ارتاح لها الناس باجمعهم .

ولم يكن قد جاء ، بعد ، الزمن الذي اخذ فيه المتزاحمون يخرجون في المعارك السياسية عن عقولهم وتوازنهم ، ويجعلون الضغائن والاحقاد تتآكل قلوبهم ، متخذين التباغض قاعدة لاعمالهم بعضهم ضد البعض الاخر!



جاءت الجمهورية الثانية عجوزا متعثرة برجالها الكبار بالخبرة والقدر والسن .

حبيب باشا رئيس جمهورية، عبدالله بيهم سكرتيرا عاما ، بترو
طراد رئيس المجلس ، الامير فائق شهاب رئيس الديوان .

وكل واحد من هؤلاء من عمر الخبز ، ولكن مع ادعاء صارخ مبالغ به
جدا بالفتوة الدائمة ، وبالقدرة على اجتذاب الحسان . وهو ادعاء دعا جريدة
معروفة ان تقول ذات يوم جوابا على تصريح لحبيب باشا السعد كان قال
فيه ان حكومته جاءت لتقوم ما اعوج في هذه السراي ، فكتبت الجريدة
تقول :

— كيف يمكن لهذه الدولة ان تقوم ما التوى ، وهي لا يقوم معها شيء؟

واحدثت هذه الكتابة تأثيرا سيئا وغضبا بالسراي لان هذا القول
عن وهن رجالها اصاب في الصميم اولئك « الكازانوفيين » العتق ، عندما
وضعتهم الجريدة في عداد «جمعية عدم الامكان» المؤسسة القديمة في جبل
لبنان ، التي كان اعضاء مجلس الادارة ، وقد شكلوها في ساعة مجنون
في اواخر عهد الاتراك ، وذلك بالنسبة لذيذة الاختيارية العاجزين الذين
كان يضمهم ذلك المجلس ، وكانوا يعملون على ايها الحسان انهم ما
زالوا اسودا .

وكان قد انطفا ذكر هذه الجمعية منذ زمن بعيد واختفى اثرها عند
الناس ، الى ان قامت في الاونة الاخيرة ، وفي ساعة رضى الراقصه الشهيرة
الفنانة تحية كاريوكا تبعت تلك الجمعية من قبرها ، وتدخل عليها تعديلات
وتنظيمات تتناسب مع رجال حكومات الاستقلال بعد راشيا وبشامون
الذين التفوا حولها وفي رأسهم حبيب ابو شهلا وجبران النحاس وجبرائيل
المر - وراحوا يطاردونها في كل مكان ، فتتعب اخيرا منهم ، وتهزأ بهم ،
وتلقبهم من جديد بانهم من « جمعية عدم الامكان »!

وكان غضب الباشا في ذلك الحين أقوى من غضب رفاقه الاخرين
بالسراي ، اذ كانت نفسه دوما خضراء ولا يريد ان يعترف ان صوته
اصيبت باي هزال كما وان رئيس المجلس النيابي الطريف ألبق الاستاذ
بترو طراد كان ايضا يفار كثيرا على شهرته كدون جوان !

وكان معروفنا بميزات عديدة حسنة ، منها لباقتة واجتهاداته
التاريخية واستقامته وحفظه قصائد العرب على ظهر قلبه وعدائه للنوم
باكرا ، وسهره الليالي في مجالس الانس والاندية العالية . وكان معروفنا

فوق هذا بجمهرة الخادمت الجميلات المستخدمة عنده دوما الحاكمت
حكما عنتريا في دارته ، مما كان يجعله يقول في ظرف جميل :

— طالما يلزمك خادمت فلماذا لا تأخذهن حلوات ، ولو كن اغلسي
من البشعات ؟



اذا ذكرنا عهد سكون وراحة واعمال اصلاحية عادية ، ليس
فيها الشيء العبقري الكثير ولا الشيء السيء الكثير ، يجب ان نذكر
الجمهورية الثانية — جمهورية حبيب باشا السعد ومعاونيه الاجلاء
المحترمين .

واخذت تمضي ايام هؤلاء الشيوخ الحاكمين بالسراي عادية هادئة،
تمشيا على القاعدة الماثورة القائلة : «حكمة الحكم هي في ترك الامور
تدبر نفسها بنفسها ، وفي ترك الابواب المقفلة على حالها ، فانما في
السياسة عندما تفتح بابا تعرف كيف تدخل فيه — ولكن لا تعرف غالبا
كيف تخرج منه !»

وكانت حكومة الاختيارية ، الحكومة الاقل فضائح ومتاجرات من
جميع الحكومات التي عرفناها ، اولان رجالها لم يكن عندهم النشاط اللازم
والدم الحار وروح الاستثمار الجامح ، وثانيا لان الفرنسيين الذين
كانوا يحكمون مباشرة بواسطة تلك الحكومة ، ارادوا هذه المرة ان يكذبوا
اعداء الانتداب والنبهاء من الناس الذين كانوا ينكرون عليهم الخبرة
والحكمة في الحكم .

وكانت حكومة الاختيارية من جانب اخر حكومة انتقال ، جاء بها
الفرنسيون طبعاً — كما قلنا — ليفضوا مشكلة ترشيح الشيخ محمد
والشيخ بشاره لرئاسة الجمهورية ، على ان يعودوا عندما تأتي المناسبة
 لترشيح جديد .

وكان الملاحظون الذين اعتادوا ارتياد السراي يشعرون ان طسرق
الادارة التركية عادت لسراي البرج برجال لبنانيين كانوا موظفين كبارا
بايامها واخذوا عنها امثولات حكيمة في فن الحكم ، ساعدت كثيرا جمهورية
الاختيارية على تدبير امورها وامور الناس دون ضجة ولا مشاكل وبطريقة
بطيئة تتفق مع اعمار اولئك الحكام المحترمين !

واذا كان الشيخ محمد بعد توقيف الحياة البرلمانية ومجيء حبيب

باشا رئيسا معيناً للجمهورية اعتزل في مصيفه في بحر صاف مثقلاً بالامجاد والتعب ، وحيث لم تمض عليه اشهر قليلة حتى استدعاه ربه اليه ، فان بشارة الخوري ظل في الوقت الذي سقط فيه ترشيحه محافظاً على نشاطه ، فلم يأخذ اية هدنة للاستراحة واستقبل الفشل الاول برباطة الجأش التي تفرد بها والتي استقبل بها كل فشل أصابه بعد ذلك ، خلال الثماني عشرة سنة التي ظل يكافح ويحسر .

و حالاً ، وبدون انقطاع اخذ من جديد يجمع حوله اكبر عدد ممكن من محترفي السياسة الجليلين ، الذين اتقنوا الفن اكثر بكثير من محترفي السياسة في المدينة ، وذلك لان التجارة والاعمال والحياة اللاهية العابثة في بيروت لا تترك لابنائها وقتاً طويلاً للاشتغال بالسياسة واحترافها بطريقة متواصلة ، في حين ان البطالة الدائمة في الجبل وفقدان اسباب اللهو والمسرات ، جعلوا اهاليه يعملون من السياسة والحزبيات والاشياء العامة مهنة حقيقية وتسليية دائمة ، تعطيمهم خبرة وسعة وعارضة قوية مما جعلهم ، بعد انفصال لبنان عن تركيا وضم بيروت واجزاء اخرى الى جبل لبنان ، ان يكونوا اساتذة السياسة في السراي والمجلس .

وفي ذلك الوقت دل تعطيل الفرنسيين لاعمال الدستور وتوقيفهم الانتخابات لرئاسة الجمهورية ، ومجيئهم برئيس جمهورية معين ، بطريقة تحكيمية فجائية ، على انهم اعتبروا الحكم البرلماني الذي اعلنوه لعبة يتلهون بها ، يحيونها متى كانت لهم مصلحة او هوى فيها ، ويعطلونها حين لا تكون فيه نافعة لهم !

في ذلك الوقت تنادى الشيخ بشارة الخوري مع كبار السياسيين المتصرين له ، والذين ماشوه في ترشيحه ، يتعاونون معه ويؤلفون حزباً قاعدته حماية الدستور والحياة البرلمانية في البلاد ومحاربة الذين يعملون على المس بها ، والحد من استئثار الفرنسيين في التلاعب هكذا بالنظام البرلماني وبالحياة الدستورية .

وكان من جراء ذلك ان اجتمعت الجماهرة الملمومة التي اتخذت - بتلك المناسبة - اسم «الكتلة الدستورية» واقامت نفسها حارسة على الدستور والعمل على تشييته ، فلا يكون عرضة للاخطار ، على هذا النحو ، حسب اهواء المنتدبين المتقلبة غالباً .

وما كادت الكتلة الدستورية تتألف ، حتى اجتمعت على اعطاء

قيادتها للرجل الرابع ، وانبثقت عنها هيئة اركان حرب الحزب ، تجمع في صفوفها رجالا اقوياء ، معظمهم من النواب الجليلين ، تدفعهم روح المغامرات السياسية ، والمطامع لاكتساب الشعبية والمناصب معا .

وهنا نتساءل - بكل سداحة طبعنا - : هل كانت الكتلة الدستورية تقاوم الفرنسيين كما بدأت حالا تفعل عند تأليفها - لو كانت هي في السراي ، وكان خصومها الذين في السراي خارجها ؟



نشأت الكتلة الدستورية وارتكزت منذ الساعة الاولى على بضعة سياسيين اقوياء نبهاء ، مستعدين لمجابهة الاحداث بجرأة كبيرة ، وقد اعتزموا ان يشقوا لهم طريقا توصلهم للسراي والمجلس حيث اخذ خصومهم يتربعون .

وكانت هيئة اركان الحرب مؤلفة اولا من كميل شمعون ، الفتى الجميل ، المحامي الجديد الاعم ، والمثالي المتعصب في الوطنية اللبنانية والصديق يومئذ للمستتر فورلنغ مستشار القنصلية الانكليزية العامة في بيروت الذي اصبح بعد ذلك مستشار الشؤون الشرقية في حكومة لندن ، وهي صداقة كانت ينظر الناس سندا قويا للذي يحملها .
ومنذ الساعة الاولى اخذ كميل شمعون يلعب دورا رئيسيا في الكتلة الدستورية ، فاقطع حالا لنفسه مكانة منظورة ، وجعل نفسه حجة في تدبير امور المقاومة وتنظيم الحزب .

ولقد اختصت الكتلة كلا من اركان حربها برسالة معينة تقريرا ، كان تصنيفها الحقيقي الواقعي كما يأتي : ناس للسياسة وناس للرئاسة !

وكانت رسالة كميل شمعون من جهة السياسة الخارجية والمحلية والبروبغندا والدعاية ، خصوصا عند القنصليات الاجنبية . ومن جهة ثانية كان عليه واجب تدبير الانتخابات والاستعداد لها ، واكتساب الناخبين ، وهو فن اتقنه كميل شمعون كثيرا ، مما جعله يكون الحركة الدائمة لجميع الانتخابات التي جرت فيخوضها الدستوريون متحدين منظمين تماما ، وكان على المرحوم الشيخ فريد الخازن مهمات متنوعة في الحزب ، فقد كان وزيرا مفوضا للكتلة تجاه البطريركية المارونية ، حيث يتمتع بنفوذ كبير ، خصوصا بعد انتخاب عريضة بطريركا ، كما انه كان عليه

ان يحمي خزينة الحزب - لا من الانهيار فقط ، بل من نفسه ايضا -
فقد كان رحمه الله يحب المصاري واكنه كان كسابا وهابا ، يأخذ مال
الكنيسة ، يهبه لجميع هؤلاء «الباش بوزق» والبلطجية والقبضيات الذين
كان يجرحهم وراءه في كل مكان .

وقد كان عليه ان يجمع انصارا للكتلة الدستورية الجديدة ،
يجارون لاجلها ويجعلون الناس تخشاهم في القري والساكر ، خوفا من
بطشهم وتعدياتهم .

وكان الشيخ فريد الخازن يختلط بالقبضيات ورجال السيف
والمسدسات كثيرا ، لانهم يحبونه ويماشونه ويؤلفون حوله حصنا قويا
جريا يتكل على مسدساتهم ومختلف اسلحتهم واجناسهم ، ومنهم
العدد الوفير من قرصان البحر المعروفين في شواطئ جونية والفتوح
والبترون ، ثم انه كان بطبعه يحسب نفسه من الاهالي ، ويتترك
لباقى المشائخ الخازنيين ان يتبعوا تقاليدهم في الابتعاد عن العامة ،
يعزلون وراء ارسنقراطيتهم الفقيرة كثيرا ، ويتكبرون له ، فيذهبون
للقول عندما كانوا يرونه يتعاون ويتوافق بدون كلفة مع الاهالي ، اكثر
مما يتعاون ويتوافق مع المشائخ :

- لا عجب في ذلك فانه من الاهالي !

قلنا ، كان يحب المصاري كثيرا ، واكثر من اللازم ، يأخذها حيث
يجدها ، ولكن كيما يصرها ويوزعها دون ان يقيم لها وزنا ، وهذا ما
دعا الشيخ بشارة الخوري للقول :

- للشيخ فريد الخازن يدان وسيعتان ، الواحدة منهما اسرع من
الآخري ، فلا يكاد يأخذ باليمنى مثلا حتى يعطي باليسرى ، على ان لا يبقى
شيء لــــه !

وكان سليم تقلا مستشار الكتلة بالامور الداخلية وتنظيم الحرب ،
احتضنه بشارة الخوري منذ الساعة الاولى واخذ يقذف به الى الامام
وكان سليم تقلا قد تدرب في الادارة حتى وصل الى مديرية الداخلية ثم
الى محافظة بيروت ورئاسة بلديتها . وهو منذ البداية ، في نباهته
ومقدرته ربط مصيره السياسي بمصير الشيخ بشارة الخوري يتعاون
معه في كل الظروف والاوقات ، مما حدا برئيس الكتلة الدستورية الى

ان يضمن له نيابة الكاثوليك عن الجبل ويجعلها وقفا عليه ومن بعده
وقفا على اخيه .

فحين توفي سليم تقلا ، وكان بعد فوق التراب ، نادى بشسارة
الخورى بقليوب تقلا خلفا له .

وجاء الخلف أهلا للسلف ، مما جعل الناس يتساءلون اي الشقيقين
- الراحل ام القادم - هو الاكثر حنكة ونباهة !

وكان ميشال زكور الصحافي المجدد ، صاحب مجلة «المعرض» ،
النائب عن الساحل ، يمثل في الكتلة الدستورية الصحافة القوية ، ويلعب
سياسيا دور الثائر . فقد كان مثل «مارات» في عنفه وتحزبه الصميم ،
وتعصبه للكتلة ولرئيسها مما جعله عضوا بارزا في الحزب ، يضمن له
صداقة اكثر الصحافيين ، ومما جعله يجابه السلطات المنتدبة بجرأة
غربية عند الاصطدامات المتعددة التي اخذ يصطدم بها الدستوريون مع
الفرنسيين حتى سماه هؤلاء بالولد المخيف .

وكانت له القاب اخرى طريفة عرفه الناس بها في المناسبات المؤاتية،
مثلا «سبع الشياح» مسقط رأسه ، ومن حيث كان يرسل بقوة وجرأة
غريبتين تهديداته للخصوم وللمنتدبين . وكانوا يلقبونه ايضا
بروميوزكور .

وكان طريفا يحب المجون ، ويبقى صديقك مهما اسأت اليه ، انما
الى ان تنكر عليه الجاذبية التي يفترضها بنفسه - وقد توهم انها تسببي
الحسان حتما !

ومات ميشال زكور في جبهة القتال ، على مقعد وزارة الداخلية
في حكومة ائتلافية كان يمثل فيها الكتلة الدستورية متحديا يوميا رئاسة
الجمهورية مع انه احد وزرائها .

وهو الوحيد بين الدستوريين الذي اشترك بوزارات اده الائتلافية،
وظل عدوه لا ياتلف ولا يتجانس معه !

وكان الامير خالد شهاب العنصر المسلم الاول الذي انخرط في
حزب الدستوريين .

وبهذه الصفة اشترك حضرته دوما في الحكومة الائتلافية التي كان الفرنسيون يفرضونها عند الحاجة ، عندما كانوا يرون ان يضعفوا رئيس الجمهورية ساعة يشعرون انه اخذ يستقوي عليهم .

والامير خالد عاش دوما مرنا وديعا يتبع سياسة واقعية ، لا بزينة شيء من العبقرية ، كما لا يعيبها شيء من السذاجة والسماجة !

وكانت سياسته في الوزارة الائتلافية الاولى التي فرضها دي مارنل وجاء الامير خالد فيها ممثلا للكتلة الدستورية - مسالمة لدرجة جعلته يتعاون مع الرئيس اده خصم كتلته رقم اول ، تعاوننا بعيدا ، جعلنا حزبه يشتهر باخلاصه ويرغب اليه الاستقالة !

وتمرد الامير خالد على الحزب وقرر البقاء (سنة ١٩٢٨) ، وليس كل يوم يمكن الانسان ان يكون رئيس وزارة !

وتجاه هذا التمرد غير المنتظر من الرجل الوديع الحمل ، من الامير خالد شهاب ، تراجع الدستوريون عن انذارهم له ، وتفاوضوا عن تعاونه مع الرئيس اده ، خوفا من عصيان الامير خالد الذي قد يجعل الناس يعتبرون ان الكتلة مفككة الاوصال ، فلا يعودون يحسبون لها حسابا ، انما على ان يخفف الامير خالد من تعاونه مع الاستاذ اميل اده ، وان كسان الدستوريون - كما كان يقول الشيخ فريد الخازن - لا يجدون خطرا كبيرا عليهم ، يمكنه ان يأتي من اي سلوك سياسي يقوم به رجل من الناس الملاح ، مثل الامير خالد .

وهو ذات الامير خالد شهاب الذي حمله الانقلاب الجديد في تشرين الاول ١٩٥٢ مسؤوليات احكم ومقدرات ثورية ، وظل الان كما بالامس ، السياسي العادي المسالم الواقعي - الذي لا يمكنه ان يضر كثيرا ولا يمكنه ان ينفع كثيرا . والذي لم يكن يجد في حزبيته ما يمنعه ان يكون اقرب الناس للحزب الباقية المعادية للدستوريين ، وعلى الاخص للرئيس اميل اده عندما انف وزارته الائتلافية في ايام رئاسته .

وكان اميل اده يقول في المناسبة :

- لا شك ان بشاره الخوري ليس حقودا ولا يكرهنا للدرجة التي نتصورها ، فهو لو كان كذلك لارسل لنا ممثلا عن الكتلة الدستورية في

الوزارة الائتلافية رجلا اقل مسالمة ووداعة وحبا للتعاون والسلام من
الامير خالد!

وهذه السياسة التي اتبعها الامير خالد في الوزارة الائتلافية دعت
طبعا الكثيرين للاشتباه به ، وللزعم انه كان يتلاعب بدستوريته ويسلم
اموره لرئيس الجمهورية اميل اده ، مستضعا امامه ، مما كان فيه بعض
حق ، ومما كان للامير خالد فيه بعض العذر ، وذلك لما كانت توحى به
شخصية اميل اده النابهة من هيبة وخشية ، ومن لباقة في معرفة
اكتساب الرجال الذين كانوا يقتربون منه مهما كانوا يضمرون له من
خصوصية .

وقد رأينا بعد ذلك كل دستوري حتى اشددهم عداا لاميل اده ، لا
يكاد يدخل في وزارة ائتلافية في عهده الا ويتجانس نوعا ما معه .

هكذا جرى مثلا للاستاذ كميل شمعون ، والاستاذ حميد افرنجيه
الشخصيتين الاكثر بروزا بين السياسيين المعارضين ، عندما كانت
سياسة الفرنسيين «السويبتية» تجعلهم يجمعون الخصوم في وزارة واحدة

ومع ان ميدان العمل الاساسي للكتلة الدستورية كان بالاحرى جبل
لبنان حيث الاهالي ، تبعا دائما لميلهم الفطري للاشتغال بالسياسة اخذوا
ينضمون بطريقة منظمة الاحزاب التي تقوم ، وهذا بالعكس - كما قلنا
سابقا - عن باقي المناطق والمدن الساحلية ، التي امامها ميدان الاعمال
تجول فيه وتصل ، وتنشغل فيه عن السياسة واحزابها ، وهذا كان
السبب انها حتى الان لا تعرف التنظيم الحزبي الذي يعرفه جبل لبنان ،
وتبعا لهذا رأينا الاحزاب السياسية التي تقوم بالجمهورية اللبنانية ومنها
الاحزاب المنظمة تنظيما كاملا - تولد وتنظم وتثبت في جبل لبنان .

يرجع ذلك - كما قلنا اعلاه - قبل كل شيء للبطالة الدائمة في
القرى والداكر ، وهي بطالة مدهشة تجعل الاهالي دوما في افلاس
وطفر ، ولكن دوما باعجوبة غريبة لا يحتاجون ولا يجوعون ويشبهون
باعجوبة ، كانت دوما موضوع دهشة الملاحظين ، يغذيهم خصوصا شغف
كبير بالسياسة يكاد يكون نوعا من المرض .

فالسياسة عندهم مثل حب النسوان ومثل القمار ومثل
الإدمان على الحشيش .

قلنا ، مع ان الكتلة الدستورية اتخذت جبل لبنان حقلا لنشاطها السياسي الحزبي ، فهناك عناصر قوية انضمت اليها من غير جبل لبنان ايضا ، مثل الامير خالد شهاب نائب الجنوب يومئذ ، ومثل محمد العبود نائب عكار الذي جاء للحزب يحمل اسطورة ملايين والده عبود بك العبود - ويحمل معها اطماعه الاستوزارية - وعاطفته القوية نحو بشارة الخوري وكان والده عبود بك العبود يساعده ويسانده بالاكثر ليس في ماله - لان عبود بك لا يحب كثيرا صرف المال - بل في حذاقته ودهائه اللذين جعلاه يملك ثلاثة ارباع سهول عكار .

وكان صبري بك حماده رسول الشيعة عنصرا قويا في الكتلة يحمل لها تأييد عشائر الدنادشة وجعفر والحمادين ، اسيد الجبال والمغائر في بلاد بعلبك والهرمل ، ويحمل اليها ايضا نشاطه السياسي القوي الذي تحدى به اخواله مشايخ الهرمل الاولين في الانتخابات التي ربحها ، وجاء للكتلة يحمل معه كذلك رائحة الحشيش ، وهي الرائحة التي راقت - عن خطأ او صواب - حياته السياسية باجمعها ، وكان خصومه دوما يشمونها اكثر من غيرهم بكثير ، فيحاربونه بها . وبطريقة متواصلة يخترعون الروايات والحكايات المختلفة عن متاجراته بالحشيش ، مما جعل اسطورة الحشيش ترافق رئاسته الطويلة القوية للمجلس النيابي حيث جاء وقت كان حضرته في تلك الرئاسة يسيطر سيطرة كاملة على المجالس التي ترأسها .

ولكن اي زعيم في بلاد البقاع - ومن بعدها في بلاد عكار - يحترم نفسه ويملك حقولا ، ولا يزرع فيها الحشيش ، مما كان وقد لا يزال شيئا عاما ، وفيه الكثير من الارباح والبطولة ايضا ؟

فانما عمت زراعة الحشيش دوما ومنذ عهد الاتراك سهول البقاع وبعلبك بالرغم عن مطاردة الحكومات ، مما جعل الذي عنده حقل ولا يزرع الحشيش فيه يعتبره الناس جبانا خائفا !

وصار اتهام السياسيين بعضهم بعضا في هذه البلاد بزراعة الحشيش وتهميه طريقة للانتقام من بعضهم بعضا ولم يوفر غير العدد اقليل منهم .

فانما هو اتهام يلصقه غالبا الناس هنا بخصومهم لتسويد صحائف

هؤلاء ، وللنيل منهم كما لو كنا رجعنا لعهد الاثراك عندما كان الواحد منا يتهم عدوه بمسبة السلطان ، وكما انتهت الحال الان باتهامنا بالشيوعية ، اي رجل نريد له شرا .

ونحن نبحث بالحشيش الان من هذه الوجهة ، فانما اذا كان خصوم الدستوريين اتهموا صبري بك حماده وغيره من رفاقه بتهمته زرع الحشيش وتهريبه ، فان الدستوريين يساعدهم يومئذ بذلك مدير الامن العام المسيو كولباني ، وصلوا الى اتهام الاستاذ اده نفسه بزراعة الحشيش بقرية «عانا» مزرعته في البقاع . ولحسن الحظ انهم اتهموه بزراعة الحشيش فقط ، ولم يصلوا باتهامه بتهريبه . . .

ونذكر باجمعنا عندما اراد مدير الامن العام المسيو كولباني ان يخلق للرئيس اده المشاكل ، بعد ان سلطه دي مارتل عليه ، فذهب يفتش بطريقة علنية عن الحشيش في مزرعة رئيس الجمهورية اللبنانية .

ولا شك ان هذا العمل اضحك دي مارتل كثيرا ، وهو الذي لم يكن يتورع عن شيء للنيل من اميل اده ، بعد ان ساعده لان يكون رئيس الجمهورية وبصوت واحد ، فكان هكذا يستعمل كل الطرق لاجالته وتصغيره !

وكان اميل اده يظهر سخطه بطريقة ماضية لهذه التهمة ، ويدفعها عنه ويذهب الى مطاردة الحشيش وزراعته وتهريبه في كل مكان ، كيما يثبت انه فعلا عدو هذا المخدر الخيف والذيد معا .

وكان اتهام اده بزراعة الحشيش كاذبا طبعا ، ولكنه عمل ضجة كبرى في صحف فرنسا وغيرها ، اذ ليتصور القارئ دهشة الفرنسيين ودهشة لندن ونيويورك وبرلين وغيرها ، عندما تقول الجرائد ان هناك في الشرق احد رؤساء الجمهوريات يزرع المخدرات ويتاجر بها .

ومنذ ذلك الحين امتدت وتوسعت تهمة وسعاية السياسيين بعضهم بعضا بالمناجرة بالحشيش ، وصارت التهمة عادية - صحيحة او مخطئة - حتى بلغت المبالغات الكبرى ، خصوصا عندما وصلت الى القطار الملكي الذي ارسلته الحكومة المصرية لبيروت قبل حرب فلسطين ، يحمله الوفد اللبناني الذاهب لمصر بعد استقلال البلاد للاشتراك بالاجتماع الاول للجامعة العربية . وكانت السيدة المجلة عقيلة رئيس الجمهورية اللبنانية

قد سافرت يومئذ في ذلك القطار ترويحاً للنفس .

وبلغت الخصومة بين الاديين ، وبين بشارة الخوري ، انهم قالوا ان ذلك القطار كان يحمل كمية كبيرة من الحشيش يهربها الخوريون لمصر ، تحت حماية الحصانة الدبلوماسية ، وانه ليس اعضاء الوفد هم مهربوه فقط بل تشترك معهم ايضا السيدة عقيلة رئيس الجمهورية نفسها ، وهي تذهب لمصر لتحرس ولترافق الحشيش الذي تأخذه معها !



ولم ينخرط حميد افرنجيه في الكتلة الدستورية الا بعد وفاة والده قبلان بك فرنجيه الذي كان في نيابته صديقا ومناصرا للشيخ بشارة الخوري ، ولذلك عندما جاء ابنه نائبا خلفا له ارتبط حالا بالشيخ بشارة الخوري واصبح من مناصريه الاوليين ورفيقه السياسي المعزز .

ومنذ البداية ظهرت شخصية حميد افرنجيه قوية متعصبة ، تأخذ الامور باجمعها بطريقة جدية لا تقبل في امور الدولة والمجلس استهتارا ولا مجونا ، بل تريد للدولة هبة كانت هذه الاخيرة تضيعها لتقول نكتة ظريفة ، او لتقوم بعمل ارتجالي فيه الهزل والمسخرة .



فلنا تألفت الكتلة الدستورية من جانب .

وطبعا تنظمت مقابلها من الجانب الاخر كتلة اميل اده ، ودعسى رجالها في ذلك الحين بالاديين - اذ ان الكتلة الوطنية الحالية لم تكن زات النور ، وقامت مزاحمة شديدة بين الكتلة الدستورية وبين الاديين ، على اكتساب انصار من الزعماء المسلمين ، وحضرنا حينذاك سباقا غريبا نشيطا لا يكل ولا يتعب في هذا السبيل ، فانما كل حزب يقوم ولا يكون فيه زعماء مسلمون لا يمكنه ان يلقب نفسه ممثلا سياسيا للبلاد ، بل كنا نعتبره ممثلا طائفيا فقط . وهنا يجب القول ان بشارة الخوري ، مع انه يجمع في حزبه اكبر العناصر المارونية ، استطاع ان يجمع ايضا عددا من السياسيين المسلمين الكبار .

ومع ان وجهاء بيروت كانوا محسوبين على اميل اده ، مع اعترافهم

بتعصبه المسيحي ، فانهم كانوا يعتبرونه ابن البلد وكان يعرفهم ويعرفوه منذ الحداثة .

وكان أحزب الاديين - كعصر ماروني شديد المراس - روكـز ابو ناضر ، الملقب بضبع صنين . كان رئيس اركان حرب الحزب ، يدير الامور بحنكة وبرأس كبير جدا ، ولا يتورع من النزول وحده للميـسـدان ينازل الدستوريين باجمعهم .

وكان الرجل مستهترا ايضا وظريفا ، وليس عنده شيء من الصلف ، مما جعل خصومه يتهمونه ايضا بحب المال والمتاجرات والاثراء من وراء صفقات متنوعة ، حتى من وراء بيع مقابر سن الفيل الارمنية المشهورة !

وكان الناس على كثرة ما قيل عنه بهذا الصدد يصدقونه فيه ، حتى اليوم الذي دخل فيه الوزارة مع خير الدين الاحدب ، واثبت فيها تجردا واستقامة لم يكونا منتظرين من رجل له ذلك الصيت العاقل الفطيع

وفي جو مضطرب خلقته الحرب القائمة بين الرجلين الكبيرين بدأت معركة الرئاسة للجمهورية الثالثة (سنة ١٩٣٦) ، وكانت المفوضية السامية قد فتحت بابها يومئذ . وهي المعركة التي تتابعت بعد ذلك وظلت كما قلنا سابقا هائجة صاخبة خلال الثماني عشرة سنة الاخيرة ، وهي التي شطرت البلاد الى شطرين سياسيين تسيطر على كل جانب سياسة الاحقاد والضعائن ، ويعمل كل منهما ليس فقط لكسب خصمه ، بل لتحطيمه نهائيا ، وباية وسيلة كانت .

ومع ان تلك المعركة هدأت نوعا ما في هذا الوقت ائدى نكتب فيه هذه المذكرات ، بعد اعتزال الشيخ بشارة للرئاسة - ولكن من يعرف ، فقد تبعها الايام عن جديد ، طالما ان نجلي الاستاذ اده ورثا عن والدهما الروح السياسية الحزبية التي كانت تحارب بشارة الخوري بدون هوادة وبدون شفقة ، وطالما انهما اقسما على ضريح والدهما الا يتركان سياسة الانتقام ابدا ، وخصوصا ان بعض السياسيين يقولون ان عزلة بشارة الخوري ، بعد الانقلاب الجديد ، ليس فيها شيء يدل انها عزلة نهائية .

وفي هذه البلاد ليس من احد يعرف ما اذا كان هذا الصواب الذي يراه اليوم لا يراه غدا خطأ .

وكما رأينا بعض اعداء الفرنسيين ايام الانتداب ينقلبون الى اصدقاء
فرنسا بعد الانتداب!

وكما رأينا مثلا ، كمال جنبلاط ، يتهم الاستاذ اميل اده وجماعته
بالخيانة العظمى يوم راشيا ويتحالف معه بعد ذلك ويحالف من بعده
نجليه يوم الانقلاب ، ثم يتعادى القرىقان عن جديد في انتخاب الشوف
الفرعي للمقعد الذي تركه الاستاذ كميل شمعون عندما صار رئيس
الجمهورية اللبنانية (سنة ١٩٥٢) ، كذلك نرى الكثيرين من اعداء وخصوم
بشارة الخوري يذهبون اليوم لقصر «الكسليك» يستشيرون ويصادقون!

قصر المفوض الطاهي الصامت بونسو

وكان في ذلك الزمان قد وصل الى هذه البلاد مفوض سام جديد يخلف المسيو بونسو المفوض السامي الذي كان ملقبا بالطاهي ، وكان معروفا بالرصانة والسكوت وابتعاده عن المجتمعات والحياة العامة المحلية ، مما كان موضوع مجادلات ومناقشات عديدة في ذلك الحين .

ولم يتفق الناس اذا كانت هذه الصفات بالمسيو بونسو تأتيه عن نباهة ودهاء ، او عن طبيعة متعاسة متراخية كسولة ، وكان بعضهم قد اطلق عليه لقب المفوض الطاهي لما كان يظهره من شغف بطبخ طعامه بنفسه ولتردده في هذا السبيل على مطعم ابو عفيف المشهور حينئذ في ذلك الوقت ، يتعلم على طهاته فن شوي الشورما ، وصنع الحمص والفول بالطراز اللذيذ الذي عرفناه في ذلك المطعم !

وقال كثيرون يومئذ بالمناسبة عن هذا المفوض السامي ان الرجل الذي يحب بطنه يطلسم عقله !

وحفظ المسيو بونسو فن شوي الشورما وعمل الحمص والفول جيدا ، وكان في اكثر اوقاته يعتزل الى المطبخ بقصر الصنوبر ، يتدبر بيده لعدائه الالوان اللبنانية الجديدة ، وكان يقول انه سيجمل مذكرة عن طريقة طبخ هذه الالوان لفرنسا ، ويجعلها تروج عند الفرنسيين ، مما يعمل بواسطتها دعاية للبنان وتعريفا اليه عن طريق البطن ، الذي هو افضل طريق البروبغندا بالعالم .

وكان يتكلم بلذة عن مهارته في الطبخ ، مما كان يجعل مدعوييه يتملقونه كثيرا ، وينالون حظوة عنده عندما كانوا يظهرن اعجابهم

بطبخه ، ويظهرون رغبتهم في تناول الالوان التى
يعملها بيده .

وكانت حياة المسيو بونسو المنزلية حياة هادئة ساكنة جعلت
قصر الصنوبر اشبه بالاديرة . ولم يعرف الانتداب اياما هادئة ساكنة
اكثر من الايام التى قضاها هنا ، والتى لم يتخلها من
القضايا والمشاكل غير قضية الامير لطف الله التى
رويناها سابقا .

وظل قصر الصنوبر مثل الدير ، حتى جاء الكونت دي مارتل خلفا
المسيو بونسو (سنة ١٩٣٥) ، وما كاد هذا الاخير يستقر فى القصر حتى
اخذ ذلك القصر يستصرخ السماء من اليقظة الفظيعة التى ايقظه اياها
المفوض السامي الجديد ، وقد جعله حالا - بعد ذلك السكون الرهيب
الكامل - عاصفة هوجاء للولائم والحفلات والاعياد الصاخبة حتى
الرومانية منها ، والاجتماعات السياسية والفضائح
المتتابعة !



وكانت وزارة الخارجية الفرنسية قد قدمت لنا مفوضها الجديد
بسوريا ولبنان الكونت دي مارتل ببيان رسمي اصدرته يوم تعيينه ،
فصورته كمستشرق سياسي كبير عارف بامور بلادنا ، وذلك - على
زعمها - لاختباراته العديدة المختلفة التى اكتسبها فى البلدان الصينية ،
اذ كان سفيرا لفرنسا بكيين ، ولهذا السبب رأت وزارة الخارجية الفرنسية
انه يجب ان يكون قد أصبح خبيراً بامور لبنان وسوريا كما لو ان بكيين
على مرمى حجر من بيروت ودمشق !

وهذا البيان دعا يومئذ الامير مجيد ارسلان الذى كان قد بدأ يظهر
الكثير من الظرافة وخفة الروح للقول :

- يجب ان يكون دي مارتل تعرف على اخواننا الدروز هناك ...

قال الامير مجيد هذا اشارة الى الاسطورة القائلة بتقمص الدروز فى
الصين بعد الممات .

وبعد ان كان سلفه المسيو بونسو يتجاهل كثيرا تلك المشادة الحزبية القائمة بين اده وبين الشيخ بشارة الخوري قاصداً بذلك ان لا يجعل لها شأنًا كبيراً امام الناس فلا يتخيلونها شيئاً حيويًا في حياة البلد السياسية رأينا الكونت دي مارتل يتبنى تلك المشادة حالاً وبحماس غريب، وذلك في اليوم الاول لوصوله الى هذه البلاد ، ويأخذ في اذكاء نيرانها بجميع الطرق ، ناصبا شباكه حولها ، متجاوزا الرجلين الكبيرين بتلك الخيوط غير المنظورة التي تفرد بها ، وهذا حسب أهوائه وساعات الغضب او الرضى عنده ، مما جعل الناس يتخيلون - والحقيقة هكذا - ان الكونت دي مارتل كان يجسد في مشادة السياسيين المتزاحمين موضوع لهو وسلوى من جهة ، وموضوع سخريه وتلاعب بسياسة البلاد ويرجالها من جهة ثانية ، محاولاً - كما اتضحت نواياه بعد ذلك - جعل كل سياسي في لبنان موضوع هزء من جانب الاهالي ، ودمية يلعب فيها كما يشاء !

فالمسيو دي مارتل كان ذكياً ، وكان ساخراً ، ثم - وقبل كل شيء - كان ملتئماً لاهياً ، يلعب ويتلاعب بكل الامور ، ولا يحترم شيئاً ولا يحرم شيئاً .

لقد كان الاستاذ الاكبر في مدرسة المستهزين وهي مدرسة فتحها كبيرة وسبعة في السرايات بهذه البلاد !..

ومع ذلك بين المفوضين السامين الذين تعاقبوا علينا ، لم يمارس مفوض سام صلاحياته الكبرى الديكتاتورية بطريقة هازئة ساخرة ونابهة ايضاً مثلما فعل المسيو دي مارتل !

لقد كان دأبه ان يجعل كل شيء موضوع عبث وسخرية ، وبين المفوضين السامين الذين تعاقبوا علينا لم يحاول احد حتى الجنرال سراي نفسه اخجال أهمل السياسة وتصغيرهم وتحقيرهم اكثر مما فعل دي مارتل !

وكان يكتب كل ما يجول في رأسه الى صديقه الحسناء ، مدام دي كاركوف ، وقد كان انتقاها بين سيدات السلك الدبلوماسي ، ومع كل ما كان له من سلطان على الناس ، كان لها هي من سلطان عليه ، وكانت شقراء وصبية وجشعة ومغامرة ، جاء بها زوجها من بلاد الروس ،

واصطفاهما دي مارتل ، وجعلها تلعب تجاهه دور « اليومبادور » تتدخل في السياسة وتبيح رجالها بالمزاد العلني ، ولا يعمل الصديق شيئا بدون مشورتها ورضاه ، وهي تحيط نفسها بصقوة من أهل المتاجرات والاستثمارات ، لا يحرمون شيئا فيها .

ومع ان الصديقين كانا يتلاقيان يوميا وفي كل مكان خصوصا فني البيوتات الكبرى التي كانت تسهل للدكتاتور اجتماعاته اليها ، فقد كانا ايضا يوميا يتبادلان الرسائل ، وهي رسائل كان يضمنها الصديق كل اسرار الدولة وخفاياها وكان قد كتب لها بالصدد الذي نتحدث عنه الان يقول :

« يكفيني ان ابتمم لهذا السياسي ، كيما ارى سحنة خصمه تنقلب الى سحنة شيطان مرتعد ، مما يجعلني اعرف مقدار ما يجعل الحسد صاحبه بشعا قبيح المنظر ! »

وكانت له روح عابثة ، ولربما شريرة تتلذذ في خلق المشاكل والمشادات والمنازعات ، ليس بسبب اهل السياسة فقط ، بل ايضا في كل الحقول .

وعلى وجه الخاص كان يتدخل في امور الازواج والعشاق ، ويجد لذة خاصة في كشف الستر عن الحسان ، وخلق الفضائح لهن ، حتى قيل انه كان يشي ببعض الزوجات لازواجهن ، فقط ليثير الفضائح ، ويلتذذ ويفتيط لحكاياتها ، كما وانه كان رسول التفرقة والتعصب في الاوساط الاجتماعية العالية التي فتح لها باب قصره على مصراعيه ، ترتاده جماعات مختلفة منها ، وذلك بعد ان كان ذلك الباب مقفلا محترما بايام سلفه ، كانه باب « السكرستيا » !

ووصل به حب الشر انه كان يغذي بعض الصحف من الجانبين ، كيما تتهاجم وتتشاتم وتتضارب بعضها مع بعض !

ثم لا نبالغ ايضا عندما نقول انه في عبثه بامور اصدقائه البيتية افسد الحياة الاجتماعية بالبلد ، خصوصا بعد ان جعل قصر الصنوبر ملتقى اهل المغامرات وسيدات الحب والغرام .

وكانت تلك البيئة التي فتح لها بابه وجدت في ذلك القصر من

المغريات وطرق العبث ما جعلها تعيش في جو حافل بالرزايا .

وكانت له لغة هازلة ساخرة ضاحكة دوما حتى في الامور الخطيرة جدا .

وفي كل صباح حالا عندما كان يدخل مكتبه كان اول سؤال يفقيه على اول موظف يمثل امامه :

— هل من جديد بين بشاره واميل ؟

وفي اليوم الذي لا يكون فيه جديد بين بشاره واميل ، كان دي مارتل يفضب اولاً ، ثم يخلق بينهما خلافاً جديداً .

كان يحتضن — على الاقل — الاستاذ اده جهارا ، ولكنه كان يسلط عليه في الخفاء صنيعته كولباني مدير الامن العام المخيف ، الذي ارسلته باريس لهذه البلاد على اثر فضيحة ستافسكي ، وكان قد لعب فيها دوراً مشبوهاً ، قيل من ورائه انه هو الذي دفع المحتال الشهير للانتحار ، بعد ان سلمه بيده المسدس ليقتل نفسه امامه ، وذلك كيما لا يبوح بأسماء الرجال العظام الذين كانوا شركاءه في اعمال النصب العظيمة التي كان يقوم بها !..

وكان دي مارتل يبعد بشاره الخوري عن القصر ولكن يرميه بين احضان مندوبه في الحكومة اللبنانية . . .

مع هذا الفارق ان بشاره الخوري في نهايته لم يكن يستسلم بكامله لاحد وكان دوماً ، في محالفاته واتفاقاته مع الفرنسيين والسياسيين اللبنانيين في ايام الانتداب — ومع كبار الساسة والملوك والرؤساء بالبلدان العربية — يترك جزءاً كبيراً من نفسه ملكاً خاصاً له .

الكونت دي مارنيل مجموعة متناقضات

وعمل دي مارنيل انتخابات مجلس الخمسة والعشرين (في كانون الثاني ١٩٣٤) فكان يجد مجالا عظيما محبوبا للاغتباط والتلذذ في تلك الانتخابات ، عندما كان يحاور ويداور ويتأمر على المرشحين ، ويجعل ترشيح كلا منهم يكلفه ثروته و ثروة غيره ، فلا يصل للمجلس الا منتوفا ليس عليه ريش !

وثناء انتخاب مجلس الخمسة والعشرين ، اجيز لمدير الداخلية يومئذ الاستاذ صبحي ابو النصر - الذي كان رئيس مكتب الاقتراع ببعبدا ، حيث كان لدي مارنيل مرشحون خصوصيون - بقراءة اوراق التصويت كما يشاء ، فكان مثلا يقرأ اسم روكز ابو ناصر في الاوراق التي عليها اسم اميل لحدود ، وهكذا دواليك !

وهذا ما دعا اميل لحدود في اليوم الثاني، عندما جاء لقصر العدلية ، ان لا يجيب المباشر الذي كان يناديه كيما يحضر جلسة هو محام فيها . ولما نبه بعضهم لذلك ، قال :

- ولكن انا اسمي روكز ابو ناصر ... هل تعرفون باسم الناصين اكثر من صبحي ابو النصر ؟

ولكن في انتخابات مجلس الخمسة وخمسين ، التي تلت انتخابات مجلس الخمسة وعشرين ، كان دي مارنيل اول من افسد الانتخابات والناخبين بوجه عام وبطريقة علنية ، عندما جعل الاصوات تشرى وتباع في الاسواق على عينك يا تاجر . وهو الذي كان يجعل كل مرشح يعمل هكذا ، بعد ان يفرض عليه مبلغا كبيرا من المال يصرفه في شراء الناخبين ، فيشجع على المتاجرة بالاصوات . وهو الذي كتب ذات يوم بهذا الصدد لصديقته الحسنة ساخرا هازئا ، يقول : « انني اعمل عملا انسانيًا ، فليس هناك من وسيلة لعبود عبد الرزاق ولا اميل ثابت ولغيرهما من المرشحين

الاغنياء - تفتتح فيها الصناديق وتجعل الناخبين المساكين والصحافيين
المفلسين يستفيدون الا هذه الوسيلة . كما وانه يجب ان تعلمي
ان حصتك في كل هذا دوما مسوكرة وقد ضمنتها لك منذ الساعة
الاولى ! »

وكان يتتهج جدا عندما كان يعرف ان اميل ثابت مثلا فتصح
صناديقه وذلك لما كان يعرفه فيه من يد ماسكة .

وكان من جهة اخرى ، بالرغم عن سياسته الهازئة في حياته الهزيلة
وحكمه الساخر ، يشتغل كثيرا ويحقق المشاريع الكبرى التي لم يسبق
لغيره من المفوضين السامين الافتكار بها .

وجعل نفسه في سياسته محور الدائرة ومصدر السلطات ، اكثر
بكثير مما كان يفعله المفوضون السامون الذين قبله ، حتى العسكريين
منهم ، كالجنرال غورو والجنرال ويغان والجنرال سراي الذين كسان
عندهم على الاقل بعض الاحترام لبعض الاشياء .

ولكن دي مارتل لم يكن يحترم شيئا ، حتى ولا حرمة قصره حيث
ترك ذات يوم نجله الطائش يحيي حفلة سباحة في بحيرة ذلك القصر ،
سكب فيها كمية كبيرة من اكسير «الكاترايد» الذي يثير الشبق ، فما
كاد السابحون والسابحات يستقرون في مياه البحيرة المعطرة المهتاجة ،
حتى اخذوا يشعرون بالشهوات تتاكلهم وتفقدهم عقولهم . . . يتبع ذلك
مشاهد وروايات تهتكية يجد دي مارتل بمشاهدته لها اللذة التي يجدها
كل كهل فاسق امام مشاهد كهذه ، ويلهو هذا النيرون الجديد ويغتبط
وقد جلس على مقعده الوثير ، ينظر الى هذه الخلاعة مقهقها ، وعيناه
تزدادان بريقا واشتهاء !

ومع هذه الغمرة من الاعياد والحفلات والمغامرات المتتابعة ، كان
دي مارتل يظهر نشاطا سياسيا واداريا وعمرايا كبيرا ، لو وجهه نحو
الخير لكان جعل للانتداب استقرارا اقوى ولفرنسا مكانة اعلى .

وكان ذلك النشاط يتناول المرافق العديدة ومواضيع كثيرة جدية ،
وكان من جهة مثلا ، يحكم بقوة وسيادة ، ومن جهة اخرى يفسد
ويخدع ويهزل !

هنا يوسع ميناء بيروت ويجعلها ميناء عصرية ، ويمد سكة حديد الجزيرة ، ويشيئ اول مطار في هذه البلاد ، ويفتح الشوارع بالمدينة ، ويساعد من الاموال المشتركة المشاريع الوطنية الكبرى .

ومن هناك يذكي نار البغضاء والاحقاد بين الرجال السياسيين الوطنيين المتزاحمين ، وبين الاحزاب المتخاصمة .

ثم فجأة يرمي الى الحضيض الرجال الذين يكون قد رفعهم بالامس ، ويعود بعد حين يرفعهم ليرمي الذين رفعهم قبلهم ويرميهم اليوم .

قال في رسائله لصديقه الحسناء : « لا يجب ان يرتفع اى رجل في هذه البلاد فيصل الى اكثر من زناري » .

وهذه السياسة الاستهتارية الهزيلة التي تتبعها الكونت دى مارتل ، جعلت الفرنسيين يفقدون كل هبة ، مما جعل الناس يخطون الخطوات الاولى الصعبة عاديًا - نحو الوقوف بوجه السلطات الحاكمة فيهم ، فاخذوا يتطاوون على الفرنسيين ، ويجابهونهم بمعارضات سياسية لم يكن يجسر عليها احد قبل ذلك ، وهي معارضات كان الرجل الرابع يقودها ويضع خططها .

ومع ان الفوض السامي الجديد المسيو دى مارتل كان متحكما وقويا ، فانه كان ايضا - عن عدم اكتراث بالاكثر وليس عن نفس حبرة ولا عن جبانة - يقبل ولا يقف بوجه العناصر الفاضية الثائرة ؛ اعتبارا منه ان الانتداب اقوى منها ، ويستطيع وقت الخطر ان يظفر بها ، فلماذا يعمل لها اهمية بملاحقته اياها ويجعل رجالها ابطالا ؟

فالكونت دى مارتل كان قبل كل شيء يكره الابطال ، ولا يريد فى هذه البلاد خاق احد منهم

وكان دى مارتل فى روح الغامرة السياسية التي اتصف بها وفى عدم خوفه من طفيان الوطنية على الانتداب اول من شجع الوطنيين فى سوريا ولبنان عندما طلب عقد معاهدة بينهما وبين فرنسا .

وكانت طبعًا المعاهدة تقضي بزوال الكثير من امتيازات وتحكمم الفرنسيين فى هذه البلاد .

ومع ذلك فان دى مارتل - وليس الوطنيون السوريون - اول من

قال بالمعاهدة ، واول من شجع الوفد السوري للذهاب لباريس ومفاوضة
وزارة الخارجية فيها ، ولم يكن الناس هنا قبل ذلك يأملون انهم يصلون
في يوم قريب الى مفاوضة فرنسا - السيدة الحاكمة فيهم - بعقد
معاهدة معها ، تقول بالاستقلال مهما كان نوعه .

« لا اله الا الله ، والبطيريك عربضه حبيب الله » !

لم يكن احد في هذه البلاد - خصوصا بين السياسيين المسلمين بسوريا ولبنان - يعتبر ان سياسة دي مارتل المستهترّة الهائلة ، ستجعل بكركي صديقة فرنسا الاولى وقاعدة نفوذها في هذا الشرق منذ تسعمائة سنة ، تصل لان تدير وجهها نحو دمشق ، ونحو زعمائها الوطنيين ، اعداء فرنسا اللدودين ، العالمين دوما لطردها ورميها بالبحر !

ويأتي شكري القوتلي وجميل مردم وفخري البارودي والدكتور شيشكلي ولطفي الحفار ونسيب البكري وغيرهم وغيرهم من بطاركة الوطنية وزعماء الثورة السورية - يقودهم رياض الصلح ، الذي كان قد اصبح يومئذ « غولبز » القضية العربية وحامل اختامها - يأتون لبكركي يوم عيد البطيريك ، ويقبلون ذلك العيد المفروض فيه السكون والسلام ، الى مهرجان صاحب وطني « كزونوفوبي » معاد لفرنسا ، متحديا انتدابها ، طالبا استقلالا ناجزا ، جاعلا بكركي تتنكر فيه رسميا للام الحنون ، مع انها كانت تربطها بها تقاليد ومصالح وصدقة الاجيال .

ويحمل يومئذ البطيريك عكازه وينادي بخروج بكركي على فرنسا ، وبتعاونها الكامل المطلق السياسي والوطني مع الوطنيين السوريين ، وتعلن بكركي استنكارها للمنتدبين ، والمطالبة بجلانهم عن هذه البلاد !

اما سبب هذا المهرجان ، وارتداء بكركي يومئذ بين احضان الوطنيين السوريين خصوم الانتداب الفرنسي ، فهو قرار الكونت دي مارتل - بالرغم عن معارضة بكركي الشديدة واهالي البلاد - بحصر الدخان ، واقامة ريجي عليه ، واحتكار شركة الريجي وحدها صنعه والمتاجرة به وتحديد زراعته في البلاد .

وقد ثار البطيريك عريضة على هذا القرار دفاعا عن حرية زراعة

وتجارة الدخان للناس عامة ، وبنوع خاص للرهبانيات التي تملك حقولا
وسيعة لهذه الزراعة ايضا .

واشتد الخلاف بين بكركي ودي مارتل في هذا الصدد فخلق عدا
بينهما قويا لدرجة اهابت ببكركي لاعلان الحرب على الانتداب ، مما
لم يكن احد يعتبره ممكنا قبل ذلك ، ومما جعل رياض الصلح والوطنيين
السوريين يجدون في هذا فرصة غالية غير منتظرة يجب انتهازها ، يساعدهم
بذلك ذلك المفامر المخيف خليل معتوق رجل البطريرك الاقرب ، الذي
اسماه بعضهم « راسبوتين » بكركي ، فيأتون للبطريرك في عيده ، ويقيمون
له ذلك المهرجان التاريخي الذي رمى ببكركي بين احضان السوريين
- ولكن الى حين طبعنا !

فانما غبطته في وطنيته الصحيحة الكاملة كان معتادا دوما انسه
يجعل سياسته تتطور مع تطور الحوادث ، تجاه المصلحة اللبنانية قبل
كل شيء ، كما يفهمها هو .

وفي المناسبة ، وكيفا لا نترك شيئا لا نقوله في هذه المذكرات ، يجب
ان نذكر ان غبطته وجد في حدث جميل قام قبل ذلك بدمشق تكريما
له ، سببا جعله يتعاون مع السوريين بطريقة صاحبة غاضبة .

وهذا الحدث ، هو الذي كان المقدمة لمهرجان بكركي ، وهو حدث
لم يسبق له مثيل في تاريخ النصرانية بهذا الشرق ، اغتبط له صاحب
القبطة لدرجة جعلته يفتح ذراعيه للسوريين ، ويوافق بسرعة على سياستهم
الوطنية الاستقلالية المعادية لفرنسا ولانتدابها .

كان البطريرك في محاربتة للمسيو دي مارتل قد حمل على المجلس
النيابي اللبناني يومئذ حملة شعواء عندما اقر ذلك المجلس مشروع
الريجي ، ولم يخالفه غير نواب مسلمين ، وصرح غبطته على اثر ذلك
لصاحب هذا الكتاب انه ليس غير المسلمين عندهم وطنية ، وليسوا عبدا
للفرنسيين ، كما هم النواب المسيحيون بالمجلس بلبنان .

وحمل فخري البارودي هذا التصريح بحماس غريب ، وهو يجد
فيه سلاحا يحارب به الوطنيون الفرنسيين - اذ ان هؤلاء هذه المرة
من بيت ايهم ضربوا - حمل فخري التصريح وذهب للجامع الاموي يتلوه
في صلاة الجمعة ، فتحمس المؤمنون المصلون ، ودعوا للبطريرك وهلوا

وكبروا ، واخذوا يهتفون بالمسجد وفي الاسواق ، بعد ان تجمعوا بهيئة
تظاهرة وطنية « لا اله الا الله ، والبطيرك عريضه حبيب الله ! »

وكان بعضهم يزيد على هذا الهتاف بقوله :

— والشيخ تاج الدين عدو الله !

وكان الشيخ تاج الدين رئيس الدولة السورية يومئذ ، وقد
انفصل عن الوطنيين وعاداهم ، واخذ يحكم باسم الانتداب ولمصلحته ..

قلنا ، اغتبط غبطته لهتافات وادعية المصلين في الجامع ، فكان من
الطبيعي ان يجعله ذلك ايضا يقبل بحماس على التعاون مع الوطنيين
المسلمين ضد فرنسا ، وقد جعله المسلمون في الجامع الكبير
« حبيب الله » ، مما يجب ان نحسبه اكبر واسمى ثناء واعتراف عرفه
رئيس ديني مسيحي من المسلمين !



ولكن ماذا كان موقف الزعماء السياسيين الموارنة من مهرجان
بكركي ، واخصهم الفارسان الاغبران اده والخوري ؟

لم يكن اده ببكركي ولا احد من انصاره ، هذا اذا لم نحسب منهم
صديقا جديدا له ، كان لا يمكنه بالنسبة لروحه التواقة لكل جديد ،
ولدخوله القريب في الميدان السياسي ، وللتزعات المتخالفة التي كانت
تساوره ، والتي كان يعمل على توفيقها بعضها ببعض ، مهما قد تكون
عليه من تناقض وتعاكس ، وللاطماع الكبيرة التي اخذت تملكه
وتقود اعماله

كان هناك رفيق الاستاذ اده الجديد ، الذي سيكون بعد الان في هذا
الكتاب ما اسماه اللبنانيون «مكيا فيلي» لبنان : حبيب ابو شهلا .

لم يكن مضي زمن طويل على تعيين الاستاذ الدكتور بالحقوق الشاب
الوردي حبيب ابو شهلا عضوا ببلدية بيروت ، حيث اثبت حالا شخصية
قوية متلاعبة ، تكن لها العارفون انها ستصل ليوم تتمكن فيه من جعل
الاسود ابيض والابيض اسود ، كما ظهر منها بسرعة بوادر كثيرة من الحذاقة
واللباقة يساعدها بذلك شخصية تفرض نفسها بالطرق المختلفة — حيث

تريد ان تكون - مع فتوة ناضرة ووجه جميل وكلام ظريف لبق ويسد
مبسوطة ومغامرات غرامية ، تجتذب رواياتها دوما الناس نحو ابطالها .

هو وحده من اصدقاء وانصار اده كان ببيركي يوم المهرجان .

ولم يكن يستطيع ان يفعل غير ذلك ، طالما انه ومنذ ذلك الحين ،
كان يفرض على نفسه ان يكون من جميع العقائد الوطنية ، ومن جميع
الاحزاب السياسية ، انتدابيا في المفوضية ، ولبنانيا في سراى البرج ،
عربيا في دمشق ، ليس صديقا كبيرا للموارنة عند المسلمين ، وليس
صديقا كبيرا للمسلمين عند النصارى ..

وكانت الكتلة الوطنية السورية في ذلك الزمان تقوى وتشتد . وكان
قد اصبح من المعروف ان الفرنسيين اخذوا يتصلون بها ، وأن مهرجان
بيركي قد يكون فوزا لها ، فكيف يمكن لهذا الانتهازي النابه الفهيم أن
يترك فرصة مثل هذه تفوت ، وهو الشمام رقم اول الذى يعرف ما
سيصير بالمستقبل ؟

لذلك جاء كما قلنا اعلاه الى مهرجان بيركي ، ولاحظ الناس انه
وحده بين انصار الاستاذ اده اشترك في هذا المهرجان ، ولكن بطريقة
لطيفة ومتحفظة معا .

اذ قد لا ينجح مهرجان بيركي

والسياسي الفهيم ، هو الذى لا يتظاهر مع سياسة قد لا يكون
اكيذا من نجاحها !

ولكن اذا لم يكن هنا في مهرجان بيركي غير الاستاذ ابو شهلا يحمل
شارة صديقه الرئيس اده ، فقد كان هناك الدستوريون باجمعهم ، وقد
وقفوا في الجبهة في مقدمة المتحمسين والخطباء ، وذهب كل منهم الى
ابعد مدى في اظهار اغباطه وتأييده لهذا التعاون السورى المسلم - اللبناني
النصراني - الوطنى المعادي للفرنسيين .

وقد بلغ الحماس في الدستوريين مبلغا بعيدا جعلهم يقومون
بمظاهرات عدائية كبيرة للفرنسيين ، يشجعهم بذلك ابتسامة زعيمهم
بشارة الخورى ، ولكن من بعيد جدا من زاوية قصية اعتزل اليها في
قاعة الديوان البطريركي !

فانما الرجل عرف دوما ان يكون معتدلا ، وان يحسب حساب الخير كما يحسب حساب الشر .

وكان دوما ابعد نظرا من غيره ، لا يقول اليوم كلاما يعرف انه في لايوم الثاني قد يضطر الى انكاره او ان يقول عكسه ...

وقد كان يعرف ان هذا التعاون بين اعداء الفرنسيين الدائمين وبين بكركي عدوتهم الموقته المرتجلة لن يدوم كثيرا ، لذلك ، آخذ بشسارة الخورى فى مهرجان بكركي جانب المستمع المحبذ الساكن ، بدون ابداء اى مجهود ، وهو يتبع بذلك سياسة الحكماء القائلة «انتظر ثم انظر!»

وفى مساء ذلك اليوم ، عندما عاد البكريون - كما اسميهاهم يومئذ - الى بيروت ودمشق ، ذهب المسيو دى مارتل الى مربيـع «الكيت كات» ترافقه صديقه الحسناء ، واخذ يسكر ويرقص ويهزل ويقوم بظواهرات صاحبة يريد من ورائها افهام الناس الذين - لربما - قد كانوا يتصورون ان مهرجان بكركي ازعجه واغضبه ، ان ذلك المهرجان لا اهمية له عنده ، ولا يسأل عنه !

وفى مناسبة امانه على الخمرة فى تلك الليلة ، اخذت صديقتـه تتلملم علنا ، وتشكو من حركاته وهياجه وعريدته ، فغضب عليها ونعتها عاليا امام الحضور بالمرأة العمومية ، وقال لها ختما لشتائمـه :

- انى لا اسأل عنك كما لا اسأل عن البكريين !

ولكن الحقيقة - كما يخيل للملاحظين - ان البكريين كانوا هاجسه فى تلك الليلة ، مما جعله يشرب كثيرا ويخرج - وهو ممثل فرنسـا فى هذه البلاد - عن كل رصانة ، ويتشاجر علنا مع صديقتـه ، التى انتهت اخيرا بان صرخت بوجهه على مسمع من الحضور :

- كم يجب ان يكون صاحب الفخامة ازعرا وقليل الادب !

الرجل الذي جاء بكنوز كسرى

وإذا فرضنا ولم يكن دي مارتيل أزعر كما نعتته صديقتة ، فقد كان هناك فارس للمغامرات ، جريء مخيف ، كان قد عاد مؤخرا من بلاد العجم يحمل كنوز كسرى التي وصلت اليه بطرق غريبة ، ومن وراء مغامرات تشبه مغامرات علي الزبيق - كان هذا الرجل قد اخذ على نفسه ان يتولى تعريف الكونت دي مارتل كأزعر و « كانغستر » فحاطه هنا وباريس بعد خلافه معه بفضائح لا نهاية لها ، وظل يلاحقه ويطارده حتى شهره بين البشر ، وجعله يموت حسرة .

كان ذلك المغامر من محترفي السياسة المتلاعبين الاذكياء ، ومن القائلين بالوطنية والنزاهة عندما تكون هناك اسباب مناسبة تدعو لهذا القول . وكان من المشاغبيين الاولين ، تستلفت شخصيته الابصار وكان محبا للظهور لدرجة متناهية ، يعرف كيف يحيط نفسه بهالة من الفخفة والجاه والاموال والجواهر يرميها في وجه الذين يريد منهم ان يعظموه ويمجدوه ، وخصوصا بوجه الذين يريد منهم ان يزيدوا ثروته ويرفعوا شأنه ، اذ انه كان ضعيفا جدا امام المديح والاطراء .

وكان دي مارتل قد اسماه « الناباب » وهو اسم هندي يعطونه للمهراجاه الكريم السخي ، الذي يرمي بالجواهر والمال على الطرقات ، اسماه ده مارتل « الناباب » بالنسبة لتلك الثروة التي كان يتمتع بها واجمهرة الحسان اللائي جمعهن حوله يقلدهن الحلوى والعقود والهدايا الجميلة ، والفساطين الثمينة ، والجوارب الحريرية النادرة المثال ، وصناديق الحلويات ، والشكولاته الفخمة جدا التي كانت تصله من باريس اسبوعيا مع رسل مخصوصين .

وكان « الناباب » - قد جاء يحمل من ايران ، عدا عن كنوز كسرى ، ستة وثلاثين الف كيس تنباك عجمي اصلي ، كان يريد ان يبيعها هنا

بالسعر الذي يوافق ، مما كان يجعله - لو استطاع - ان يزيد على مجموعة الحسان اللواتي احطن به من كل جانب ، مئة حسناء وحسنا جديدة ، دون ان يعرضهن كثيرا للخطر ، لانه كان ايضا من اركان « جمعية عدم الامكان » !

ومما كان يجعله يزيد على عدد الصحافيين والسياسيين الحاملين اوائه الناشدين سجاياه ومكارمه مائة الف داعية جديدة . ومما كان يجعله ايضا ، وفي كل ساعة ، يحقق ما قاله عنه شاعر الارز المعروف شبلي الملائط :
الواهب المئة الصفراء معتذرا
كما رووا عن تلوك منذ ازمان !

قلنا وكان « الناباب » يريد بيع تنبাকে بالثمن الذي يوافق ، معتمدا على مصادقة الكونت دي مارتل ، اذ لا يمكن لرجل لذات وبهجات وعميث وهزار مثل دي مارتل ان لا يصادق مغامرا فظيما كريما وقحا سخيا متلاعبا مشاغبا تحيط به مئات الجميلات مثل خليل معتوق .

قلنا ، وكان « الناباب » ، او بالحري راسبوتين لبنان ، يريد بيع تنبাকে كما يشاء ، ولكن دي مارتل قفل امامه هذا الباب ، وذلك عندما انشأ بالرغم عن الاهالي شركة احتكار الريجي الفرنسية بالاصل ، والتي رفضت حالا شراء اي تنباك لمعتوق . اولا لاسعاره العالية ، وثانيا لسياسته المعادية لفرنسا في ذلك الحين ، مع انها عادت بعد زمن طويل فقبلت شراء جزء صغير من التنباك بثمن زهيد هي التي حددته ، وذلك بعد ان عاد معتوق - انما لمدة قليلة - الى الفرنسيين تائبا !

وهكذا لم يفعل الكونت دي مارتل شيئا يساعد صديقه بهذا المعنى ، بل بالعكس حاربه في تنبাকে .

ولم استطع صديق معتوق ، حبيب باشا السعد - وهو الرجل الوحيد الذي اخلص له معتوق حقيقة وظل على وفائه وامانته له - ام استطيع حبيب باشا ان يعمل شيئا يساعد به صديقه في قضية التنباك .

حينئذ غضب « الناباب »

غضب بالجرأة والمكارم التي غضب فيها بايران ، وقت حمل ثروته وثروة صديقه السردار اسعد ، وصديقه الاخر تمورتاش وزير المالية

عندما غضب عليهما الشاه واعتقلهما وقرر اعدامهما - فدبر معتوق
مؤامرة لانقاذهما ، كلفته مالا كثيرا ، اخذه طبعا من كنوز السياسيين
الكبيرين ، اللذين كانا قد سلماه ثروتيهما امانة لهما ، يحفظها لديه لينما
يخرجان من السجن ، او انه يسلمهما لاهلهما اذا وقع الاجل المحتوم بهما .
وافترضت المؤامرة ومات السردار وتيمورتاش بالسجن بامر من
الشاه طبعا ، وهرب معتوق معما تبقى معه من كنوزه وكنوز غيره !

وجاء الى دمشق ثم لبنان بجاه وفخخة ، تتبعه قافلة تحمل
اخراج الذهب واكياس الاحجار الكريمة ، وتحمل ايضا اسطورة
« الثياب » العائد لهذه البلاد ، يحمل النجوم والعجائب من السنند
والهند وبلاد فارس .



وطارد معتوق دي مارتل هنا وباريس ، تلك المطاردة المتابعة
المخيفة التي جعلته يصرف مئات الالوف في سبيل تقوية اعداء المفوض
السامي في سوريا ولبنان .

ودفعته الحيلة لشراء صداقة وضمير صديقة دي مارتل ، وهي
صداقة وضمير كلفاه مبالغ كبيرة ، وجزءا محترما من جواهره اهداها
اياها ، وانتهى معها بمساومة دنيئة جعلتها تبيعه رسائل دي مارتل لها
- وفيها ذكر الفضائح السياسية التي تعرفها - وقد نشر منها معتوق
بعد ذلك العدد الاوفر في جرائد باريس ، عندما ذهب اليها يثير الاوساط
السياسية والوزارية والصحافية الباريسية على دي مارتل .

وكان هذا الاخير يأتي في رسائله من هنا وهناك غالبا على ذكر امور
سياسية فضيحة ، تدل على نزعة ذلك الرجل نحو التجني على الوطنيين ،
والسعي المستديم لتحقيرهم وجعلهم صفارا امام الناس .

كتب لها مثلا بعد مهرجان بكركي الاستقلالي يقول : « ألم اقل
لك ان فرنسا مخطئة في سياستها السابقة بتقوية البطريك الماروني
لدوام نفوذها في هذا الشرق ، وفي اعتبارها انه اذا تخلى عن هذه الصداقة
اضاعت ذلك النفوذ ؟

« والان بعد اجتماع بكركي وخروج البطريك علينا ، نرى فرنسا

قد بقيت سيده البلاد ، وبقي الموارنة اصدقاءها .

وكتب لها في رسالة اخرى : « اذا لم اضع اده ضد بشاره الخوري ، وبشارة الخوري ضد اده ، واذكي فيهما نار البغضاء والتزاحم ، فقد يفعلان ذلك بدوني ! »

وكتب في رسالة ثالثة : « خذي من صديقك راسبوتين (اي خليل معتوق) كل ما تستطيعين ، ولكن بسرعة ، لانني قررت ان اتخلص منه ، فهو وقع جدا ، وخرج عن الدور الهزلي الذي طلبت منه ان يلعبه مع الوطنيين السوريين .

« كنت دوما تقولين ان صداقتي لك يجب ان تجعلك صاحبة ملايين ، والان اني اعرف انك جمعت بعضا من هذه الملايين ، ولكن يجب ان نجد لك طريقة تضاعفين فيها ثروتك ، لهذا ساجعل الانتخابات النيابية القادمة بابا جديدا تكسبين فيها ما تريدن ، فلا يصل نائب للمجلس الا بعد ان يكون زارك وعمل واجبه . ومن هذا ترين كم انا احبك ! »

وكتب لها ايضا تلك الرسالة التي كان نصها السبب الرئيسي لاستدعاء الوزارة الفرنسية للمسيو دي مارتل من بيروت . كتب لها - قبيل انتخابات رئاسة الجمهورية اللبنانية (سنة ١٩٣٦) بيومين يقول : « ساجعل المرشحين لا يصلان ليوم الانتخابات الا وكل منهما يكون فقد عقله او فقد ماله ، او فقد الاثنين معا . واني اؤكد لك ان هذه هي الفرصة المناسبة جدا التي يجب ان تنتهزها لتصبحي كـثيرة الملايين ! »

هذه رسائل مستغربة هازلة محتقرة ، جميلة وقبيحة معا ، لو كنا نستطيع الوصول الى نصوصها كاملة لكانت تؤلف لوحدها صورة مستغربة مدهشة لحياتنا السياسية في ذلك الوقت ، ولما كانت عليه الشخصيات الكبيرة في هذه البلاد من مدهشات ، ومن نفوس مجهولة صغيرة لم تكن نعرف عنها شيئا تاما ، وكنا نخدع بظواهرها البراقة والجبروت التي يخيل لنا انها تحمل صولجانه .

وقد ظهر دي مارتل في تلك الرسائل - كما هو بالحقيقة - رجلا مخيفا فظيما ، لم يراع لا الشر ولا الخير ، ولا الحسن ولا السيء ، مما جعل الناس في هذه البلاد يحلرون بامورهم ، ويتساءلون اذا كانت

فرنسا فقدت عقلها كيما ترسل الى هذه البلاد ممثلا لها رجلا مستغربا
كالكونت دي مارتل .

والناس عندنا ، بالنسبة لماضى المتاجرة والخداع والغش السياسي
بينهم وبين الاتراك ، أو انهم مفسودون نهائيا ، أو أن عندهم استعدادات
كاملة كيما يتعمدوا ويقتربوا بالفساد .

وجاء هذا الرجل الساحر يحكم فيهم ويبيح لهم كل شيء فتبعوه .

ولقد انتهى معتوق نهاية لم تكن منتظرة من رجل جابه دوما
الحقائق في حياته ، فقد وصل ذات يوم اخيرا لان يكون من اتباع داهش
الساحر المشهور الذي خلق في بيروت جماعة جديدة تتبعه كرجل فوق
العادة ، وتقول معه بالمذهب الداهشي الجديد ، الذي يركز على اعمال
السيما والسحر وقراءة الغيب ، قلنا وصل معتوق ذات يوم لان يكون
من اتباع داهش ، وكان قد ذهب اليه مؤمنا به طالبا منه ان يعيده الى
الشباب يتمتع ايضا بحب النساء ، ذلك الحب الذي كان ربه المعبود ،
وقد كرس حياته باجمعها تقريبا للمذاته وشهواته !

واخذ من الساحر العظيم بعض العقاقير تعيده الى صباه ، ويظهر
انه اكثر من تناولها فاصابته ذات ليلة نوبة قلبية ذهب به وحيدا منفردا
في احدى غرف فندق سان جورج ، ليس بقربه احد !

وانتهى هكذا معتوق ، وانتهت ثروته التي ضاعت بعد موته بسين
الذين تراكضوا من كل جانب يتخاطفونها .

الرجل الثالث عشر : الياس السطاف

تجلت أكبر ظاهرة لاستهتار وسخرية الكونت دي مارتل للجمهورية اللبنانية وكرامتها في انتخابات الرئاسة لاميل أده (كانون الثاني ١٩٣٦)

ففي الجو المتاجر المتلاعب المشاغب الهازل ، الذي خلقه دي مارتل ، وذلك في اقصر وقت ممكن بعد وصوله لبيروت ، جاءت انتخابات الرئاسة .

وكانت انتهت مدة حبيب باشا السعد المعينة ، وجرت في مطلع كانون الثاني ١٩٣٦ انتخابات شكلية للمجلس الذي تكلمنا عنه سابقا ، والذي كان مؤلفا من ٢٥ نائبا ، جاء اكثرهم عن الطريق المختصرة الناجعة التي توصل للنيابة دوها ، والتي جعلها دي مارتل عامة ورائجة وعلنية ، وهي طريق المال .

ولم تكن النيابة يومئذ تكلف صاحبها ثلاثمائة او اربعمائة الف ليرة كما اعتلت سوقها في ايامنا هذه .

ولكنها على كل حال كانت ايضا غالية .

فانما ، كما يعمل العصفور عشه ويكبر رويدا رويدا ، كان النواب يعملون صفقاتهم رويدا رويدا ، فبدأت صغيرة ثم أخذت تكبر على ممر السنين حتى صارت بالملايين ، مما صار يجعل اهل الطمع يدفعون مئات الالوف ليصيروا نوابا .

فانما كل مرشح دفع ثمن نيابته ، اعتبر القيمة التي دفعها رأسمالا يضعها في تجارة مسوكرة ، ستضاعف مرارا ذلك الرأسمال . ولا يمكن لنا بوجه من الوجوه - ونحن نعرف شمس بلادنا من اين تطلع - أن نقول ان هذا المرشح الذي صار نائبا بعد ان دفع مئتين وثلاثمئة الف ليرة لم يفكر أنه في النيابة سيعمل كل الصفقات ويحاول إعادة ماله اضعاف الالوف!

وكان النائب الظريف المفلس اديب الفرزلي في مجلس الاستقلال يقول

« انه ذاهب لاميركا » عندما كان يذهب للمجلس ، اعتبارا ان النيابة طريق للثروة ، كما كانت الهجرة الموفقة لبلاد العم سام !

وعندما يأتي الوقت ، سنأتي على ذكر تلك الصفقات الكبرى المشهورة ، والتي عمل بعض النواب ثروات كبرى من ورائها .

وسنأتي على ذكر بعض الرجال الذين صاروا نوابا عن مقاطعة لا يعرفونها ، وكفاهم لذلك ان ابتاعوا ورقة السفر اليها غالية جدا طبعاً على قول الصديق النائب المحترم الياس الطرابلسي الذي اشترى تذكرة نيابته بقطار الجنوب ، بالمبلغ الذي نعرف !



قلنا جاء مجلس الخمسة وعشرين بعد الجمهورية الثانية جمهورية حبيب باشا السعد المعينة (من كانون الثاني ١٩٣٤ الى كانون الثاني ١٩٣٦) . وكما انه ليس في العالم دولة بدلت واوقفت وعدلت وغيرت دستورها قدر ما فعلت الجمهورية اللبنانية خلال هذه الخمس وعشرين سنة التي عاشت فيها حتى الان ، كذلك ايضا ليس في العالم مجلس نيابي تبدل عدد نوابه على معدل كل سنة أو سنتين ، وكل مرة كان ينتقل فجأة وبدون اية قاعدة من العدد الأدنى الى العدد الأقصى ، والعكس بالعكس ، على ان يصبح العدد لربما بعد سنة ٢٤ او مائة وعشرين ، فلا اساس معروف ولا نظام مكشوف .

وكل هذا يعود لسياسة الارتجال التي تمسينا دوما عليها ، وللتسويات اليومية ، والحلول الاعتيادية التي عالجنها فيها امورنا دوما . فيوما مجلس من اربعين ، ويوما آخر مجلس من ٢٥ ، وبعدها مجلس من ٤٥ ، وبعدها مجلس من ٦٣ ، وبعدها مجلس من ٧٧ ، ثم نعود في اخر مرة الى الورااء فجأة ونقرر مجلسا من ٤٤ . وطبعاً ليس هذا العدد هو العدد النهائي ، فقد يكون عندنا مجلس بعد حين من ١٥٠ او من ٣٠ ، لا فرق في ذلك ، فهذا شيء يعود الى اهواء الحاكمين في الظروف والمناسبات التي يكونون فيها !

وفي هذا لم نتساءل مرة واحدة : أي عدد يكون الافضل والانفع ، للمصلحة العامة ، الكثرة في عدد النواب أو القلة ؟

وهذا يشبه ايضا ان الدهشة التي أصابتنا يوم رأينا نفسنا - بعد

حكم الأتراك دولة مستقلة ، لا تزال تسيطر علينا ، ولا تزال ضائعين فيها
جاء مجلس الخمسة وعشرين ينتخب رئيس الجمهورية الثالثة
التي أخذت يومئذ اسم جمهورية الرجل الثالث عشر ، إذ ان الكونت دي
مارتل كتب يومئذ لصديقه رسالة هي ولا شك أكثر رسائله فصيحة
وسخرية وشراً ، قال فيها :

« رميت بالفارسيين في الميدان : أميل اده وبشاره الخوري ، وليس
بينهما ثالث يرشح نفسه ، وتركتهما يتصارعان ، أشد بهذا حيناً وأشد
بذلك حيناً آخر ، فلا ينام واحد منهما ليلة مطمئنة ، وعندئذ ساعة رأيت
ان كلا منهما آمن لنفسه ١٢ نائباً ، فتساوت هكذا الاصوات بينهما ،
جئت بالرجل الثالث عشر الذي كنت احتفظ به للساعة الأخيرة واعطيته
لصديقنا أميل اده . وهكذا صار أميل اده رئيس جمهورية بصوت واحد
زيادة ، مما يجعل رئاسته هزيلة وتحت رحمتي ورحمة خصومه ! »

ويقول دي مارتل في رسالة أخرى لصديقه تعليقا على رسالته
الاولى : « لا أريد أن اجعلك تتعبين نفسك وتتساءلين لماذا اعطيت الرجل
الثالث عشر لاميل اده ولم اعطه لبشاره الخوري ؟ يجب ان اعترف لك
انني لا اكره بشاره الخوري ، ولكني لا احب حياته المتقشفة المظلمة ،
واكره هيئة اركان حربه المؤلفة من جماعة من الفشارين الوقحين ، يتكلمون
عالياً ، ويتحدون المفوضية يومية ، كما وانني ما احببت جماعة جريده
ليجور ، والحبر الجليل الذي وراءها ، (اي الاستاذ ميشال شيجا) الذي
يتكلم مثلما يتكلم الكرادلة ، ويلقي في جريدته بطريقة غير مباشرة طبعاً
- ولكن مفهومة جداً - دروساً في الحشمة وحسن السلوك ، فانما
الاستاذ ميشال شيجا والمتجزوتون الذين حولهم ، يصلون كثيراً ،
ويحتشمون أكثر من اللازم مما يدعو للاشتباه في ايمانهم ! »

وطبعاً من جميع رسائل دي مارتل لصديقه اعطتنا هذه الرسالة
التي تعبر عن روح الرجل صورة حقيقية تجمع بين الصراحة والشؤم ،
وبين محبته للحقيقة العارية ، حتى ولو كانت فاسقة وكرهية !

كما وان هذه الرسالة تجعلنا نلمس روح الاستهتار عندذاك الرجل
الكونت دي مارتل ، التي هي طبيعية فيه ، وليست مؤامرة تدبرها ضد
الهيبة اللبنانية وضد كرامة المرشحين الكبارين ، اللذين كانت البلاد قد
انقسمت شطرين متقاتلين في سبيلهما ، وقد علق كل شطر مصيره

ومقدراته على مرشحته منهما .

وكان النائب المحترم المرحوم ألياس السكاف ذاك الرجل الثالث

عشر الذي أحفظ به دي مارتل حتى النهاية .

ظل حتى الساعة الأخيرة ينتظر ولا يقول كلمته ،

فضلا عن أنه كانت هناك مشكلة عميق : المزرعة الكبرى وهي مشكلة يجب حلها حالا ، واعطاء ألياس السكاف حقه فيها . وكانت الحكومة تتأخر كثيرا في أنصافه ، فظل صامتا ساكنا ينتظر ، بينما كان زملاؤه الباقون قد انتقى كل منهم جبهته واصطف فيها ، وذلك طبعاً بعد ان اخذ اولئك الذين يأخذون ، ما اخذوه .

فانما سوق الحراج كانت بالمزايدة العلنية ، في وسط القهراوي والمنتديات العامة !

وكانت المساومات المالية تجري في دوائر المفوضية نفسها ، فتخلق الفضيحة وراء الفضيحة .

وكان يساعد على التشهير قلة عدد نواب مجلس ذلك الزمان ، مما جعل سوق الحراج ضيقة ومنظورة جدا .

وساعد دي مارتل ايضا ماليا ، عندما جعل صندوق المصالح المشتركة يشترك في شراء بعض الاصوات بمبالغ محترمة ، كان النواب الذين اخذوها يقتطعون منها - قبل كل شيء - حصة الصديقة الحسناء ، وذلك بمعرفة - ولربما بتوصية - الكونت دي مارتل نفسه ، الذي لم يكن يتورع من اظهار غيرته على الصديقة بشتى الطرق والمناسبات !

وظل الرجل الثالث عشر ينتظر حتى اخر ساعة ، حتى صباح يوم الانتخابات . عندئذ اعلن اقتناعه وكشف قناعه وقال باعطاء صوته للاستاذ اده .

ومما ذكره بصدد ذلك - غالبا على سبيل الفكاهة وقبول الحق - الاستاذ جبرائيل المر الوزير النائب السابق المعروف ، انه في ليلة الانتخابات لتلك الرئاسة ، رن التلفون في مكتبه بسيما روكسى ، واخذ السماعه فلما منه ان احدا يريد التحدث اليه ، فتنين ان الرنين جاء بالغلط ، وان حديثا يدور على الهاتف بين شخصين ، عرف في احدهما صوت صاحب هذه المذكرات ، وسمعه يتحدث من غرفة قطع التذاكر

بسينما روكسى مع المرحوم الياس السكاف بلوكندة أميركا . وقد كان
موظف غرفة قطع التذاكر بالسينما قد ترك الخط متصلًا أيضا بمكتب
الاستاذ المر ، مما كان يجعل هذا الاخير يسمع المحادثات التي تجري بين
مكتب قطع التذاكر وبين الخارج . ويروي الاستاذ المر انه سمعنا نقول
لياس بك السكاف :

— معتوق ينتظرك ، والكونت دي مارتل انهى معه قضية «عميق» ،
فلم يبق عليك الا ان تذهب لبيت الاستاذ اده !

وقع المقدر وكان ما اراده دي مارتيال .

وصل المرحوم الياس السكاف لبيت الاستاذ اده ، حوالي الساعة
الواحدة بعد منتصف الليل ، حيث كان الاثنا عشر المعروفون مجتمعين
او بالحري الاحد عشر ، لان الاستاذ بترو طراد ، الذي كان في النادي يتسلى
بالعب — كما كانت عادته التي لم تتغير ابدا — كان قد ارسل برنيطته ذات
الشكل البطيخي (الميلون) ، التي كان معروفا بها عن بعد الف متر وكان
يتفرد بلبسها — ارسلها يعرضها في العلاقة القائمة بوسط الدر ، فكان كل
من يدخل يراها وجها لوجه ويخيل له ان الاستاذ بترو طراد هو في احدى
الغرف يستريح !

وهكذا يطمئن ايضا ، لان الاستاذ بترو طراد كان مشهورا عنه في
انتخابات الخمسة وعشرين للرئاسة انه يعبر عن رأي المقوض السامي ،
وذلك بوصفه رئيس المجلس النيابي الاقرب للمفوضية .

قلنا ، وعندما وصل الاستاذ الياس السكاف ، تأكد الاستاذ اميل
اده حالا من الانتصار واخذ يتقبل النهائي وهو في فراشه مريضا تعبًا ،
بعد تلك المعركة المخيفة التي كان فيها دي مارتل مدة شهرين كاملين يتلاعب
بالمرشحين الكبارين ، ويلعب معهم لعبا فظيعة ، فلا يقوم بظاهرة تدل على
تأييد اده مثلا ، حتى يهب حالا ويقوم بمظاهرة اخرى تدل على تأييده بشاره
الخوري ، مما كان من شأنه ان يجعل عقل كل منهما يضيع ، وصحة كل
منهما تنحرف .

كان ولا شك له لذة في ان لا يجعل احدهما ينام لا هو ولا رجاله ليلة
واحدة براحة !

وفي اليوم الثاني بعد ان جرت عملية الانتخابات واعلنت رئاسة اده رسميا ، كان معتوق يعرض على اصدقائه رسالة جديدة من دي مارتل لصديقتة ارسلها لها حالا بعد فوز مرشحها يقول لها :

« وهكذا يا صديقتي العزيزة اوصلت الجوادين الى العمود منهوكي القوى خالي الوفاض ، لم اترك لهما منذ اسابيع واسابيع دقيقة طمأنينة واحدة وانتهيت ان عملت للجمهورية اللبنانية رئيسا باكثرية صوت واحد مما يجعله دوما يذكر فضلي ويذكر مساعدتك ، ومما يجعل كرسيه دوما مهتزة مرتجة . »

ولكن بعد ٤٨ ساعة من ذلك قام الاستاذ الرئيس الجديد بعمل لم يعترف فيه مطلقا بالفضل الذي يدعي دي مارتل انه عمله له ، وذلك عندما اقام تلك الوليمة الرسمية بمناسبة انتخابه رئيسا للجمهورية ، ودعا اليها المفوض السامي والوزراء والقناصل العامين والنواب وزوجات الجميع وتجاهل صديقه الكونت دي مارتل ، مع انه لايام قليلة جدا مضت ، كان لا يفارق صالونها ، حيث كان يحاول ان يتلاقى مع دي مارتل عندها ، ويتدبر انتخابات رئاسته بحضورها وبموافقتها !

وهكذا لم يدع اده صديقة دي مارتل للوليمة الرسمية كما دعا زميلاتها زوجات الرجال الدبلوماسيين ، مع انها زوجة قنصل اجنبي .
وعندها وعند دي مارتل ، هاتوا بيت الله لتهده .

وهكذا ، بعد ٤٨ ساعة فقط من اعطاء دي مارتل صوت الرجل الثالث عشر للاستاذ اده يوجه فخامته للمفوض السامي اهانة عدها هذا الاخير من اكبر الاهانات ، واعتبر ان الاستاذ الرئيس الجديد قصد بها اظهار اذرائه لصديقتة ، وانه يتورع عن دعوتها - بالرغم عن مكائنها الدبلوماسية - ولا يريد ان تجلس على مائدته ، وهي التي كان الاستاذ معتوق صديق الرئيس الجديد والعامل الاكبر في نجاحه ، قد ابتاع مساعدتها وحسن توسطها لخدمة مرشحها اده ، وذلك مقابل كل ما كان عند برانجه والكف الاحمر في سوق الطويلة من روائح عطرية وماركات شوكلاته وكلسات حرائرية والبسة تحنانية ممتازة ، مرفوقة من حين لآخر بشيك محترم ، او بجوهرة غالية ، ودوما يوميا طاقة ازهار جبارة من شأنها ، ان تذكرها بالعرض الذي يدعو مرسلها لارسالها !

وهذه الحسناء قد تكون - كما كان معتوق يؤكد بدهشة - هي التي جعلت دي مارتل يأتي بالرجل الثالث عشر لاده ، واهمل رئيس الجمهورية دعوتها لولييمته ، مع اعتبار انه لم يكن يزوري بها مطلقا عندما كان يدلعاها ويدلها قبل الانتخابات ، ويدعو صديقه معتوق لاغداق هداياه الثمينة عليها !

كما وان دي مارتل اعتبر حالا - كما قال ذلك لمدير الامن العام صنيعته الخاص المسيو كولومباني - ان رئيس اكرتية الصوت الواحد اراد اكتساب بتولية جديدة واكتساب شعبية لنفسه في اظهار تمرده عليه بهذه الطريقة العلنية ، واراد ايهام الشعب انه ليس مدبونا لاحد بالرئاسة التي اخذها ، كما وانه اراد اظهار احتقاره للصديقة الحسنة !

وقد كان الشيء مؤكدا هكذا ، اذ لم يكن بالامكان تجاهل هذه السيدة ، التي كانت في مقام دبلوماسي يجعل من الطبيعي دعوتها لوليمة يحضرها الدبلوماسيون وزوجاتهم .

وغضبت الحسناء ، وغضب معتوق متضامنا معها ، مدعيا انه هو الذي اقنعها واشتراها لتكون بجانب الاستاذ اده تأخذ جانبه ، وليسس جانب الخوري، وتقع الكونت دي مارتل بمناصرتة .

ووجد معتوق في عمل صديقه الكبير اهانة له ايضا .

واخذ معتوق جانب الحسناء حالا ، مما كان سببا لعودة الصداقة بينه وبين دي مارتل ، انما الى وقت قصير ، اذ ان معتوق عاد بعد ذلك يطالب ببيع تنباكه للريجي بالاسعار التي يريد ، وعاد دي مارتل يرفض !

وكان معتوق اثناء انتخابات الرئاسة يلعب بالذهب لعبا ، فلا يدخل احد الى غرفته الا ويجد اكداسا من الليرات الذهبية امامه ، كأن حضرته يريد بذلك اغراء الذين يزورونه من النواب .

وكان جميع الناس يتصورون انه دفع كثيرا في تلك الانتخابات للنواب ولاهل السياسة والصحافة ، كما يماشون مرشحاه .

ولكن دي مارتل كان اعرف بمعتوق اكثر من جميع الناس وكان « زيلعا » مثله ، يفهم بلغته ويعرف بتفسيره ، لهذا لم يكن يصدق الشمي الكثير عن مكارمه !

وكان يقول ، ذلك القول الذي ضحكت له بيروت يومئذ : « معتوق
عندما يعطي كيسه يربطه بخيط مطاط ، فلا يكاد الكيس يستقر في جيب
الذي يأخذه حتى يجذب معتوق الخيط فيعود الكيس اليه كما هــسو ،
وبعض الاحيان مع ما يكون في جيب الرجل الاخر من مال ايضا ! »



وهكذا في اليوم الثاني لانتخاب الاستاذ اميل اده رئيسا للجمهورية
اللبنانية، وجد حضرته نفسه مضطرا أن يجابه الاشياء العدوة الثلاثة الاتية:

١ - محاولات دي مارتل حالا ، وبعد أنتخابه بيوم واحد ، تصفيره
واخجاله ، والحط من هيبة رئاسته ، وتسليط مدير الامن العام الشهير
كولمباني عليه ، وزعمه على مسامع الكثيرين أن السيدة التي استنكف
الاستاذ اده عن دعوتها لوليمته الرسمية التي يدشن بها رئاسته ، هي
ذات السيدة التي كان يتوسطها ويقضي اوقاته عندها ، طالبا مساعدتها
لدى المفوضية لاجل الرئاسة .

٢ - غضبت السيدة على اميل اده طبعا ، واخذت تضع كئوسا
فمها الجميل وبطريقة متواصلة ، في اذن المسيو دي مارتل ، تثير حفيظته
على اده ، عاملة للانتقام منه للاهانة التي وجهها اليها امام الهيئة الدبلوماسية
التي هي منها ، وهي اهانة يجب ان يعدها دي مارتل موجهة اليه ايضا .
ليست هي - بمعرفة جميع الناس - صديقه المعبودة ؟

٣ - الحرب الجديدة الشعواء التي اسرع طبعا الشيخ بشاره الخوري
واعلنها على الاستاذ اده الذي شلحه الرئاسة بصوت واحد ، مما يكفي
الافتكار فيه ليجعل الدم يغور ويشور .

وهنا يجب ايضا بالمناسبة ان نذكر شيئا عن موقف الرجل الرابع
فانه لم يحاول التعاون مع صديقة المفوض السامي قبل الانتخابات ، ولا
سيما وانه لم يكن بإمكانه ان يشتريها بالمبالغ التي اشتراها بها معتوق .
وذلك لانه كان دوما في ضائقة مالية ، ولم يكن له ثروة خاصة يستعين بها ،
ولم يكن اخوه الشيخ فؤاد الخوري - سنده المالي الدائم بعد ذلك - قد
تزوج باغنى وارثة في لبنان (ابنة المرحوم اسكندر الحداد) واستلم اكبر
محل تجاري في بيروت . وبعد فوز الاستاذ اده ، دعت هي الشيخ بشاره
الخوري للاشتراك معها في محاربتة فرفض ، آذ ان بشاره الخوري لم يرض

يومئذ ان يلجأ في اغراضه السياسية الى سيدة تستمد قوتها من فراشها !
ونذكر ايضا رحابة ذلك الصدر عند بشاره الخوري ، واستقباله
الرزايا بسكون غريب، وهي ميزات أسماها يومذاك المستهترون من اصدقائه
عدم احساس ، وجلد تماسح . ولكن رحابة ذلك الصدر الغريبة العجيبة
التي استقبل فيها فشله بالرئاسة بصوت واحد ، ومعرفته ما كان يدبره له
دي مارتل من اشراك جعلته لا يشكو ولا يتذمر امام احد ، دون ان يفقد
الابتسامة الصامتة التي عرفناها عنده مع كل ما كان يتلقاه من ضربات
وكوارث .

وذهبنا في اليوم التالي لفشله في انتخابات الرئاسة ، زيادة في حشرتنا
لكي نرى وجه ذلك الرجل ، ولكن عبثا حاولنا ان نقرأ على وجهه شيئا من
التأثر او العتب او العنف وآثار الفشل عليه .

وعلى مدى الايام والسنين لا نذكر اننا شاهدنا مرة واحدة هذا
الرجل في غير الهدوء والسكينة اللذين كانا من امضى سلاحه .



ومن الطبيعي أن لا يكون الاستاذ اده في هذه الحالة - وبعد ان اخذ
المفوض السامي يقطع عليه الطرقات ويشير عليه الحفائظ ويخلق له المشاغب
- ومن الطبيعي ان لا يكون حقق الامال التي كان الكثيرون يعقدونها عليه
من اصلاحات ومشاريع كبيرة بالدولة .

ولم يكن اميل اده في جراته المعلومة يخفي شكواه من اعمال المفوض
السامي ، معه ، مما كان ايضا يزيد من مشاغبة الكونت دي مارتل عليه .

ومن الطبيعي ان يكون الرجل الرابع وكتلته الدستورية قد استفادت
من المناسبات ، واخذت تقوى وتشدت ، يساعدها بذلك بطريقة كتومة غير
مباشرة معاونو دي مارتل اصدقائها ، فتجد الكتلة الدستورية بذلك ما يشدها ويزيد
سلطانها ، ويدعوها للقيام بظواهرات مختلفة جريئة وشديدة ، ضد
الحكومة القائمة ، كانت لربما لا تقوم بمثلها لو كان دي مارتل - وهو
صاحب السلطان - راضيا عن الرئيس الجديد .

ويجب ان يكون دي مارتل قد شجع بطرقه الخاصة جماعة الكتلة
الدستورية ، قبل سفره بمهمة جديدة لفرنسا ، للعمل لازعاج الاستاذ

اده وحكومته ، مما حدا بهؤلاء أثناء غيابه لاعلان ثورتهم المقاتلة العاملة
والتي دعوها ثورة احراش الباروك، التي اتخذوها مقراً عاماً للثورة يعتمون
فيها ، وتوافقهم اليها يوماً عصابات مسلحة يتولى تدريبها طبعاً الرجل
العسكري الوحيد بين زعماء الثورة الامير مجيد ارسلان، وذلك سنة ١٩٣٧
وقولى حضرته تدريبها وتدريب نفسه أيضاً استعداداً لتلك الثورة التي
كانت منتظرة وتحت الحساب ، واخذ عطوفته لنفسه لقب القائد العام لثورة
الباروك ، وهي الثورة التي صارت معروفة بعد ذلك باسم الثورة البيضاء كما
سيراها القاريء في سياق هذه المذكرات - وذلك لانها انقضت بدون دماء،
وهو شي كان القائد العام في روحه الحربية يظهر امتعاضه منه !

الثورة البيضاء في الباروك

كانت الحكومة الفرنسية استدعت مفوضها السامي الكونت دي مارتل الى باريس ، كما كانت تفعل من وقت لآخر عندما تستدعي الحالة وذلك لتفاوض معه وتدرس معه أمور البلدان التي تحت الانتداب ، وذلك بمناسبة المشادات التي كانت قائمة وبمناسبة خلافات دي مارتل مع الزعماء من الجانبين ، وقيل يومئذ انه يذهب ولن يرجع .

وطبعا ادعى جماعة الرئيس الاستاذ اميل آده أن خلاف دي مارتل معه ، وحياته المستهتره في تلك البيئة المفسودة التي تحيط به ، قد يكون السبب الذي جعل الوزارة بباريس تستدعيه اليها لتقلبه من منصبه .

ولكن الكونت دي مارتل رجع ايضا هذه المرة . رجع اكثر عنفا رجع في اليوم الذي كانت فيه حكومة الاستاذ اميل آده - والتي كان يرأسها ذلك السياسي المرن العنيف خير الدين الاحدب - تتخذ قرارات أوضع حد لعنف وتهجمات الكتلة الدستورية واصدقائها وملاحقة زعمائها ملاحقات بوليسية !

رجع ليجد بشاره الخوري مع هيئة اركان حربه ، وعلى رأسها الامير مجيد قائد القوات المسلحة ، وكميل شمعون مستشار الحزب السياسي وامين سره الاعلى قد اعلنوا الثورة على الحكومة القائمة .

وكان في الباروك ايضا هنري فرعون ممول الحزب - على ما كانوا يقولون - ومما لم تثبته الايام بعد ذلك ، بالرغم من ادعاء اصدقاء بنك فرعون وشيخا انه هو الذي ساند الكتلة الدستورية ورأسها ماليها منذ البداية، وانه هو الذي تحمل مصاريفها، وهو في مناسبة ثورتها بالباروك حمل جميع أعبائها .

وهناك ايضا كان سليم تقلا ، ذلك الاستاذ في النباهة والتدبيرات وكانت حكومة الاستاذ اميل آده الجديدة قد عزلته من محافظة بيروت

لا لسبب غير انتمائه لحزب بشاره الخوري . وكان ميشال زكور الذي كان قد شق لنفسه في عالم الصحافة مكانة مرموقة قاده الى الواجهة السياسية وجعلته ركنا من اركان الدستوريين .

وكان الشيخ فريد الخازن يحمل ما عنده من جرأة وفكاهات ويحمل ايضا بوصفه من عشاق « بنت البستوني » دزيئات من ورق اللعب ، مع كميات من الفيش يقامر مع الزعماء تحت ظلال الاشجار بينما تقع المعركة .

ولا شك ان الشيخ فريد الخازن كان اكثر الدستوريين ظرفا ومنطقا ، يقرن الوطنية اللبنانية الصحيحة بلبالي المسر الجميلة ، ويحمية اندية القمار الكبرى ، يتطوع في خدمة الشريف ايام الحرب العامة الاولى ، ويدخل لبنان بعد انتصار الحلفاء على رأس فرقة من الخيالة الفيصليين ووراؤه قافلة من البغال تحمل الحنطة هدية من الشريف للموارنة بكسروان ويحمل بعضها اكياس من الذهب قيمة ما جمعه وريحه وسباه الشيخ فريد في الصحراء باسم الجهاد واسم العروبة ، وقيمة ما اخذه من أموال الكولونيل لورانس صديقه ورفيقه في حرب الصحراء .

وكان فيصل في بداية الثورة العربية ، قد اهتم كثيرا بان يحيط نفسه برجال من جميع الطوائف واخصها من الموارنة المسيحيين ، املانه بدخول لبنان وضمه للدولة العربية بمكة عامة والدولة الشريفة بدمشق خاصة - تلك الدولة التي كان يشتمغل لها عندما ثار تحت قيادة والده الحسين بن علي في الصحراء .

وكان قد وجد في الشيخ فريد الخازن الذي اتخذه مرافقا له ، شخصية لبنانية مارونية محبوبة لها مكائنها في جميع الاوساط ، وسليمة بيت ارستوقراطي ماروني كبير يحترمه اللبنانيون ويجلونه ، فاعتبر فيه افضل ممثل للموارنة في الجيش العربي محرر البلاد فيكتسب عن طريقه صداقة الموارنة وانضمامهم اليه .

وطبعا طالما ثورة الصحراء هي ثورة عربية ، فقد كان من الطبيعي ان يعلن الشيخ فريد نفسه عندما التحق بالشريف انه الماروني العربي الاول وكانت تلك اول مرة - بطريقة عملية واقعية - يعلن فيها ماروني انه عربي ، غايته وحدة لبنان والجزيرة ، وقيام امبراطورية عربية تكون بلاد الارز ولاية منها .

ولكن الشيخ فريد المارونى العربي الاول ترك عربته وتناساها تماما بعد عودته للبنان ، مما كان متوقعا منذ الساعة الاولى عند رجل نبهه فهيم ، يماشى الظروف ويعتقك الجنسيات حيثما تكون خدمة بلده وخدمته الخاصة .

وكان يقول - ولو كان الموضوع هنا فى غير محله - للذين قاموا عليه يومئذ من رهابين وانعزاليين فى هذا الجبل : « ان السياسة الحققة الصحيحة فى ان تخدم نفسك وتخدم بلدك ، ولو كان ذلك عن طريق خيانتها ، اذا لزمتم الحال . »

وان لم يكن الشيخ فريد خدم بعروته كسروان الا بقوافل القمح واكياس الذهب التي وزعها على اهاليه باسم الشريف لكان ذلك كافيا لان تقول أنه فى عربته كان لبنانيا اكثر من اللبنانيين القائمين عليه ، والذين لم يخدموا لبنان بغير الكلام والتفسير والتعصب الذميم !



كنا اعلاه نعدد اسماء بعض جماعة اركان الحرب فى ثورة الباروك ، وقد تحصن رجالها فى هضابها المشجرة ، بينما الرئيس اميل اده ورئيس حكومته خير الدين الاحدب يحشدان جندرمتها وبوليسهما فى عاليه والمديرج ، لمهاجمة الثائرين ، وقد استفحلت الحالة وخيم على لبنان جو من الخشية والروعة ، فهي المرة الاولى تقوم فيها فئة سياسية معروفة تحمل السلاح بوجه الدولة . وقد كثر عدد رجالها المسلحين وسادت روح حرية عند جميع الثائرين من سياسيين وغير سياسيين ، حتى ان هنري فرعون وسليم تقلا وميشال زكور حملوا السلاح ايضا وكان الشيخ فريد بهذه المناسبة يقول لهنري فرعون وهو يشير الى المسدس الذي كان يحمله وجيه الكاثوليك :

- الافضل ان تحمل يا هنري بك اوراق المئة آيرة فهي تصيب احسن .

وكان هؤلاء غالبا يتفرکشون فى سيرهم لثقل البنادق الحربية التي كانوا يتمنطقون بها ، ولربما لا يعرفون ان يطلقوا رصاصها !

ولكن لا بنادقهم ، ولا بنادق الثوا رباجمعهم ، اطلقت رصاصها ، فلم نختبر هكذا الى اي مدى كانت قد وصلت معرفة فرسان الباروك فى فن الحرب ، اذ ان دي مارتل - الذي كان الاديون يؤكدون انه لن يرجع - كان

قد أسرع في الرجوع عندما عرف بما يجري ، وبعد ان أرسل يطلب من الحكومة ايضا التوقف عن أية مطاردة للثوار !

رجع في الوقت الذي كان الباروكيون قد ازدادوا عدة وتحصينا ، وفي اليوم نفسه الذي كان فيه أميل اده ورئيس حكومته خير الدين الأحذب اعتمادا مهاجمة الثورة بعد أن حشدا كل قوى الدولة .

وتساءل طبعا كل من الفريقين : الى اي جانب من الجانبين سينحاز دي مارتل ؟

تساءل الجميع هذا السؤال ما عدا الشيخ بشاره الخوري الذي كان يعرف الحقيقة وحده ، عندما كان قبل ذلك وهو في باريس قد اتفق سرا مع الكونت دي مارتل على ما سيكون ، وكنتم الاتفاق عن الجميع وكان يضحك في سره عندما كان يسمع الاذيين يهددون جماعة الباروك بقرب عودة دي مارتل ، وتجريد حملة عسكرية عليهم تربيههم وتؤدبهم !

وكانت المرة الاولى التي فيها يقوم عصيان في البلد ، ولا يتدخل الجيش الفرنسي حالا لقمعه ، مما فهم منه ان الآديون بعد ذلك ان دي مارتل يريد أدلاهم . ولكن كان طبعا من المنتظر عاديا وبالأكثر ان يأخذ دي مارتل جانب الحكومة ، مع ما كان عليه من قطيعة مع رئيس جمهوريتها ، وان يأمر عند وصوله عساكر السنغالية بالمشي على الباروك ، مما كان يجعل العصاة طبعا ، وفي رأسهم قائدهم العام الامير مجيد ارسلان ، يفكرون برفع الراية البيضاء .

ولكن دي مارتل كعادته اخذ المسألة بالطريقة العنيفة الضاحكة الساخرة التي اعتاد عليها ، فكان اول شيء عمله انه بدلا من ان يفاوض رئيس الجمهورية ورئيس وزرائه ، ارسل يفاوض العصاة ولصالحهم ايضا حتى اذا تمت مفاوضته معهم ، وبعد ان اخجل الرئيس اميل اده وخير الدين الاحذب قفز من فوق رأسيهما واعلن قراره الشهير في فرض الائتلاف بين الجانبين لانتخابات عمومية لمجلس من واحد وستين نائبا ، قفز بعد ذلك الى الثلاثة والستين ، على ان يكون فيه للاستاذ اده ٣٧ نائبا ويكون فيه للشيخ بشاره الخوري ٢٦ نائبا على ان ينتقي كل من الفريقين المرشحين الذين له ، دون ان يكون لاي فريق حق « الفيتو » على اي مرشح من مرشحي الفريق الاخر ، ويجب أن يجري ذلك تحت اشراف

المفوض السامي طبعاً وبموافقته وحده . وكان هذا القرار أكبر وافظع تزوير انتخابي في تاريخ هذه البلاد . وليس تزوير ٢٥ ايار ١٩٤٧ المشهور الذي جاء بعد ثلاثة عشر سنة من ذلك - شيئاً بالنسبة للتزوير الذي انتهى به دي مارتل ثورة الباروك بتلك التسمية المستغربة الهازئة ، تلك التسمية بين السراي الآدية والدستوريين والخوريين .

وكان كما قلنا اعلاه على بشاره الخوري ان يقدم ٢٦ مرشحاً يتفق مع اصدقائه عليهم ويفرضهم فرضاً - طبعاً مع موافقة دي مارتل الحكومة . ويفعل الرئيس اده الشيء ذاته في حصته البالغة السبعة والثلاثين مرشحاً .

وباجمعنا كنا نعرف خير الدين الاحدب ، بالامس العربي القح ، واحد كبار دعاة الحركة الثورية العربية الثلاثة ، العاملين ببيروت بشدة وعنف وجرأة لخدمة الوحدة : رياض الصلح ، خير الدين الاحدب ، صلاح بيهم .

وكنا نسميهم يومئذ فرسان « العهد الجديد » بالنسبة لجريدة خير الدين الاحدب التي كانت تحمل هذا الاسم المأنوس ، وكان يجتمع الفرسان الثلاثة يومياً في ادارتها بشارع فخري بك وكانت تلك الادارة تحت المراقبة الدائمة من جانب الامن العام الفرنسي وكان هناك رجال الامن أيضاً يتعقبون كلا من الثلاثة الكبار كيل نهار ، بطريقة يظنونها سرية . ولكن اي شيء كان يخفى على رياض الصلح ؟

لقد كان يعرف وينظر الى هذه المراقبة بهزء ومجون ، حتى انه طلع على باله ذات يوم ان يثبت للبوليس السري الذي يتعقبه انه يعرف امره تماماً ، فدعاها للركوب معه بالسيارة قائلاً :

- الافضل ان نتقاسم اجرة هذه السيارة بدلاً من ان يأخذ كل واحد منا سيارة لوحده !

ولم تكن جريدة « العهد الجديد » في عهد عدائها للفرنسيين تستطيع ان تصدر كل يوم بطريقة منتظمة ، كما كان اصحابها يتمنون وكما هو مطلوب منها وذلك لان موازنة خير الدين ورفيقه السيدين بالوطنية لم تكن تسمح باصدار الجريدة الا بطريقة متقطعة .

وبالمناسبة يجب ان نلاحظ انه لم تقم في هذه البلاد قضية معروفة او

احزاب سياسية الا ووجدت - عن حق او بدون حق - انصارا كرمساء
يمولونها على قدر الامكان ، ما عدا قضية الوحدة العربية التي لم تستطع
ان تتدبر مرة واحدة مالا يساعدها ، مع ان القائلين بها كانوا دوما اكبر
زعماء العرب - باستثناء عارف بك النعماني الذي قدم اموالا طائلة بسخاء
عظيم لهذه القضية وكان بعض زعمائها يأكلونها .



قلنا اعلاه اننا كنا باجمعنا نعرف خير الدين الاحدب العربي في جريدة
« العهد الجديد » .

وإذا بالاستاذ اميل اده بكتشف فجأة ان هناك ايضا خير الدين
الاحدب اللبناني الانفصالي ، عندما كلفه بتأليف وزارته الاولى في كانون
الثاني ١٩٣٦ .

كيف جرى ذلك ، وكيف خرج خير الدين على رفيقيه وعلى قضية
الوحدة التي كان يشتغل مهمها لاجلها ؟

هذا شيء يمكن تفسيره عندما نقول اولاً ان خير الدين الاحدب كان
يعرف انه يشتغل لقضية ليست رابحة . وكان يعرف من جهة ثانية
انه ، وهو عربي في لبنان ، فالسراي تبقى مغلقة ابوابها في وجهه . وكان يقول
في فطنته الغربية ، اذا قرر العرب الوحدة ، فليس وجودي بسراي لبنان
يمنعهم من تحقيقها كما وانني سأجد سبيلا لان اعود عربيا عند ذلك !

وكما كانت باريس تسوى قداسا ، فان النيابة في لبنان ورئاسة
الحكومة من بعدها تسوى التنكر للصحراء .

وذات صباح ، ودون ان يكون الشيء منتظرا ، جاء خير الدين فجأة
للسراي يستند على ذراع الرئيس اميل اده ، ليستلم الحكم ويؤلف وزارة
لبنانية تنفق اراؤها الانعزالية مع مبادئ ووضعية رئيس الجمهورية زعيم
الانعزاليين رقم اول !

خير الدين البنبالي

وبدا عندئذ العهد الذهبي لاهل السراي : عهد الاعياد والسعة واليالي الحسان ، والاعيب السحر الطريفة اللطيفة والمال ، والظرافة واللباقة في الالعب السياسية الجميلة . . . وخلق رئيس الحكومة الجديد بلاط له ، جمع فيه اطرف الفكهاء والطف الحسان ، واخذ يجاري المفوض السامي على عقله وفكره وطريقة حياته ، وصادق الصديقة الحسناء ، واصبح في نظر المفوضية الزعيم المسلم الذي سيجعل الراية اللبنانية - آفرنسية ترتفع على البسطة . وكانت البسطة عاصية دوما - ان لم يكن واقعيا فمعنويا . . .

واكتسب خير الدين في ايام قلائل عطف ورعاية المفوضية لما كان يديه من استعدادات للخدمة ، ولما كان عنده من حيلة ومقدرة . وكان له تلك الميزة النادرة المثال ، انه عندما تزول الضائقة المالية عنه تتضاعف قواه العقلية ويكبر قلبه ويصبح عبقريا وداهية دهما . واذا كان لم يستطع ان يظهر في السابق الحقيقة الكاملة الكامنة فيه ، فذلك لانه كان يتخبط في افلاس دائم من وراء اسرافه وكرمه وحياته الصاخبة .

وسلم الكونت دي مارتل قيادة الانتخابات الصورية التي ارادها ائتلافية الى الرجل الذي جاء به الاستاذ اده بطريقة غير منتظرة لرئاسة الوزارة ، متحديا به كبار البيروتيين المسلمين . وصادف انه كان عند ذلك الرجل رجاحة عقل وقوة عارضة وارادة قوية ، جعلته حالا يفرض نفسه على البلاد وخصوصا على المجتمع الاسلامي الوجيه الذي كان قبل ذلك يشجب استدعائه لرئاسة الوزارة يمثل المسلمين في هذه الدولة ، مع انه من أسرة يمكن حسابانها من اكبر بلاسر المسلمة البيروتية الوجيه .

ولكن اميل اده الذي اكتشفه لم يكن يتراجع ، وذلك لمعرفة قيمة هذا الرجل الذي كان قد تعاون تعاونا حادقا جدا في انتخابات الرئاسة

واثبت في وقوفه الجازم بجانبه أخلاصا كاملا ودهاء عجيبا في التدابير
والمناورات السياسية التي قام بها .

وكما قلنا اعلاه لم يكد خير الدين يدخل السراي وقد زال العسر عنه
وجاء اليسر - حتى ظهر فجأة - وامام دهشة الجميع - جبارا مشتا قوة
عارضة وحنكة كبيرة مؤكدا مقدرة سياسية كاملة تتحدى جميع وجهاء
هذا البلد . وقد كان حسابه تافها جدا عندهم قبل ان يجلس في الرئاسة
ويتسلم مقدراتها .

وكانت هي المرة الاولى التي يتسلم فيها مسلم رئاسة الوزارة في لبنان
وصادف ان الرئيس الماروني الذي استدعى هذا المسلم لاستلام الحكم هو
الرئيس الانزالي الذي حاول دوما ان يصبغ لبنان بصبغة مسيحية اكبر
واوسع من الصبغة التي هي له بالحقيقة !

وكان هكذا اميل اده ، هو الذي دشّن هذه التقاليد التي جعلت
رئاسة الوزارة في لبنان بعد ذلك للمسلمين ، يعدونها حقا صريحا لهم ولا
يجسر سياسي واحد - حتى ولا ميكافيل لبنان الحديد - مساومتهم
عليها ، مع ان هذا الاخير ، اي الاستاذ حبيب أبو شهلا ، كان ولا يزال
المدعو الاكبر والافضل لاستلامها ، ومع ان عددا كبيرا من المسلمين الوجهاء
رغبوا به ، فهو مع كل وقاحتة السياسية تهرب وخشي امتعاض المسلمين
ضمنا اذا قبل !

وجاءت مناسبات كثيرة بعد ذلك كان من الامور الضرورية الوطنية
تكليف غير مسلم لتشكيل الحكومة المناسبة ، ولكن لا السراي تجاسرت
على هذا العمل ، ولا المسلمين اظهروا اي تساهل امامه !

قلنا ، اثبت خير الدين الاحدب وجوده في السراي حالا .

وكان له ما لم يكن بالحسيان ايضا ، اذ انه جمع حوله بطريقة
مدهشة وبسرعة غزبية ، جمهرة من الانصار الاقوياء من السياسيين وزعماء
الاحياء وكبار القضايات ، يماشونه ويقولون قوله ، ويخلقون له في المدينة
قوة كبرى يستند عليها في الوقت الذي كان فيه الناس قبل دخوله السراي
وعلى رأسهم ابناء عائلته الكبيرة الوجيعة بيروت ، يتنكرون له !

ولكن عندما جلس في صدر المقام ، وجد الناس انفسهم حالا اما رجل

تجلت فيه فجأة ودون سابق انتظار ، زعامة سياسية تفرض نفسها على السراي وعلى البلد .

وهي زعامة زاداها قوة وسؤددا اموال المفوضية والخزينة التي اخذت تندفق على خير الدين بك الاحدب من جميع الجوانب ، مما أخرجه اولاً من الضائقة الزمنية التي كانت تسيطر عليه ، ومما جعله يغذي بسخاء غريب انصاره وقبضاياته وزعماء احيائه . وقد استباح السراي اموال الخزينة وصفقات البلدية لخدمتهم ، اعتباراً منها ان المال - واو كان من مال الحكومة - لا يجب ان ينام بالصناديق طالما رجال تلك الحكومة وزلمهم يحتاجونه !

وكان خير الدين ، كرجل يعرف الفضل ، ويعرف صالحه ويعرف من اين تؤكل الكتف ، قد وضع في البداية كل قوته في خدمة الرجل الذي اكتشفه وجاء به لرئاسة الوزارة : الاستاذ اميل اده .

وعرف خير الدين الاحدب باوقت نفسه - وهو المعاون الامين لرئيس الجمهورية - عرف في البداية ولاشهر قليلة - ان يوقف نوعاً ويزيل الكثير من التوتر بين هذا الاخير وبين المفوضية السامية ، او بالحري بين الكونت دي مارتل ، الذي كان قد اصبح معجبا بخير الدين بعد ان كان قد عارض في البداية باستدعائه للحكم ، انما بعد التجربة اكرم الرجل وقدره ووجد فيه كل ما يفتش عنه كل حاكم مغامر مخيف وجديد الرجل الذي يمكن الاتكال عليه بكل المهمات فوق العادية والمستغربة ، التي كان دي مارتل يريدتها . وكان يقول عن خير الدين انه وحده يفهمه ، وانه صورة طبق الاصل عن السياسي الشيطان « سافانارول » .

وقال الكونت دي مارتل لبشاره الخوري بعد تسوية الباروك ، عندما دعاه للاتصال مباشرة مع رئيس الوزارة خير الدين الاحدب للاتفاق على اسماء المرشحين المؤتلفين :

- ولكن احذر خير الدين الاحدب ، فلا تدعه يبلفك ، فهو يحمل في جرابه اكثر من حيلة !

واخذنا نشهد باعجاب تلك المباراة التي قامت بين الاستاذين الامعين بشاره الخوري وخير الدين الاحدب في اجتماعاتهما المتوالية ، بمكتب مدير المكتب السياسي في المفوضية ، الذي وضعه دي مارتل تحت امرتهما ،

وذلك ليتدبر كل منهما اسماء المرشحين الذين يخصونه: ٢٦ لبشاره الخوري و٣٧ لاهيل اده ، فكانت تلك المباراة نوعا من التسابق في العبقرية والنباهة ، يأخذ عنها السياسيون امثولات وعظات في فن الدهاء والتخادع!

ولا شك ان رئيس الدستوريين هو اندي فاز في تلك المباراة الفريدة من نوعها ، اذ انه استطاع ان يفرض الستة والعشرين مرشحا المحسوبين عليه ، باجمعهم من مؤيديه ورفاقه ، غير تارك مجالا لاية مساومة، ولا لحيلة خير الدين ، ولا لرغبة المفوض السامي ، ولا لاهتمامات الرئيس اده .

كان لا يلبس ، وكان يجعل الجانب الاخر مضطرا لاقضاء عدد مسن اصدقائه عن حصته في ترشيح السبعة والثلاثين التي له .

وهكذا اضطر جانب الرئيس اده ان يتخلى عن صاحب هذه المذكرات وكان قد اعلن ترشيحه بين السبعة واثلاثين بطريقة فريدة باهرة ، يوم استدعاه لوليمة اقامها في فندق الجبيلي بعاليه ، واعلن امام الحضور من مندوب المفوض السامي لرجال الحكومة ، الزعماء السياسيين ترشيح امسكندر رياشي تحت رعايته وباسمه !

ودعاه بعد ذلك، تثبتا لقوله ، لمرافقة رئيس اوزارة خير الدين الاحدب في دورته الانتخابية بجبل لبنان ، حيث كان يقدمنا كالمرشح المفضل للنيابة .

ولكن جاءت بعد ذلك تسوية دي مارتل .

وتمسك بشاره الخوري بصديقه الاستاذ سليم تقلا ، يريد مرشحا عن الكاثوليك في جبل لبنان الذي كان الاستاذ اده وخير الدين بك الاحدب - خلقوه بقانون خاص ليعطونا اياه . اذ انه حتى ذلك الوقت لم يكن في جبل لبنان نائب للكاثوليك .

وكان معلوما - كما ذكرنا اعلاه - ان الاستاذ اده ، عندما استلم رئاسة الجمهورية قد عزل الاستاذ سليم تقلا من محافظة بيروت ، لا لسبب غير انه من انصار الشيخ بشاره الاولين .

وعمل الشيخ بشاره ما اعتاد دوما عمله في التمسك باصدقائه حتى النهاية .

وهذا ما دعانا في ذلك الحين ، لتقدير هذه الميزة بالرجل ولعدم

الصخب عليه ، مع انه شلحنا هكذا نيابة كانت مضمونة لنا . وكان الاستاذ اميل اده يتنبأ عنها انها تكون ائبه واطرف نيابة تعرفها المجالس في لبنان .

وفي اليوم الذي بدأت معركة تلك الانتخابات الائتلافية ، ظهر خير الدين الاحدب يحمل ليس فقط نباهته ودهاءه بل ايضا مئات السوف الميراث ، جاءت أولا من المبالغ التي كان دي مارتل يسلمه اياها من اموال المصالح المشتركة ، وايضا من المبالغ التي اطلق دي مارتل يد خير الدين لاستلامها من الشركات الكبيرة ، فانما هذا الاخير ، كان عندما يريد ان يعمل شيئا يعملها كبيرا ، ولا يسأل عن مصادره في سبيل ذلك .

وكان الكونت دي مارتل ايضا بالمناسبة يريد ان يكون اكبر عدد من النواب مدينين لخير الدين الاحدب في وصولهم للمجلس .

وهكذا لا يكونون تماما للاستاذ الرئيس اميل اده ، بل يكونون بطريق غير مباشرة للمفوض السامي ، طالما كان الناس اخذوا يعتبرون ان خير الدين الاحدب اقرب له من رئيس الجمهورية الاستاذ اميل اده .

مع انه لا شك ان خير الدين كان امينا دوما للرئيس اميل اده وكان يسميه « كريستوف كولمبوس » ويقول انه اكتشف فيه اميركا جديدة عندما اكتشفه وجاء به للحكم ، ولكنه كان دوما يقول انه بالاحرى يتقرب ويخدم دي مارتل ، ويعمل على كسب صداقته كيما يستطيع ان يزيل هذا انخلاف ائقائم بينه وبين الرئيس اده الذي يريد خير الدين خدمته ومن كل قلبه !

وكان نابوليون والكونت دي مارتل وخير الدين الاحدب يعرفون اكثر من جميع الناس ، ان المال عصب الحرب ، لذلك - كما قلنا اعلاه - رأينا المال يتدفق على صندوق الانتخابات الذي استلمه خير الدين الاحدب وكان الشيخ فريد يقول بالمناسبة - ان خير الدين موضوع حسد لميزات كثيرة ، ولكن اهم تلك الميزات انه مستلم لاموال صندوق الانتخابات !

وكان المفوض السامي يحث اقطاب الاعمال والمشاريع بالبلاد للمساهمة في هذا الصندوق بقوله ان رئيس الحكومة الذي يشرف على هذا الصندوق هو العامل لتأليف مجلس نيابي مؤتلف يجعل البلاد تتصالح وتتعاون ، فيكون من وراء ذلك عهد ازدهار وسعة وطمأنينة وثقة للتجار وللشركات والمصانع والمعامل والمشاريع العمرانية ، وحياة البلاد الاقتصادية !

نعم ، هكذا تماما كانت دعاية المفوض السامي لصندوق الانتخابات !
وهكذا أيضا كانت خزائن خير الدين - لزمان ما - تتفجر من كثرة
ما احتشد فيها من اوراق مالية كانت تختنق فوق بعضها بعضا .
وكان اول ما عمله خير الدين ، وهو عمل مطلوب من رجل كريم ونبيه
 ويفهم الحياة ويعرف بيت الشعر المشهور ولا يخالف ان يردده عليه
اصحابه ، والقائل :

ان الكرام اذا ما اسروا ذكروا
من كان يألفهم في المركب الخشن

وكان اول ما عمله خير الدين انه جعل انصاره واصدقائه وعشراء
البؤس والضائقة ينفرجون .
ثم فرج نفسه ، مما هو حق له ، وفعل ذلك بطريقة صريحة جليسة
ومعتدلة للغاية ، مما جعل الناس لا يرون في ذلك اي عيب .

وبعد هذا اخذ يفرج المرشحين من الجانبين فهو في روح الانصاف
التي تجلت فيه هذه المرة ، اعطى الخصوم مثلما اعطى الانصار ، فكما اعطى
مؤيديه الاذيين كذلك اعطى الدستوريين . وقد كان بين هؤلاء ناس يقبضون
بكل طمأنينة ووقاحة ، مع كل ما عندهم من تعنت ، ومع كل ما كانوا
يتفنون به من تجرد و فدائية للوطن !

ولو اضفنا تلك الاموال من الشركات والمفوضية الغالية جدا في ذلك
الزمان ، الى الاموال التي دفعها أيضا المرشحون الاغنياء ثمنها لترشيحهم
اقلنا ان تلك الانتخابات كانت كالفورنيا جديدة في معادنها الذهبية !

وبهذه المناسبة يجب ان نردد ما لاحظته رياض بك الصلح يومئذ - وكان
قد ابتعد عن خير الدين الاحدب العربي سابقا ، وذلك عندما صار خير الدين
الاحدب لبنانيا - وهنا يجب ان نردد ما لاحظته رياض بك الصلح عندما قال
في حديث عمومي له ، وذلك بعد ان نزل للترشيح و حاربه خير الدين
والمفوض السامي محاربة العدو اللدود المنتقم ، ومما كلف صندوق
الانتخابات مالا كثيرا ، فاضطر للانسحاب من المعركة قبل نهايتها ، قال
رياض الصلح يومئذ :

- لم نر فقط خير الدين الاحدب يصير لبنانيا انغزاليا ، بل رأينا

خصوم واعداء خير الدين الاحدب وخصوم رئيسه الاستاذ اميل اده والقائمين على المفوضية لعشها بالدستور ، اعني بهم ثوار الباروك ، يأخذون مسال الشركات ومال المفوضية من يد خير الدين الاحدب ، وفي مكتبه ، ليتدبروا انتخاباتهم وليأتوا لمجلس عين المفوض السامي نوابه قبل انتخابهم ، وقبلوا ان يكونوا فيه اقلية ، وان يكون خصومهم فيه اكثرية !

وكان حكم رياض الصلح هكذا قاسيا جدا . وكان ولا شك مبالغا في قوله ، اذ ان الشيخ بشاره الخوري وعددا كبيرا من زعماء الدستوريين مثل كميل شمعون والامير خالد شهاب ومحمد العبود وحמיד فرنجيه وسليم تقلا وغيرهم وغيرهم ، ابتعدوا عن الصندوق المشترك ولم يعرفوه كما وان بشاره الخوري كان قد فرض مرشحيه السنة وعشرين فرضا ولم يقبل اية مساومة عليهم ، ومن بينهم عدد كبير من السياسيين الذين عملوا مؤخرا انقلابا عليه . وقد يكون ذلك الصندوق أخذ من هؤلاء بدلا من ان يعطيهم .

ونحن فعلا كنا هناك .

وكنا لربما نساعده خير الدين الاحدب في عمل حساباته مع هؤلاء ومع اولئك . وكان قد اخصنا بصدافته ، وهو الذي تدبر لنا تعويضات محترمة مقابل ابعادنا من قائمة المرشحين ليأخذ مرشح الشيخ بشاره الخوري الاستاذ سليم تقلا مكاننا المقعد الكاثوليكي في قائمة الخوريين .

وكان خير الدين يقدر صداقتنا وفننا الصحفي واعجابنا بعبقريته ، لهذا كنا مقربين منه كثيرا نطالع اكثر الاحيان على اعماله وخفاياها .

وهكذا فعلا كنا هناك نرى اكثر هؤلاء الذين اثاروها حربا على خير الدين الاحدب ورئيسه اميل اده ، واتهموهما بكل الرزايا وبالعبث بالحريات العامة وخيانة القضية الوطنية ، والاستعباد للفرنسيين - كنا هناك نرى اكثر هؤلاء يأتون للسرائي يمشون حسياسيا يلحقون الجدران حلقا ، يحاولون ان لا يستلقتوا الانظار عندما يدخلون على خير الدين الاحدب ، ويبد خجولة وبعين تتظاهر بالاستحياء ، يتناول الواحد منهم الظرف الذي يكون خير الدين الاحدب قد اعده وسيعا ملانا !

وكانت لخير الدين عندما كان يسلم الظرف حركة جميلة بليغة تخاطب بفصاحة وبدون كلام المرشح وهو يقبض قائلا :

— للحقيقة المال لا لون ولا رائحة له ، وهذه اليد التي تعطيك ايساه
الان هي اليد التي كنت تدعو عليها بالكسر أمس ، وستدعو عليها بالكسر غدا!

واشرقت شمس خير الدين الاحدب . ولم تستطع حملات لا
الدستوريين ولا وجهاء بيروت الذين اخذوا يفارون من المكائنة التي وصل
اليها رئيس الوزارة ، أن تقلل من زهوها ، مع انها كانت حملات محكمة
تحالفت فيها جميع العناصر القوية ، ومنها حملات رياض الصلح التي جعل
قاعدتها خروج خير الدين على القضية العربية ، وقد كان من جنودها الاولين

وكان رياض الصلح قد رشح نفسه في الانتخابات الائتلافية ، كما قلنا
اعلاه . ويجب ان نعترف انه اذا كان الجانبان ، الجانب الدستوري وجانب
الاستاذ اده — لم يتفقا قلبا وقالبا على جميع الاشياء فقد اتفقا قلبا
وقالبا على محاربة ترشيح رياض الصلح ، حاشدين جميع القوى في ذلك
السبيل!

فانما الفرنسيون جعلوا قضية ترشيح رياض الصلح قضية تحدد
وهجوم على الانتداب ، مما يجب ان يجعل المؤتلفين من الجانبين يتفقون
على محاربته .

وكان الفرنسيون عرضوا في البداية مالا على رياض الصلح . وكنا
كالعادة احد الذين ذهبوا اليه ونصحوه ان يقبض ، وهو يومئذ خالي الوفاض
يعيش بضائقة معروفة . قلنا له كما قال له غيرنا ان يقبض وان يعتبر مال
المفوضية ايضا لا لون ولا رائحة له ، او بالحري يجب ان يعتبره مال الامة ،
يبتزه الفرنسيون جزية منها ، فاذا هو استرجع شيئا منه يكون عمل
واجبه الوطني . ولكنه لم يفعل ، وانسحب من الترشيح عندما تألبت جميع
القوات عليه ، بعد ان اقسام على الاخذ بالنار .

وكنا نقول له ، انه سيأسف لذلك في المستقبل وان المال افضل
مفتاح للفرج!

وكاذبون ونمامون اعداؤه الذين قالوا بعد ذلك ان الفرنسيين استرضوه
بالكثير ، ورضي به وانسحب .

ولكن كان معتادا على الضائقة منذ زمن طويل ، وكان يخيل للناس
انه يحبها ويلتذ بها ، ولا يريد التخلص منها ، ولم يكن يشكو ولا مرة منها

او يقوم باية حركة تدل على انه متدمر منها ، مما لا تستطيع ان تفهمه
ليست عقليتنا فقط ، بل عقلية العدد الاكبر من السياسيين في هذه البلاد ،
حتى عقلية المعتزين بالتجرد والنزاهة منهم ، والذين كثيرا ما يتركسون
فرصا اصغر واحقر من هذه الفرصة تفوت ولا يتمسكون بها .



ولكن هل خير الدين الاحدب في ذكائه المفرط ، كان يفكر دقيقة واحدة
ان في استلامه الرئاسة وادارة الانتخابات واموالها - شيئا يمس بالكرامة ؟
ولماذا يكون ذلك ؟

طالما ان خير الدين الاحدب - واكثر الرجال الكبار الذين حكموا
هذه البلاد - لم يجدوا اقل غضاظة لا في خدمة المفوضية السامية واحترام
رغباتها والعمل بمشيئتها ، ولا في عمل الانتخابات النيابية بالشراء والارتشاء
وحسب ما تقتضيه سياسة ومصالح المناسبات والاقوات التي وجدوا
فيها ، ولا في الاتكال لاكتساب الشعبية والقوة على مختلف عناصر
القبضيات واهل المسدسات والخناجر ؟

ولماذا التشاؤم ، ولوم الكرامة ، طالما ان الباروكيين انفسهم انتهوا
ووضعوا يدهم بيد الذين كانوا بالامس يرونهم خونة ومارقين ، وبعد
ذلك يتعاونون ويأتلفون معهم ، ويقبلون منهم المساعدة ليصيروا نوابا ، فلا
يبقى هناك بعد الانتخابات التي جرت ، شيء لا يجعل الرئيس اده وخير
الدين الاحدب ومن ورائهما دي مارتل لا ينامون على اكاليل الفار ؟
والنوم هنا كلمة بالافواه !

اذ ان دي مارتل وخير الدين الاحدب - على الاقل - لم يكونا ينامان
كثيرا ، لا قبل ولا بعد الفوز بالانتخابات الائتلافية بل بالعكس كانا يسهران
كثيرا كل واحد من جانبه .

فانما دي مارتل ازداد صداقة لصديقه .

وكان قد كتب لها على اثر فوز خطته بالانتخابات :

هل تعترفين الان ان صديقك يستطيع ان يعمل كل ما يشاء في هذه
البلاد ؟ لقد جعلت ذئاب الامس نعاجا ياتمرون بامري ويعملون بمشيئتي .

والذي تحدّثه نفسه منهم بالعصيان والتمرد ، استطيع أن اجعل اعز رفاقه
ينقلبون عليه !

وهكذا كانت الامور تجري كما يرسمها المسيو دي مارتل ، وحسب
اهوائه ومشيتته .

وكان دي مارتل من أغرب الرجال في اموره العاطفية ، يفار على
حسنائه عندما يريد اذلال الرجل الذي يكون سبب هذه الغيرة ، ولا يفار
عليها عندما لا يكون هناك من سبب لاذلال الرجل الذي يقاربا !

فانما الحسناء ، مع انها كانت نوعا ما تحت مراقبة صديقها لم تكن
تتورع عن أن تهدي نفسها من وقت لآخر ، الى هذا الفتى الجذاب او ذلك
الرجل الوهاب السخي .

وكانت هناك سيده اجنبية - روسية أيضا - مطلقا احد رجال
الانتداب تتدبر لها مواعيدها السرية مع اصدقاء الصديقة كما وانها كانت
دوما ترافقها ، وتجد لذة خاصة ، وكسبا كانت بحاجة اليه وجمعت من
ورائه ثروة صغيرة جعلتها تزيد في الزينة والبهجة ، اللتين كانتا تخفيان
- انما بطريقة قبيحة - تجعيد وجهها ، وتعطيان لشعرها الذي كان الشيب
بدأ يضرب فيه ، لونا شقراويا باهتا .

وكان دي مارتل قطعة من اعصاب لا يعرف مطلقا الراحة حسي
عندما لا يكون عنده شيء يعمل . او كنا نسميه « الساهر رقم اول » ، فهو
لم يكن يحب النوم ، ولا ينام . وقد كان مستهترا بالامور ، وكانت روح
المغامرة والاقدام التي اتصف بها على جميع انواعها ، واخصها العاطفية ،
تعطيه نشاطا جديدا غريبا فلا يتعب ولا يتقاعس ، بالرغم عما تتطلبه تلك
الامور من القوى والاجهاد ،

وكان خير الدين الاحدب يحب الظرف ، ويحب الحسن ، ويحب
السياسية والحياة الالهية ، فلا يحتقر اي قسط من اقساط المرح والانباط
والسلوى ويدعه يفوته .

وكان يحيط نفسه بجمهرة من كبار الظرفاء والظريفات ، يتدبرون
له الليالي الجميلة الفتانة ، في ولائم واعياد تسطع فيها دوما نجوم متألقة
تشبت سلطانها - ومنها نجمة كان يخيل للناس ان نورها يشع على دولته
اكثر من انوار باقي النجوم !

فردوس الكسليك : قطعة من التاريخ

نأخذ نفسا بعد هذا الفصل الطويل عن عهد دي مارتل ، وهو عهد كان اكثر ضجة ومشاعبات سياسية من كل عهد عرفناه قبل الاستقلال ، يؤلف احداثا وعظات وامثولات كثيرة في حياتنا العامة .

ونأخذ نفسا بعد كل ذلك الشرح الحقيقي والظريف حقا ونسائل :

« ترى لو كان الفرنسيون يومئذ ليسوا هنا ، يسيطرون بجيوشهم وباموالهم واموالنا وبضائعهم وبضائعنا ، وبصناعاتهم وصناعاتنا ، ثم بحسانهم وحدهم .. »

« ترى لو كنا في ذلك الوقت مستقلين كما نحن اليوم ، ليس عندنا اجنبي يجب مداراة خاطره ، واستدراك شره ، هل كان خصوم الرئيس اده وخير الدين الاحدب يعملون معهما - باسم الاصلاح ومحاربة الفساد والرشوة والارتشاء على قارعة الطريق ، ما عمله في ما بعد خصوم بشاره الخوري - بالامس - عندما قاموا عليه باسم الاصلاح ومحاربة الرشوة والارتشاء ، فعاف الرئاسة وذهب لقصر الكسليك يعتصم ويعتكف فيه ؟ »

وهل يعترف الناس معنا ، بعد ما جئنا عليه من كشف الخفايا عن الاوضاع الشاذة والمتاجرات غير المشروعة وسياسات الاستهتار والاعتباط في عهد دي مارتل ، ان عهد الاستقلال في ايام بشاره الخوري ، الذي قامت القيامة عليه ، لا يفرق كثيرا عن عهدنا في ايام المفوض السامي المهسزار الهازي ؟

ولكن الجبانة التي تميزنا بها تجاه الاجنبي هي بالاحرى التي جعلتنا لا نجد في عهد دي مارتل من ينادي بالويل والشبور ، ويستصرخ الارض والسماء من مظالم الدولة وفسادها . نعم لم نجد غير الرجل الذي قمننا عليه بالامس ، وذلك عندما عادت لنا شجاعتنا - بعد ان استأمنت على

نفسها بعد زوال حراب السنغاليين ، فاتهمناه بكل القبائح والمفاسد التي كان مع حزبه يحاربها في عهد دي مارتل !

وهكذا تنقلب الادوار وتدور الدواليب في هذه الحياة ويذهب بشاره الخوري الى بيته ، ويأتي كميل شمعون مكانه معترزا مفاخرا بتجرده ونزاهته وترفعه عن كل حزبيته .

ولكن من منا يضمن ان كل هذه المزايا التي يصف الناس اليوم كميل شمعون بها ، لا يقلبها غدا خصومه - عندما يصير له خصوم - الى سيئات ومفاسد فيقومون عليه كما قاموا على اده ، ثم على الخوري وايضا على الرؤساء الاخرين من قبلهما ؟

على ان الرئيس السابق اذا خسر حاضره ، يبقى له ذلك الماضي في الكفاح ، عندما كان يرأس تلك الجمهرة القليلة جدا في عدد رجالها ، وفي واجبتها الاولية رئيس الجمهورية الحالي الامتاذ كميل شمعون .

... عندما كان بشاره الخوري مع جمهرته وحدهم ، بين اهالي الجبل ، يحملون راية العصيان والتمرد في وجه الاستعمار ومفاسده وعبثه بالدستور وتحقيره للبلاد !

ومن مصادفات الزمان الطيبة ان يذهب الرئيس السابق الان الى قصر « الكسليك » قرب جونيه ، الذي يعتكف فيه ، متهما بدوره بالطغيان والفساد والتحكم في الدولة والعبث بمصالحها !

وهذا القصر في الكسليك ، الذي يجعله المعتكف فيه الان يدخل ثانيا في التاريخ ، يقوم على ضفة البحر ، في اجمل شاطئ من هذا المشرق . وهو شاطئ كانت السماء قد جعلته ليكون بالاحرى مرتعا للحسان ولاهل الشعر والغرام اكثر منه ملجأ للرجال السياسيين الذين يكون نجمهم السياسي أخذ يتضاءل .

فانما شاطئ الكسليك جميل لدرجة يجعل امواج البحر تلامسه حتى في الليالي العاصفة بحلاوة وعذوبة دائمتين ، وتلبسه الشمس حلة من نور لا تعرفها باقي الشواطئ ، لا في لبنان ولا في غير لبنان وتعطي السماء لاشجاره ولارضه ولصنوبره اخضارا ساحرا تفرد به بين سواه من اخضرار الحقول والاحراش ، وبحره له زرقة لا تختلف عن زرقة السماء ،

فيبدو الاثنان وكأنهما على وصال غرامي دائم ، يكاد الناظر اليهما لا يفرق بينهما ولا يجد ما يدل على انهما منفصلان .

هناك كان قد ابنتى الرئيس السابق منذ بضع سنوات ما يسمونه بالانكليزية « بانغلو » جعلها دارة للراحة وللترفيه ولنظم الشعر والاستيحاء وقت التصافي ، ولما جاة الطبيعة باجمل منظرها وقت الخيال .

وتأخذ اليوم الدارة الجميلة الانيقة الصغيرة - التي يخيل للناظر اليها انها عش غرام وملتقى عشاق ، لا معتكفا سياسيا - تأخذ اليوم شهرة جديدة تذكرنا بما عرفته في السابق من شهرة .

وهذه الجنة في الكسليك لها تاريخ قديم جميل جذاب في اساطيره وحكاياته . وكانت الكسليك قد عرفت ، رجالا كبارا مشهورين قبل بشاره الخوري كانوا ايضا نزلوا فيها معتكفين لاجئين وقت الكوارث ينشدون في جنباتها وبظلال اشجارها وتحت وأرف اوراقها السلام والطمأنينة ، ويحاولون ان ينسوا في جمالها وروائعها عزا اقل وامجادا تمضي .

وكان الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين الاكبر قد لجأ للكسليك (سنة ١٩٣٧) وسكنه باقامة جبرية ، بعد ان طارده الانكليز في فلسطين عندما كان يقود حرب العرب على اليهود ، وكان امين الحسيني يقول معتزا بنفسه وبخدماته للعرب وتقديره لها حق قدرها :

- ليس بين لوحات نهر الكلب التاريخية التي نقر الفاتحون تواريخ امجادهم على صخورها ، وبين الكسليك حيث انا معتكف سوى رمية حجر فقط !

وبالفعل ، كانت الكسليك ، قبل الحاج امين موضوع بحث للمستشرقين القلائل الباحثين عن العبادات والديانات السالفة المنقرضة وانما لباقي الناس كانت اسما مجهولا ، وبقعة غير مطروقة فاذا بعيون العالم العربي والاسلامي ، وبعيون الانكليز معا ، تتجه نحو الكسليك عندما نزلها ذلك المجاهد المغامر ، المفتي الاكبر ، الذي لم تقو عليه عواصف الزمان وقوات الحكام وظل منتصبا امامها يتحداها ويواجهها رغم ما نزل عليه من صواعق ورزايا .

وبعد ان افلت طريد الانكليز من معتقله الفردوسي في الكسليك حيث كان الفرنسيون قد انزلوه معززا مكرما ، وحيث استعاروا مدة اقامته

معتقلا ، نفوذه ودهائه لاكتساب صداقة العرب في كل مكان ، وخصوصا في المغرب الاقصى والجزائر وتونس ، حيث كانت شهادة الحاج امين الحسنه بالافرنسيين وتعاونهم معه ، مما كان يسطره برسائل يبعثها لزعماء الوطنيين في تلك البلدان البعيدة الهائجة طالبا الوفاق مع فرنسسا وليس اعلان الثورة عليها - كانت هذه الرسائل تجعل الفتن على الفرنسيين تتوانى والعصيان يتصاغر ، والتمرد يتضاءل مما قدره هؤلاء قدره ، ومما جعلهم يحيطون لاجىء اكسليك بعناية خاصة ، كانت تجعل سماحته يقول بلطافة ولباقة اشتهر بهما ، وهو يعرف أن الانكليز فرضوا على الفرنسيين يوم لجا الى هنا ، اعتقاله بمكان معلوم ، حيث يستطيعون دوما الاشراف عليه من بعيد :

- ليس في العالم شيء افضل من الحرية ، ولكن اذا كان للاعتقال درجات كما هي الحال بالفنادق والقطارات ، فانا من وراء انتقاء الفرنسيين لي هذا الفردوس اسكنه ، ومن وراء حسن معاملتهم أي هنا اعتبر نفسي اني معتقل درجة أولى !

وعندما افالت المفتي ذات ليلة في اوائل الحرب الاخيرة ، سنة ١٩٣٩ ليلجا لبغداد ، يضع قواعد الثورة على الانكليز التي قام بها رشيد عالي وصحبه ، ثم يذهب بعد ذلك لبرلين وروما حيث يجد ترحيبا كبيرا ، وحيث يحاول أن يتفق مع هتلر وموسوليني على ميثاق الحرية والاستقلال الكامل للبلدان العربية - عندما افلت المفتي ، بعلم الفرنسيين او بدون علمهم ، - ولكن الارجح ان الشيء كان بعلمهم ، فهو لم يكن يعمل شيئا الا وهم وياه متفقون ، كما وانه كان يحترم معاملتهم له وضيافته عندهم كثيرا ، فلا يبعث او يستخف بهما - وقد من بعده على القصر الذي كان يسكنه جماعة من المستنيرين المدهشين ، يقولون بشيعة جديدة اسموها « الداهشية » ، بالنسبة لاسم مبتدعها داهش بك ، الذي ذكرنا شيئا عن الرسالة السماوية التي ادعاها وعن العقاير التي كان يتدعها والتي يجب ان ترجع الشيخ الى صباح ، اذا لم ترسله الى القبر . وقد تكلمنا عنها سائفا .

وقد جعلته رسالته يقوم بتنبؤات فسارة كنا نستغربها . واشتهر يومئذ باعمال الشعوذات التي كانت تجمع حوله الكثيرين من المعجبين المشدوهين . ولم تتحقق من نبؤاته غير نبؤة واحدة فقط ، هي نهاية بشاره الخوري السياسية المفاجأة ، والتي كان داهش ينتظرها ويتكهن عنها ،

متشفيا قبل الاوان ، وذلك لان حكومات ذلك الرئيس لاحقته وطارده
كثيرا ولم تستطع قواته غير المنظورة ان تنقذه منها ، فترك هذه البلاد وذهب
يموت قتيلا في جبال الازربيجان ، كما زعم الدايشيون .

واخذت هذه الجماعة التي نزلت في قصر المفتي بعد فراره ، تحتفل
عند انتصاف الليالي بقداديس وطقوس سوداء ، مستنجدة بالارواح
تستدعيها للظهور امامها ، وتتحدث اليها وتنشد معرفة الغيب من افواهاها .

وكان من ادعش قداديسها السوداء ، عندما احتفلت بمراسيم
جنازة غريبة مستغربة الطرق ، لفتاة مستنيرة بالداهشية لدرجة جعلتها
- وهي الانسة زينة حداد - تنتحر احتجاجا لمطاردة الحكومة لاستاذ
مما عدته تدنيسا لشخصيته الالهية ورسائله السماوية ، وكان قد استولى
عليها اليأس وقتلت نفسها ببيروت (سنة ١٩٤٦) ، وحملتها الجماعسة
بالخفاء لقصر الكسليك ، حيث احتفظت بها ليالي عديدة فوق منصة عالية
مجللة بالسواد ، تنيرها شموع ضئيلة يظهر المعلم عليها عندما يأتي منتصف
الليل ، ويبعثها حية لدقائق قليلة ، تقول في خلالها للمؤمنين الدايشيين
المذهولين امامها ، المستنيرين باعجوبتها ، ما في العالم الاخر من عجائب
وغرائب ، وما ينتظر الدايشيين فيه من غبطة ومباهج !

وهكذا للكسليك تاريخ حديث خاص ، يتبع الاساطير التي تروى عنه
على ممر الاجيال ، والتي ارادت ان تجعله موطننا للجان ، تظهر فيه عند
زبوغ القمر حوريات جميلات ترقص في جنباته وبين خمائله المعطرة رقصات
الهياكل المقدسة في عبادة عششروت ، ربة الجمال والحب !

وبعد ذلك انقلبت تلك الهياكل ، كما انقلبت جميع هياكل الديانات
القديمة في لبنان ، الى اديرة وكنائس ، فكان في الكسليك دار الراهبات
لم تنفع رائحة قداستهن حتى الان في طرد رائحة الشبق والاشتهاء التي
ما زالت تملأ الاجواء !

وكان ابراهيم باشا المصري ، بعد ان اقام معسكره على ضفاف نهر
ادونيس ، الذي دعي من بعده باسمه ، اي نهر ابراهيم ، قد اشاد دارة
راحة على شاطئ الكسليك ياوي اليها لينام ، ويعتزل اليها ناشدا
الهدوء والسكون كل ما كان عنده وقت لذلك .

وقيل ان جمال المكان وجوه العابق بالعبور كان يجعل ملوك بيبيلوس

(جبيل) يجمعون فيه أجمل الحسان في مباراة للجمال العالي ، وكان أولئك الملوك اول من قام بهذه البدعة - بدعة مسابقات الجمال - التي تروج اليوم في كل مكان .

وبالرغم من ان ابراهيم باشا قد اشتهر في حملته على لبنان وسوريا والاناضول بعفته وابتعاده الكامل عن النساء ، كان - كما يقول العارفون - يجتمع الى عفيفة اللبنانية ، بنت الجبل الحسناء ، التي لجأت اليه هربا من مظالم والدها ، الذي اراد ان يزوجها - وهي الصبية الحسناء - الى حاكم كسروان ، الشيخ الهرم المتصابي .

وقد يكون ابراهيم باشا الفاتح الوحيد في التاريخ الذي لم يستطع سياسيو وزعماء هذه البلاد اغراؤه بالملاح وقضاء مصالحهم بتقديمهن له ، الى ان سحره ذات ليلة جمال شواطئ الكسليك وما يحويه من عواطف وشاعرية ، فعاف - كما يقال - عفته وعرف بين الخمائل المعطرة هذه اللاجئة الحسناء التي استصحبها معه بعد ذلك لمصر ، واقام لها قصر في سفح الاهرام .

الحسنة التي هزمت فيرم الدين

لم يكن احد من الذين عرفوا خير الدين الاحدب في جبروته وقوته، وبعد ذلك النور الوضاح في الدولة الذي اثار به السراي عندما جاء بعد الشيخ محمد الجسر ليمثل المسلمين في الحكم بطريقة واقعية مستكملة - لم يكن احد يتساءل كيف انتهى هذا الرحل الكبير فجأة وبطريقة عادية مبتذلة!

هذا السؤال لم يتساءله الكثيرون وذلك لانهم كانوا يعرفون باجمعهم لماذا انتهى خير الدين تلك النهاية الزرية (ترك الوزارة نهائيا في اذار ١٩٣٨)

... نهاية ليس فيها جاها ولا تخليدا جتى ولا مالا، مع ان كان خصومه كانوا ينسبون اليه الملايين، ويتحدثون عن الثروة الطائلة التي زعموا انه جمعها من وراء رئاسته الفردية للوزارة.

انما الذين شاهدوه في باريس، بعد ان رأوه في ايامه السوداء جدا، وبعد ان اضطر ان يبيع سيارته التي كانت عزيزة جدا عليه، وكان قد اخذها معه من هنا، وان يبيع ايضا ازرار قمصانه الذهبية في ضائقة استحسنت به، وينتهي اخيرا معدما وحيدا - اثبتوا كذب شائعة غناه واثرائه، وامنوا معنا انه عندما ترك السراي بعد ذلك العز، ترك ملايينها فيها!

وكان قد ترك لبنان، بعد ان عثر به الحظ، وعشرت به عاطفة صاخبة لم يستطيع كبح جماحها. وكانت بالاحرى السبب الرئيسي للتقاعس والعبث اللذين تسلطا عليه بعد تركه الحكم. وجاءت بعد ذلك، واخيرا حكاية تأديب صديقه الحسنة على مصطبة الجبيلي، حيث تصدت لها سيدة محترمة كان قد امتلأ صدرها عليها غضبا وصخباً، فكانت هذه الفضيحة الاخيرة خاتمة الفضائح المتعددة من هذا النوع وهي التي اودت به الى الرحيل والى تزعزع مركزه تماما كرجل دولة كبير، واضطراره

لرمي اطماعه السياسية بالبحر والرحيل الى الخارج !

وجيء من بعده بوزارة فرضها المفوض السامي ائتلافية بين الدستوريين والاديين ، يكون من الدستوريين فيها الامير خالد شهاب كرئيس ، الاستاذ كميل شمعون كوزير (من اذار الى تشرين الثاني ١٩٣٨) ولم يستطع الاستاذ اميل اده مع الوزارة الجديدة ان يسترجع شيئا من سلطانه الذي كان اخذه منه المفوض السامي ليعطيه لاحدب يحكم بالسراي حكم المعلم ، وكانت المفوضية السامية قد اجبرت اميل اده لان يعمل رئيس جمهورية في بيته ، وذلك تبعاللعداء الذي يضمه له دومارتيل .

وكانت هذه الظاهرة تجعل الناس يتصورون رئيس الجمهورية مقصاصا شأن التلميذ الذي يكون خالف معلمه .

ولكن على كل حال كان اميل اده قد اخذ مع الوزارة الجديدة ، وبعد رحيل خير الدين الاحدب ، يجد راحة لم يعرفها ايام وزارة هذا الاخير ، الذي كان دوما مستعدا للقيام بمغامرات سياسية ، تقلق رئيس الجمهورية وتضع السراي في خطر من المشاكل والمشادات .

فانما مع هذه الوزارة الائتلافية ، وجد الرئيس اده نفسه امام رئيس وزارة مسالم صاحب اخلاق رضية نزيهة مجردة ، لا يتصف بالكثير من الدهاء ، فيمكنه ان يكتسبه بشتى الطرق .

واسرع اده الى ذلك واخذ يدلل الامير خالد حتى جعله يعمل برغبانه ، ويقضي له بعض الاحيان مصالح اعوانه ، مما اغضب ليسرديمارتل فقط ، بل ايضا الكتلة الدستورية والامير خالد والاستاذ كميل شمعون ممثلاها بالوزارة ، الواحد رئيس الحكومة والثاني وزير المالية .

وكان ايضا ان الاستاذ كميل شمعون رأى - وهو من اركان تلك الحكومة الائتلافية - ان صلف الكتلة الدستورية ومطامعها ومطالبها الكثيرة تهدد هذا الائتلاف بالشقاق المريع ، فوجد من جانبه - حبا بالتضامن والاتحاد - ان يماشي الاستاذ اده رئيس الجمهورية ، على منوال مماشاة الامير خالد لحضرتة ، فغضب الدستوريون وصخبوا على زميليهم ، وانذروهما اولا وثانيا بوجوب السير في الوزارة بسياسة حزبية دستورية

صرف ، لا يجب ان يريا فيها غير مصلحة الحزب واعوانه ، مما لم يقبله
الاستاذ كميل شمعون على نفسه ، وقد كانت اكبر الظاهرات التي اخذها
الدستوريون ليينوا زعمهم القائل ان حضرته يخرج بالوزارة على كتلته هي
انه كان يجد من الاشياء المبهجة المستحبة ان يزور الاستاذ اده ، هذا الرجل
الظريف الجذاب الفكه الحديث واللطيف المعشر ، ويقبل دعواته المتواليمة
للعشاء ، وللحفلات التي كان يقيمها .

ونفذ صبر الكتلة بعد الانذارات ، ووجدت في مسلك وزيرها تحديا
لها . وقد اخذ الامير خالد عن كميل شمعون ايضا شجاعة التمرد ،
فاتخذت قرارا بوجود انسحابهما من الوزارة وزوال الائتلاف ، واعلنت
قرارها وابلغتهما اياه ، وهي تعتبر انهما سيمثلان له !

ولكنهما - ويا لدهشتها - لم يفعلوا واعلنا العصيان ، ورفض الانسحاب:
الامير خالد من الرئاسة وكميل شمعون من وزارة المالية !

فماذا تعمل الكتلة ؟

غضب اعضاؤها غضبا كبيرا ، وطلبوا طرد المتمردين من الحزب حالا
وبدون سؤال .

ولكن كان هناك الرجل الرابع بحيلته الواسعة وبدهائه الغريب ، وهو
دهاء لم يخنه ولا مرة - حتى ولا في اليوم الذي اعتزل فيه رئاسة الجمهورية
في صيف هذه السنة ١٩٥٢ .

ولكن كان هناك الرجل الرابع رئيس الكتلة ، فقد جارى الغاضبين
في غضبهم ، واشترك في الصخب والشكوى من الولدين الشاطرين ، ولكنه
قال ، ان الحزب المدرك الحكيم لا يترك غيره ينال منه ويشمت به ولا يفتح
باب الانشقاق في صفوفه ، ومن الحكمة ان يغسل اثوابه بنفسه !

وبلع رجال الكتلة عند هذا القول الموسيقى وسكتوا . . .

وعد طبعاً الاستاذ الرئيس اميل اده هذا انتصارا له ، وهو الذي كان
يعتز في احاديثه هنا وهناك ان عضوين بارزين جدا من الكتلة ما كادا
يدخلان بالوزارة ويتعاونان معه ، حتى وجدا اين هي خدمة البلاد الحقيقية
واين هي الحقيقة ، فتمردا على حزبهما وادارا له ظهر بهما !

انما كان من صالح الكتلة الدستورية ان تتغاضى عن الامر ، بعد ان

اصبح معروفا عند جميع الناس ان الامير خالد وكميل شمعون متمردان
عاصيان . وهذا لم يمنع رجال الكتلة من الموافقة اخيرا على رأي رئيسهم
والرجوع عن تهديد زميليهما بالطرد والتشنيع والاعلان بانهما كانا في كل
ما عملاه وكل ما يعملانه متفقين مع الكتلة ، وليست اخبار الخلاف المزعوم
بين الكتلة وبين ممثليها بالحكومة غير تلفيقات جرائد ومشاعبين ، يريدون
الايقاع بالحزب ، والعمل على التفرقة فيه !

وسكت رئيس الكتلة ، والشيخ فريد الخازن والامير مجيد وصبري
حماده وحميد فرنجيه وغيرهم من اركان الكتلة عن هذا التمرد غير المنتظر ،
ومشى الائتلاف في طريق عادية ساكنة حتى اليوم الذي اخذت فيه شائعة
التجديد لاميل اده تروج هنا وهناك .

تمديد لاجمهورية ورئاسة ليست بالسرائى

لم يستغرب مطلقا الذين يعرفون جيدا الميسو دي مارتل ونزعتيه نحو التشفي والتحكم والخروج على الناس بمفاجآت غير منتظرة - لم يستغربوا الشائعة القائلة بانه سيجدد للاستاذ اده ، ولكن عن طريق التعيين لمدة ثلاث سنوات .

وظل الناس يعلقون على الشائعات ويتناقشون بها ، حتى جاءت اخيرا حقيقة واقعية !

وطلع المفوض السامي بهذا القرار على الناس ، عندما اتخذ قرارا بتعيين الانتخابات لائتلافية لمجلس الثلاثة وستين يمدد فيه رئاسة الاستاذ اميل اده للجمهورية اللبنانية ثلاث سنوات جديدة ، على ان تبدأ رئاسته الثانية فوراً ، اي بعد ثلاثة اشهر من صدور ذلك القرار ، وفي اليوم الذي تنتهي فيه مدة رئاسته المنتخبة الاولى .

وبطبيعة الحال وجم الدستوريون وغضبوا وسكتوا في البداية، وذلك لان التمديد كان نوعا ما شرطا من شروط الائتلاف ، وجلب الستة والعشرين من الدستوريين لمجلس الثلاثة والستين ، في الوقت الذي كان فيه أمل الدستوريين بالنيابة ، عن غير طريق الائتلاف ، ضئيل ما عدا قلائل منهم ، وهكذا يكونون قد قبضوا سلفا بالائتلاف تعويضا عن تمديد الرئاسة لخصمهم .

وكان من الطبيعي بعد ان يحىء الدستوريون بذلك العدد الكبير من النواب الى المجلس ان يزدادوا نشاطا ليس فقط ان التجديد او التمديد لاده يجعلهم ينتظرون دورهم ثلاث سنوات يتحكم الاستاذ اده بخلاها تحكمه الحزبي ، وكان قد أخذ يتمشى عليه منذ ذلك الوقت ، بل ايضا لما في ذلك القرار بتمديد مدة رئيس الجمهورية دون الرجوع للمجلس النيابي القائم غير المعطل من مخالفة للدستور ، ومما لم يجر مثله من قبل ، وهذا يعاكس

تماما مبادئ الكتلة التي قامت على اساس جعل الدستور مصانا ومقدسا
فكان من الطبيعي - على عين الناس على الاقل - أن يقولوا عن قرار
دي مارتل انه خرق فاضح للدستور .

فانما التمديد بالتعيين لرئاسة منتخبة في جمهورية برلمانية ، هو عمل
لا يقدم عليه غير دي مارتل ، الحاكم المستهتر .

وكان من الواجب هكذا على الدستوريين الذين لقبوا انفسهم حماة
للدستور والنظام البرلماني ان تقوم - ولو بالظاهر - على هذا القرار ،
فاخذوا بعد ان استقر لهم الامر في المجلس و جاؤوا اليه من وراء هذه
التسوية المخجلة يملأون الدنيا احتجاجات واعتراضات ، مشمرين عن
سواعدهم ، يعملون في جميع اليادين هنا وفي باريس ، في سبيل توقيف
هذا القرار الفائه .

وقد ذهب بعضهم الى اتهام رئيسهم الشيخ بشاره الخوري بانـه
هو الذي تدبر مع دي مارتل هذه التسوية ، متجاهلين تماما انهم هم اولوا
كانوا على علم بما كان المفوض السامي يضرده ، ولكنهم باجمعهم سكتوا
عن الشيء حتى تمكنوا من الثيابة و جاؤوا اليها ، وبعد ذلك قاموا على هذا
التمديد يجمعون الاموال أحاربهته . وقد قيل يومئذ - كالعادة - ان تلك
الاموال كانت بالاحرى اموال هنري بك فرعون ، مما لم يثبت شيء من
حقيقته !

وكان هذا الاخير اشد حماسا في مجازبة التمديد ، يحلف ويقسم
في حماسه الدائم المعروف ، انه سيحاربه بكل ما عنده من قوة مادية
ومعنوية ووجهة وزعامة .

والخواجا ، كان دوما غنيا ووجيها وزعيما .

وكان الفرنسيون دوما على صلات طيبة معه وكان مقره مضافة لهم
ينزلون فيه نزولهم في بيوتهم . وكانت كلمته تجد عندهم اذانا صاغية ،
لا سيما وهو من انصار الانتداب الاولين ، ومن اشداهم تشيحا للصداقة
الفرنسية ، يساعدوا في استتباب امرها بالبلاد بواسطة نفوذه المعروف الدائم
في الاوساط الشعبية ، خصوصا عند العمال والقضايات والسواقين ،
الديونين له غالبا بالكثير من المساعدات ، ومنها المالية .

والخواجا كريم جدا - انما بطريقة خاصة - عندما يكون هناك
اعلان ، وعندما يكون هناك اكتساب قوة جديدة له ، وعندما يكون هناك
سبيل لمضاعفة غناه وزعامته .

وكان كما قلنا ، من اكثر انصار بشاره الخوري حماسا ضد التمديد ،
يزيد ويرعد ويهدد . وظل هكذا يثير في حفيظة الدستوريين ، حتى الليلة
التي جاء فيها حبيب ابو شهلا من جانب الرئيس اده ، يخفف من روعه
وغضبه ، ويفاوضه في مبدأ الاتفاق مع اده ومصادقته ، مما سمعه الخواجا
بكل ارتياح ، حاسبا ان التجاء اده اليه يجب ان يجعله يقبل بالتمديد .
وذلك انه وجد في محاولة اده التقرب منه ما كان يرضي صلفه واعتداده
بنفسه ، ووجد في ذلك ما يكفيه لان يسكت عن ذلك القرار الخسار
المفاجيء !

وكان في ذلك الزمان رجلا سياسيا جديدا ، العبان متلاعبان ،
دخلا في الميدان رهوانين مغامرين ، الواحد شجاع عالي الاعتداد بالنفس ،
والثاني ثعلب مراوغ نبه ، وقد امتلك كل منهما من الحيلة والنباهة ما
ليس عند ملوك الجان .

اولهما كان الاستاذ حبيب ابو شهلا ، المهر الابجر ، الذي يدخل على
الدنيا السياسية بناهة مستحبة وبوجه صبوح وباطماع كبيرة ، ويضرب
المقياس العالمي بين السياسيين في السرعة التي حققها فيها ، يساعده في ذلك
اكثر من كل شيء احاديثه الظريفة واقواله النابهة ، وكلمة عالية جريئة
قد تذكرنا كثيرا بالتاجر الذي يأكل مال التاجر !

وانما الاقوال الظريفة النابهة في جميع بلدان العالم ، كثيرا ما ترفع
صاحبها ، وكثيرا ما تنقذه من المهالك ، وكثيرا ما تجعله يصل الى المعالي
ويفوز بكل مبتغى ، وكثيرا ما تخرج السياسيين من المأزق ، وتفتح لهم باب
للانجاح والشهرة .

والاستاذ ابو شهلا كان قد حفظ التاريخ واجتهاداته ، وهو من أهل
الادب النقاليين في هذه البلاد الذين يطالعون كثيرا جدا ، وذلك مع كل ما كان
وما يزال ، عنده من مشاغل واعمال سياسية وغير سياسية ، وهي مشاغل
مع كل اهميتها ، ما اشغلته مرة واحدة عن مجونه ونداماته ، والاهتمام
بنفسه .

ادخل الاستاذ اميل اده حبيب ابو شهلا الى السراي كنائب في مجلس الائتلاف الكبير ، وذلك بعد ان كان جعله يبدأ حياته السياسية في البلدية عندما عينه عضواً فيها ، وحيث بدأ مجده حالاً يتألق خصوصاً عندما طلب تعديل امتياز شركة المياه ببيروت لصالح الاهالي ، مما كان اول هجوم معروف على الشركات ذات الامتيازات . وقد كانت حتى ذلك اليوم الذي فتح فيه ابو شهلا جبهة الحرب عليها ، معدودة مقدسة محترمة لا يجوز مسها والبحث بها ، تحميها المفوضية بكل قواها وتستثمرها لصالحها ، دون ان يكون للحكومة اللبنانية اقل حق عليها .

وعندما دخل حبيب ابو شهلا النيابة ، دخل حالاً في الاستاذ اده دخول النفس ، اذ ان رئيس الجمهورية أحب فيه روحه ونباهته وظرافته وقد كان الاستاذ اده معدوداً من سادة الظرفاء الاولين . وما هي الا ايام حتى اصبح حبيب ابو شهلا مستشاره النافذ الكلمة ، صاحب القول الاخير والرأي المسموع ، والخصم للدستوريين الاقوى والاكثر حركة للوقوف بوجههم مما جعل طبعاً الادين يعززونهم ويرفعون من شأنه .

ولا نقول هنا مع المثل العامي ، بمناسبة المكانة التي وصل لها حبيب ابو شهلا عند الرئيس اده ، وكيف انه جعله حالاً مستشاره الاول والاقترب : « من كان الديك دالوله ، كان القن مأواه ! »

... اذ ان هذا الديك كثيراً ما قاد الاستاذ اده نحو الاشياء الكبيرة ، وكثيراً ما جعل نفسه في حيلته ومقدرته من ضروريات بقاء اميل اده على سؤدده وقوته ، اللذين كانا تحت الخطر المدهم من وراء عداء المفوض السامي له من جهة ، ومن وراء حملات الدستوريين العنيفة المتواصلة عليه من جهة ثانية .

جاء حبيب ابو شهلا في مجلس الائتلاف ، وحالاً اصبح يفتش عن الثروة والمعالي . وكان يعرف كيف ان جميع الصفات ، مع الفقر تصبح سيئات ، وان حلاوة لسانه ورشاقة قده ولطافة اقواله تكتمل تماماً وتصبح سامية اذا رافقتها راحة جيوبه ، فاخذ يكدح ويجري وراء المال بسرعة . ولما كان حب المال ، مثل القابلية يزداد على القبض ، كما تزداد القابلية عند الاكل ، فالاستاذ الحلو الطماع أصبحت له قابلية الوحوش عندما اخذ يهتم بامر جيوبه .

وقد كان سيادته ، الحامل نيشان القديس غريغوريوس الكبير الذي تعطيه الكنيسة الارثوذكسية مكافأة للعفة والطهارة والتقوى ، مما ليس عنده شيء منه - كان سيادته ، يجد دوما ، بالرغم من مشاغله الكثيرة وقتا كافيا ليطالع تقريبا جميع الكتب والمجلات على اختلاف اصنافها ولغاتها . وقد كان يعد المطالعة من ضروريات الرجل الذي يريد ان يعتلي بالسياسة ويكبر . ومن ادهش ما عمله في حياته انه في الساعة التي مشى فيها الانكليز من فلسطين الى لبنان في حربهم مع الفيشيين ، كان اول شيء عمله انه أخذ يستكمل تعلم الانكليزية ، التي لم يكن يتقنها قبلا ، حتى استطاع بعد شهر واحد ان يصبح محدثا فيها .

كما وانه كان يجد وقتا طويلا ايضا للمغازلات واعمال الحب ، التي هي جزء رئيسي اساسي من حياته . وكان يعتبر في اغتراره بنفسه ان السماء ما اعطته هذه الرجولة القوية الجذابة الا ليجعل الحسان يستمتعن بها ويسعدن بساعات الغرام التي يقدحها عليهن معتبرا انه اذا لم يفعل خان الرسالة التي كلفته بها السماء ، كأدونيس جديد ارسلته للارض من اجل ارضاء الهوايات المستمتعات وكان يجد وقتا طويلا ايضا لتدبير هندامه ولباسه وزينته بطريقة مستحبة جميلة ، جعلته حسب آراء الكثيرين « بترونيوس » هذا البلد ، والحكم في الباقة .

وكان جاء النيابة كما اسلفنا واحدا من السبعة والثلاثين ، حصة الرئيس اميل اده في مجلس الائتلاف المعروف .

تماما ايضا كما جاء في سنة ١٩٤٣ من حصة بشاره الخوري في مجلس الاستقلال . فانما هو رجل سياسي دخل الدولة وظل فيها دوما ، حتى عندها رحل بشاره الخوري من الرئاسة سنة ١٩٥٢ - وقد كان اكبر المقربين اليه - ولكن بقي صديقنا « بترونيوس » اللبناني في القصر ولم يرحل معه .

بل ما كاد يغيب لساعات معدودة يوم الانقلاب عن السراي ، حتى عاد اليها مع كميل شمعون !

وقيل دوما - عند حساده ومنتقديه المتبدلين العاديين - ان حبيب ابو شهلا يأتي مع ام العروس ويذهب مع ام العريس !

انما على كل حال ، لم تقم دولة بالسراي ، الا وكان اول الذين يتقبلون التهاني عنها !

ولكن ما العمل اذا كان في روحه المتلاعبة وشخصيته القوية ، يجعل نفسه لا غنى عنه لاية دولة جاءت ؟

فهو يفتن السرايات صغيرة كانت ام كبيرة ، مثلما يفتن النساء على اختلاف حلاواتهن .

ولا شك ان هذه البراعة في التنقل والاقتران بكل حكم جديد ، هي التي دعتنا ودعت الناس لتشبيهه بميكافيل . ولقد كان في ذلك الوقت أخذ يكون معروفا بهذا اللقب .

وميكافيل هو ذلك الايطالي السياسي الاديب المشهور الاستاذ الداهية الذي وضع قاعدة السياسة في ان يلبس صاحبها لكل حالة لبوسها . وقد اجاز في السياسة القول المأثور المنسوب للجزويت ، والقائل « الغاية تبرر دوما الواسطة » .

ولكن هل يمكننا ان ندعو ابو شهلا انتهازيا ؟

نعم ، لانه ما ترك مناسبة الا وانتزها ، حتى صار ما هو عليه الان : حكيم عصره وقارون زمانه ، وكان عند قارون كنوز لا تنتهي ولا تنضب ! كان انتهازيا ، مع ان مكانته لم تكن حقيرة ، وقوته لم تكن زرية يوم اعتنق السياسة ودخل اليها دخول المظمئن الامين ، يمشي على قدميه وليس على اقدام غيره !

والاديون حتى الان ، لا يزالون يعيرونه بالخيانة، عندما ترك صفوفهم والتحق ببشاره الخوري ، يوم تألق نجم هذا الاخير وقالوا انه ناكر الفضل مدعين ان اده هو الذي عمله ، والولاه لما وصل الى ما وصل اليه . ولكن حبيب ابو شهلا ، هذا الكهل المتصابي اليوم ، النائب على امجاده السياسية والقرامية والمالية ، هو الوحيد مع ذلك الذي يسميه خصومه وحساده ستافسكي لبنان - اميل البستاني - اللذان عملا نفسيهما لوجههما ، وليس لاحد ان يدعي انه عملهما .

والاستاذ ابو شهلا عرف كيف يستنير من انوار كل شمس جديدة تطلع فيطلع معها ويخدمها بقوة عارضة وبكلمة عالية وباعمال ثابتة ويخلع على « ايدونكشية » منها رداء من العز والقوة ، يخفي معايبها ونقائصها ويفرض بعد ذلك نفسه عليها !

وهكذا ، عندما تألب الدستوريون في مجلس الائتلاف على اميل اده بعد ان كان قد صدر القرار بتمديد مدته ، وبعد ان استطاعوا ان يضربوا نواب اده بعضهم ببعض - شمر ابو شهلا عن ساعده ونزل للميدان ، يجمع نواب اده - وهم الاكثرية - في حزب ينتصر للرئيس اسماء حزب الاتحاديين وتزعمه ووضعها بالمجلس في وجه الخصوم ، وجعل رجاله - وحتى بمساعدة بعض الدستوريين - يؤيدون المفوض السامي في قراره بالتمديد ، ويخذلون بشاره الخوري في اكثريةهم النيابية الساحقة ، وذلك بعد ان تخلى عن هذا الاخير عدد ليس بقليل من نوابه الستة وعشرين . وقد فعلوا ذلك عندما شعروا بجهة ضعف فيه جعلت المفوضية تمتد لخصمه بعد ان كان يؤكده حصوله على الرئاسة قريبا .

وكان من الطبيعي ان يحتج على قرار التمديد كل نائب ديموقراطي برلماني حقيقي ، اعتبارا بانسه قرار يطيح بصلاحيات النواب الذين يجب المحافظة على صلاحيتهم ، فلا يجعلونها موضوع سخريه وهزوء

وبعد ابو شهلا ، يجيء الرجل الاخر ، الغزال الثاني ، الاستاذ يوسف سالم من نواب الدستوريين ، او بالحري الذي كان محسوبا على الدستوريين وقد جاء من حصتهم في مجلس الائتلاف . ولكنه كان الاكثر امتزاجا بينهم مع الاستاذ اده حتى مرارا ما كان يخيل انه بالاحرى من انصار هذا الاخير ، اكثر مما هو من انصار الشيخ بشاره الخوري !

وكان ولا شك ، الانتهازي رقم اول ، الالمعي في البلد .

بدأ مهندسا في شركة المياه ، وما عتم حتى فرض نفسه عليها ، وقبع مدير تلك الشركة وجلس مكانه يتحكم فيها ، ويجعل اصحابها السيدات الجليلة مدام صباغ ونجليها الظرفيين ، مع كل ما عندهم من صلف وقوة ، يخشونه ويعطونه من يده في ادارة شركتهم واستثمار اموالها !

وكان اول شيء عمله اقناعهم ان الشركة مطموع فيها كثيرا ، وهي بحاجة دوما لحماية الدولة ونوابها . وبدلا من شراء تلك الحماية بالمال كما يرى اكثر الذين يجب ان يتولوا حمايتها ، فانه هو يوسف سالم يمكنه ان يعمل نائبا ، وهكذا عندما يصير في السراي يستطيع ان يجعل حماية الشركة من جانب الدولة لا تكلف شيئا . . .

ونزل للانتخابات ، ودفعت الشركة ، وصار نائبا واخذ بعد ذلك يلعب الدور الذي يتفق مع نباهته ومصالحه وأطماعه .

فلماذا يعادي اده وهو رئيس الجمهورية ، طالما ان دستوريته يمكنها ان تكون ضعيفة تجاهه وتستطيع ان تخدم حزبه وتخدم اده معا ، وطالما انه يستطيع ان يعلن نفسه رسول السلام ، دون ان يزعج الطرفين ؟

وكان يقول انه يريد ان يوفق بين الجانبين ، مما لا يعده شيئا صعبا كما كان غيره يتوهم . وكان من جانب اخر يدعي انه مضطر كمدير شركة ، وكيلها المحامي مكتب الاستاذ اده ، لان يكون على افضل العلائق واوثقها مع الرئيس القائم !

وكان هكذا هو المدعو قبل الجميع - يوم اعلن دي مارتيل التمديد، وشن الدستوريون بعد ذلك هجومهم الكبير على ذلك القرار - ان يتطوع ليحاول اقناع الدستوريين بقبول هدنة يرضى بها الاستاذ الرئيس ، مقابل استجابة مطالب عديدة للدستوريين ومقابل اشراكهم بالحكم بطريقة اوسع .

وطبعا اشترك الاستاذ ابو شهلا - مستشار القصر الدائم على تتابع رؤسائه - وتطوع مع الاستاذ يوسف سالم لتنفيذ هذه الرسالة السلمية التي عدها ابو شهلا وسالم في اقوالهما وقتئذ - وقد يكونا وجدها ايضا - رسالة وطنية مقدسة !

والاستاذ ابو شهلا ، الذي أسموه بعد ذلك برنادوت ، كان دوما لا يترك اية قطيعة او مشادة او مساجلة سياسية حزبية الا ويقلب نفسه حالا الى حماسة السلام ، فيحمل جانبيه ويتأبط غصن الزيتون ، ويدخل بين المتخاصمين ، ويأخذ في السعي لاصلاح الحال ، ولإزالة الخلافات ، ويجد في ساعات الصخب ، الكلمة اللازمة لتخفيف التوتر ولتذليل الصعوبات امام الائتلاف الذي قام .

وكان ولا شك لمسعاي الرجلين النابهين فضل اكبر من فضل الانذار ، الذي هدد فيه المفوض السامي بالتخلي عن الدستوريين وبحل المجلس ، اذا عارضوا التمديد بطريقة نيابية !

ورضى النواب المحتجون بما كان، وذهب الدستوريون الى اكثر من ذلك اذ
انهم اخذوا يشتركون بمعظم الوزارات التي جاءت بعد التمديد حتى وصلوا
الى اخر وزارة ائتلافية بعهد مجلس الثلاثة والستين التي شكلها الاستاذ
عبدالله اليافى - وكانت رئاسته الاولى للحكومة - واشترك فيها مسن
الدستوريين حميد بك فرنجيه ، وصبري حماده .

والدستوريون هذه المرة ، اعتبارا ان وزيريهما السابقين في وزارة
الائتلاف السالفة ، الامير خالد وكميل شمعون ، لم يتقيدا بارادة الكتلة
وبخدمته مصالحها وهما في الحكم - قلنا والدستوريون هذه المرة وضعوا
شروطهم على وزيريهما في الحكومة الائتلافية الجديدة ، قبل ان يوافقوا
على تعيينهما ممثلين للكتلة في الوزارة الجديدة :

١ - العمل أولا في الوزارة لتقوية الحزب الدستوري ووجوب طغيانه
على مصالح الدولة .

٢ - وجوب عدم التئام وتجانس الوزيرين الدستوريين مع الوزراء
الباقيين ، خصومهما السياسيين ، على ان يبقيا مستقلين في وزارتيهما تماما .

٣ - اعتبار اكتلة الدستورية معارضة دوما حتى في قلب الوزارة
- مما يدعو ممثليها في الوزارة الخلق المصاعب لرئاسة الجمهورية ولحكومة
لا لتسهيل مهمتها ، كما كان يفعل كميل شمعون والامير خالد في الوزارة
الائتلافية الاولى .

٤ - القيام بمساع خفية ضمن السراي لاضعاف الرئاسة الممددة
ولتصويرها للموظفين رئاسة هزيلة لا يجب احترامها وعمل حساب كبير لها .

٥ - الحذر من مناورات وملاعبات حبيب ابو شهلا - الذي كان
قد اصبح مدرب الرئاسة الممددة ، وعدم الانصياع والخداع بحيله وفنه في
تطبيق المعارضين ، يقلبهم انصارا للاستاذ اده كما كان يفعل غالبا .

هنا تدعونا المناسبة للرجوع قليلا الى الوراء ، الى الوزارة الائتلافية
الاولى التي دخلها من الدستوريين الامير خالد شهاب كرئيس ، والاستاذ
كميل شمعون وسليم تقلا كوزيرين ، وكيف ان الاولين التأموا مع الوزراء

الاديين ، مما دعا الكتلة الدستورية لارسال ذلك الانذار الى وزرائها الثلاثة
بوجوب الاستقالة . فلبى سليم تقلا وحده الطلب ، وعصى الامير خالد وكميل
شمعون اعتبارا ، انهما دخلا في الوزارة لخدمة ابلد وليس لخدمة الحزب
وحده ، وقد جدا عند الاديين تعاوننا صحيحا فلا يمكنهما ان يتنكرا لهم !

وكانت معارضة الامير خالد شهاب لهذا الانذار قوية غير منتظرة
من رجل عرفناه لين الاخلاق يتصف بالمرونة وروح المسالمة ، ولكن يظهر ان
عزة نفسه استيقظت تماما وذكر - كما كان من الطبيعي ان يفعل ، انه سليل
بيت كبير قد تكون السماء اصطفته لاعادة امجاده ولرفع شأنه وهو يعمل
في هذا السبيل دوما ، ولا شك انه استطاع كثيرا في هذا المعنى ، لذلك لا
يمكنه ان يأتمر هكذا بامر الحزب لا سيما وهو رجل عاش مستقلا مخب
لوطنه ، لا يخشى شيئا ويفار جدا على سيرته وكرامته ، وهو ما انض
واصطبغ بصبغة الدستوريين ، الا لانه آنس فيهم حبا للتحرر والاستقلال
في وقت كان الانتداب فيه يتحكم بالبلد تحكما فظيما .

لهذا كانت معارضته لانذار الاستوريين قوية ، وهدد بالاستقالة
مما دعا الدستوريين والاديين للتوسل اليه بالبقاء .

وللحقيقة ، من الواجب القول ان الامير خالد شهاب كان بإمكانه في
كل وقت الجلوس في السراي ، فهو العنصر النزيه المحايد بالاحرى الذي
كانت الدولة تاجأ اليه في كل مرة كانت هناك رسالة سلام والاتحاد
تريد ادائها .

وعلى هذا الاساس ، كما جاء في كلام مسابق بهذا الكتاب ، جاء دولته
في الانقلاب الاخير يستلم الحكم يتربع فيه اليوم ، في الوقت الذي نكتسب
فيه هذه المذكرات - حازما شديدا غنيفا ، ولكن عادلا يمشي الى الامام
دون ان تصده العقبات والصعوبات الكثيرة التي يضعها الكثيرون امامه ،
ويطمئن الناس في جميع الامور السياسية الى تجرده ونزاهته .

وكان قد دعاه الرئيس كميل شمعون لاستلام الحكم من المفوضية
البنانية بعمان حيث كان يقوم بوظيفته الدبلوماسية على أفضل وجه
وبغيرة كاملة جعلت الملك عبدالله - كما يعرف الكثيرون - يدعوه لتترك
المفوضية اللبنانية ولاستلام الحكم في عمان ، وتثبت جلالته في هذه الدعوة
طالبا منه اعتناق الجنسية الاردنية .

واعترض الامير خالد ، ولا سيما وانه كان دوما يعتبر ان عليه نحو لبنان رسالة يؤديها خصوصا في كل مرة تكون الاحزاب تتطاحن وتتنازع وتجد الدولة لا بد من دعواته لاستلام الحكم لينفذ الموقف .

وقد يكون السياسي الوحيد في هذه البلاد الذي لم تغره عظمة السراي فهو كان دائما يدخل للوزارة هادئا ساكنا وديعا ويخرج منها هكذا تماما .

وفي جميع الوظائف التي تألب فيها ، قد لا يكون عمل المدهشات ، ولكنه كان دوما نظيفا ومثالا للنزاهة ، باجمعنا نعرف اولا موقفه تجاه اليهود في حاصبيا ، ورفضه ثروات كبرى كان اليهود يعرضونها عليه شروا ، تنازله عن بعض اراضيه في الجانب الاخر ، ومقابل الكف عن علمية توسعهم في تلك المنطقة .

كما واننا لم ننس موقفه الجازم عندما هاجم الانكليز والديفوليون سوريا ولبنان في ربيع ١٩٤١ ، واستدعا القائد الانكليزي الذي كان يربط مع جيشه على حدود مرجعيون وحاصبيا ، وفتح له صناديقه وقال له ان ياخذ ما يريد على ان يدخل الجيش الانكليزي ولا يعترضه رجاله في تلك المنطقة .

وكان جواب الامير خالد انه سيأمر رجاله باستقبال الجيش بالترحاب ولكنه يدير ظهره لصناديق القائد الكبير ويقول :

— تقواون انكم تأتون بلادنا لمساعدتنا في جهادنا للاستقلال ولم يتعود احد منا نحن الامراء الشهابيين الذين عملوا دوما لاستقلال لبنان ان يساوم هكذا على ذلك الاستقلال .

وهكذا مشى دوما الامير خالد في حياته السياسية على هذه الوتيرة كما وانه كان من اكبر العاملين لليقظة المدهشة التي استيقظها الشهابيون في هذه البلاد وظهورهم القوي في عالم السياسة ، بعد ان كانوا منذ عهد المتصرفين حتى هذه اليقظة الجديدة قد اختفوا عن المسرح الوطني ، مما جعل الناس ينسبون اليهم الخمول والانحطاط والتلاشي مما يكذبونه الان بنشاطهم السياسي .

غبريال يوب يعبر الرزاة الى المفوضية:

وهنا يجب أن نلاحظ ظاهرة الشيء الذي تركز عليه حجة هذا الكتاب ، موجهة الى جميع الذين قاموا على العهد السابق يوم انقلابه الاخير في ايلول ١٩٥٢ ، يتهمون رجاله بكل الرزايا والسراقات والنهب والسلب والمتاجرات - هنا يجب ان نلاحظ ونقول ما قاله المعلم : « من كان بدون خطيئة فليرم هذه الامراة بحجر ! »

وقد كانت تعددت اسباب الثراء من وراء النفوذ الذي كان يصل إليه السياسسيون من رجال الحكومة ونوابها والزعماء الموالين لها - كانت تعددت الاسباب ، وكانت عقليتنا باجمعنا في هذه البلاد - ولا تزال هكذا - نتصور ان الرجل الذي لا يستفيد من المناسبات هو رجل ساذج لا يستحق التقدير ويضحك عليه الناس .

نقول هذا بكل وقاحة ونتحدى المتظاهرين بالفضائل الذين يعرفون الحقيقة جيدا ولا يصرحون بها .

فانما نحن في بلد ، بدلا أن نسلم القاتل البوليس نحميمه ، وبدلا من ان نرذل السارق ، نشترك معه ونعجب بمهارته !

لهذا يمكننا التأكيد ان ليس من صاحب نفوذ في هذه الدولة ، الا واستعمل نفوذه في المناسبات المؤاتية ليستفيد ويقوى مهما كانت الواسطة والسبيل . انما صادف ان بعض السياسسيين تدبروا عمليات مالية مفضوحة صارخة ، اغتنوا من بعدها ، والبعض الاخر تدبر عمليات كتومة ساكتة خجولة اغتنى منها !

ولكن كما حكمت محكمة الجنايات الفرنسية على جان فالجان بطل رواية «البؤساء» ليفكتور هيغو بالحبس المؤبد ، لانه كان جائعا وسرق رغيفا كذلك حكمنا هنا - خصوصا في الانقلاب الأخير - حكمنا بالاحرى

بالفساد والسرقة والاستثمارات فقط على الذين عملوها في وسط الشارع دون تمييز ولا تمحيص ، وشاهدنا القشة في عين هذا البعض جسراً ، وتحاشينا رؤية ذلك الجسر في عيون البعض الآخر .

فانما السياسيون المفسدون المتاجرون والسياسيون الذين لم يتاجروا متشابهون اصلاً : الأولون تاجروا بوقاحة وعلنا والآخرين عرفوا كيف تاجروا بادب ولباقة .

ولا شك ان الاستثمارات والمتاجرات رافقت بطريقة مبالغا بها جدا تطورات الاستقلال ، مما سنتحدث عنه قريبا وبتفاصيله باجمعها مع ذكر جميع الاسماء والمئة حيلة وحيلة لفن الاثراء والسرقات الشرعية وغير الشرعية ، وهو الفن الحديث الذي اتقنه السياسيون وأصدقاؤهم بعض التجار في علم النهب والسلب ، وخلق موارد الرزق وافتتاح كل يوم اميركا جديدة في كل مرفق من مرفق هذه الدولة .

وليس مستغربا أن نعرف ان معظم الرجال الذين مشوا الى الامام في هذه الدولة قبل الاستقلال وبعده ، ليس فقط لم يتركوا بابا للاثراء الا وطرقوه ووسيلة للفنى الا واستعملوها واستفادوا منها ، بل ايضا فتحوا حقول استثمارات جديدة مدهشة امامهم في دوائر الدولة بطريقة نابغة جدا تستوجب اعجابا واحناء رؤوسنا تقديرا !

وهناك شخصيات بلغت القمة بطريقة مدهشة وايضا بفلات من الزمن ، وجعلت الناس يعتبرونها بارزة قوية مجردة نزيهة مخلصة ، ليس لها عيوب ولا متاجرات في نفوذها وزعامتها ، ولكن اتيح لنا والغيرنا من اهل الفهم مرارا ان نسبر غور هذه الشخصيات وندرسها ونطاردها .

وكنا ننتهي دوما بعد ذلك فنظف بالنتيجة التالية القائلة ان السياسيين الذين لم يتاجروا مباشرة بنفوذهم السياسي ، والذين صبغوا انفسهم بلون نراه نزيها جذابا - تاجروا هم ايضا بنفوذهم الى الحد الاقصى ، ولكن بطرق غير مباشرة !

ولم تكن الصيغة النزيهة التي اصطبغوا بها سوى قشرة رقيقة خارجية ، عند ما نحاول في سياق هذا الحديث الزايتها ، لا يبقى تحتها شيء من الفضائل التي توهمها الناس في هؤلاء الجرائمية « الجنتلمان » ! فهي فئة وحيهة كبيرة في السياسة ، لم تأخذ صفقات وأم تغرف من

الخزينة ، ولم تتاجر بالنقد النادر ، ولكنها هي أيضا اثرت واغتنت من وراء السراي والمقام ألوجيه الذي كان لها

ولا نتكلم هنا عن حبيب ابو شهلا مطلقا فهو مثلا في كل عمقريته في القانون ، ومع كل ما لمكتبه للمحاماة من منزلة ، هل يمكننا أن نقول - كما يفعل الاذلاء - أنه لولا رئاسة المجلس التي انتزعها بقوة عارضته من المرشحين الكبار اليها - وهي رئاسة جعلتها التقاليد قبل ذلك للشيعنة - لما صار وكيل «التبلاين» ولما اسلمته الشركة مقاليدها وسياستها المحلية ولما جعلته مستشارها المدني والاجتماعي في هذه البلاد ، ولما عملت برأيه وحرمت الكثيرين من الوطنيين النواب والصحافيين والزعماء في لبنان من القيام بدعاية لها مرفوقة بالدولارات ، ولما كان مكتب ابو شهلا بعد الاستقلال وبعد أن استوى في كل القصور ، يحتكر ثلاثة ارباع قضايا الشركات ، في الوقت الذي فيه محامون كثيرون لا يجدون حتى قضية خاسرة يتوكلون عنها ؟

فهل المعنى في ذلك ايضا ان ابا شهلا استغل نفوذه السياسي ، ولكن بطريقة ليست فضاحة ولا غشاشة ، وجمع ثروة من وراء ذلك ؟

وهل يمكننا ان نقول انها ثروات مشتبه بها ، ثروات اولئك السياسيين الكبار من فرعون لسلام لشيحا للحنة جباية ضريبة الحرب ، الذين لهم هذه الاراضي الواسعة بمئات الالف الامتار على طريق خلدو وعلى طريق الازاعي وفي اعالي الحازمية وغيرها ؟

وهل كان لنفوذهم السياسي وكلمتهم الكبرى في الحكومة فضل في جعل اراضيهم اغلى اراضي بالجمهورية ، وبعد ان كان متر الارض على طريق خلدو او طريق الازاعي يسوى ربع ونصف ليرة ، صار بعشرين وثلاثين ليرة ؟

وبعد أن كان متر الارض في اعالي الحازمية بليرة تضاعف عشر مرات وخمس عشرة مرة ؟

كل هذا كيف جرى ؟

فلو انهم لم يكونوا من زعماء السراي واسيادها ، هل كانت السراي تفتح في اراضيهم جميع هذه البولفارات الوسيعة الفسيحة ، التي لا عداد لها والتي درزت صحاريهم الرملية درزا ؟

وهل كانت السراي تفتح بولفار خلده حيث فتحتة - وحيث كان من اللازم - كما هي الحال في باقي بلدان العالم الواقعة على البحر ان يكون البولفار كورنيسا يحازي الشاطيء رأسا حتى يصل لمطار خلده، مما كان يجعله انفع واجمل ، حيث يمر بأراض لا قيمة لها ولا ثمن .

هكذا يعملون في نيويورك ، وهكذا في الاسكندرية وهكذا في بريتون واستمبول !

ولكن كيف تصبح اراضي الزعماء على طريق خلده عشرة وعشرين مرة اغلى مما كانت ، اذا لم يجعلوا الدولة تفتح لهم بولفار المطار العظيم يتوسط بجلال وجمال منتصف اراضيهم ؟

طبعاً ، ما استبقنا هذا البحث الذي سيأتي شرحه في سياق هذه المذكرات الا لاننا تحدثنا عن الفساد في ايام المفوضين السامين ، ولان المناسبة جعلتنا نتكلم عن الاثراء السياسي ، واردنا بوقائع معروفة من الجميع ، القول ان الاثراء السياسي لم يقتصر على ان الذين يتهمهم الناس علنا ويقولون انهم هم الذين اخذوا الصفقات والقطع النادر والتعهدات المشتبه بها ، وتاجروا علنا بالنفوذ ، بل ان الاثراء السياسي ايضا كان كذلك الامر وبحيل وتديرات وسيعة جدا بالطرق غير المباشرة التي ذكرنا .

فهناك اصحاب ثروات كبرى جمعها السياسيون من وراء نفوذهم السياسي على النحو الذي ذكرنا دون ان يلبسوا لباس الفساد والتاجرات والاستثمارات التي لبسها المليونيون الذين تاجروا علنا بذلك النفوذ ومنهم عدداً الثواب والزعماء العدد الاوفر من التجار المليارين المعروفين .

واذا توجب في المستقبل على اصحاب الثراء السياسي ان يؤدوا حساباً للناس ، فهل يمكننا ان نحاسب الذين اغتنوا من وراء نفوذهم بالدولة بطريقة غير المباشرة التي ذكرنا ، في حين ان بعضهم اغتنى اكثر بكثير من جميع الذين عقدوا الصفقات المفضوحة واخذوا ملايين التقديرات النادر ، ومدوا ايديهم للخزينة وسيطروا على اموال اليانصيب الوطني وبلدية بيروت ، يوم استلمت الدولة صلاحيات الاقتصاد والتموين والاشغال وغيرها .

فانما قد يمكننا ان نقول ايضا ان السياسيين اللبنانيين في ايام الانتداب كانوا يعملون ما عملوه في ايام الاستقلال ، لو كانت يدهم طائلة

ولو كانت المصالح الحكومية التي يمكن الاثراء من ورائها بين ايدي
البنانيين .

ومع ذلك فالفرنسيون في المفاوضات ، حيث كانت المصالح المشتركة
مربوطة ، عملوا الا لازم ، وسبقونا كثيرا في هذا المضمار ، ولم ننس بعهد
اولئك الموظفين الفرنسيين الكبار الذين حملوا لفرنسا ثروات عظيمة جدا
صبها بعضهم ذهباً في صينيّات وصحون واواني سفره ومقاعد وغيرها .

كل هذا سيأتي بحثه عندما نصل لعهد الاستقلال ، ولكننا الان لا نزال
نتكلم عن ذكرياتنا عن زمن الانتداب .

كلنا بالرهوى سوى : « المحرمة المختلطة »

نعود بالقارئ الان لرئاسة اده بعد ان تمددت ، وتألفت السوزارة الائتلافية الاخيرة (في تشرين الاول ١٩٢٨) ، برئاسة الاستاذ عبدالله اليافى الدكتور فى الحقوق ، والذي طلع على السياسة يومئذ بهاء وعزة لم يعرفهما بعد ذلك فى رئاسته للموزارات الاخرى التى جاءت بعد رئاسته الاولى . وقد كان فى وزارته الاولى لم يسترسل بعد لحزبيته ولا لسلطان الشارع والقبضيات ، آذ كانت تحيط به يومئذ شعبية اسلامية راقية متعلمة ، تستبشر فيه الخير والعزة للمسلمين فى دولة مفروضة عليهم من المنتدبين ، وهم يتمنون على الاقل ان يكون لهم فيها سلطان وقوة . ولكن هل يمكننا القول ان كثيرين من رؤساء الوزارات المسلمين جعلوا ابناء دينهم يعترفون لهم انهم جعلوا الاسلام يحكم بالبلد ، او بالاحرى يكون له فى الحكم الشأن الذى لغيره من الطوائف الكبيرة الاخرى ؟

اعتاد الناس ان يقولوا ان المسلمين ماشعروا انهم مشتركون فى الحكم بهذا البلد الا مع رياض الصلح .

ولكن يجب ان يعترفوا ان خير الدين الاحدب ايضا حكم بالبلد . كما وان سامي الصلح حكم وسيحكم ايضا ، دون ان يقول المسلمون عنه كما قالوا عن غيره من رؤساء الوزارات ، انه سكرتير لرئيس الجمهورية المارونية ، وايضا عبدالله اليافى فى وزارته الاولى حكم ، انما على طريقته اذ كان حكمه ليئا ولطيفا ليس فيه جلبه وضجات .

وكان المسلمون عندما استلم اليافى الحكم لم ينسوا العز السذي اقتطعه لنفسه خير الدين الاحدب عندما وصل الى ان يتفرد فى الحكم بالبلاد ، واضعا - بامر لمفوض السامي طبعاً - رئاسة الجمهورية فى بيتها . وكان المسلمون ، بعد ان انتابت خير الدين تلك الايام الهائجة التى اضاع فيها - من وراء عاطفة غرامية جنونية - المكانة التى كان قد

عملها لنفسه عند المنتدبين ، والمكانة التي كان يعملها لطائفته في السراي
والبلد ...

... كان المسلمون يأملون باليافي ، السياسي الفتى الشاب يوم
ذاك ، المثقف المنور المعتز بنفسه ، أن يعيد للطائفة في رئاسة الوزارة ما كان
لها عندما كان خير الدين الأحذب في تلك الرئاسة .

ولا شك ان الاستاذ اليافي عمل وحقق الكثير من هذا الشيء ولكن
بطريقة كتومة ، لم يقتنع بها كثيرا اهل الشارع وزعماء الاحياء .

فانما أظهر حالا انه مرن لدرجة الوداعة ، ونزيه مجرد ومسالمة
هاديء لدرجة الاستضعاف .

وكان الفرنسيون الذين اكتشفوه قبل الجميع كرجل سياسي ،
يأملون منه كثيرا ويؤكدون ان سياسته ستكون متناسقة متجانسة مع
سياستهم ، ومع رغبات المسلمين ايضا ، فكانوا مطمئنين اليه ، ويقولون
انهم سيجدون فيه الزعيم المسلم الذي سيرفع على البسطة الراية
البنانية .

ذلك انه رغم مرور خمس عشر سنة على الحكم الوطني تحسنت
الانتداب ، لم تكن البسطة - حي الوجاهات وزعامات الشباب الاسلامية
في العاصمة اللبنانية - قد رفعت الراية اللبنانية ، ذات الازرة وسط علم
فرنسا ، مرة واحدة حتى ذلك الوقت ، رغم جميع المساعي التي قامت
ورغم سلطان الشيخ محمد الجسر في البداية ، ورغم دكتاتورية خير
الدين الاحذب في السراي بعد ذلك ، فهل يوفق اليافي الى هذا العمل ؟

لقد كان المفوض السامي واثقا من ذلك ، انما انتظر الناس كثيرا وهم
ينظرون من يعيد آلى مرتفعات البسطة ، كيما يشاهدوا الراية اللبنانية
تحقق فوق معالمها !

ولم يكن في أعمال اليافي ووزارته الائتلافية الجديدة شيء واقعي
صريح ، يدل على انه يعمل سياسة الانتداب ، ولكن على قدر ما اظهره
الفرنسيون من مناصرة مباشرة له ، وعلى قدر ما امتدحوا من تجانس
سياسته مع سياستهم ، كل هذا جعل الاوساط الوطنية الاسلامية تعتبر

ان اليافى لا يمكنه ان يكسب الراى العام ، طالما الفرنسيون يصورونه
كما كانوا يفعلون: صديقا وعاملا لهم .

كما وانه فى حكمه المسائل الساكن ، وفى محاولته الحياد عن الحزبية
والطائفية ، لم يحقق ما كان ابناء طائفته يريدونه من ان يرفع كلمة المسلمين
فى السراي ، ويجعلهم يتحكمون فيها كما فعلوا فى عهد الاخذب ، ولا يكون
رئيس وزاراتهم عاملا للفرنسيين ، كما كان دي مارتيل يقول عن رؤساء
الوزارات والجمهورية بأيامه !

ومشت وزارة اليافى بهدوء وسكينة ، مما يتفق مع طبيعته ووزانته ،
ولكن مما لا يتفق مع الدستوريين ، خصوم الرئيس اده ، الذين كان
دايمهم الاول خلق المشاغب والمشاكل فى السراي . وكذلك مما كان لا يوافق
البنانيين باجمعهم الذين عندما لا تكون هناك سياسة مشاكل وروايات فى
الدولة ، يضجرون ويتدمرون .

فانما اليافى فى وزاراته باجمعها ، كان دوما للموقت الذي تكون فيه
الدولة مرتاحة ليس عندها مشاكل كبيرة ، ولا مشاغبات مهتاجة ، ولا صفقات
عظيمة من وراء التلاعب بالملايين .

وانما اليافى متخصص لرئاسة الحكومات عندما تريد السراي ان
يكون البحر هادئا والجو صافيا ، والسياسة فى هدنة .

ولكن عندما تستيقظ المشاغب وتهب العاصفة كان هو يأخذ المبادرة
حالا ويعتزل الحكم . فطبيعة هذا الرجل ليست طبيعة كفاح ولا مغامرات
بل هي طبيعة رجل يعرف اين يجب ان يضع قدمه ، فلا يعرضها لان تنزل
به . وهذا ما جعل بعضهم يعتبره حكيما وسياسيا مترويا اكثر من اللازم .

التوراة باليمين وغصن الزيتون باليسار !

كان المفوض السامي المسيو غبرييل بيو قد خلف الكونت دي مارتل في نهاية ١٩٢٨ .

وكما يكون البحر بعد الليلة الصاخبة الهائجة الجامعة هادئا ساكنا هكذا صار البلد بعد أن وصل المسيو غبرييل بيو الى بيروت .

جاء يزيل ذلك الحكم الفضاح الصاحب المستهتر ، الذي كان رافق عهد دي مارتل باجمعه .

وكما اخرج دي مارتل قصر الصنوبر ، عندما خلف المسيو بونسو عن هدونه وكرامته ، وشق رداء جلاله وسكوته وعمله دارة متهتكة مستهترة مبعثرة - هكذا أرجع المسيو غبرييل بيو حالا بعد وصوله لقصر الصنوبر ، الجلال والهيبة المفروضين فيه ، واحاطه بحجاب من السكون مضيفا عليه حلة من الرصانة والرزانة .

وصل المسيو غبرييل بيو يحمل باليمني الكتاب المقدس ، ويحمل باليسري غصن زيتون .

لا يقدم على شيء ، حتى ولا على الطعام ، قبل ان يقرأ زبوراً من زبور داود ، ولا ينام قبل ان يطلب لنفسه والعالم ليلة سلام وراحة !

فهو « بروستنتي » متكشف زاهد ، يرى الاشياء من وراء التوراة واحترام الدين والنفس . وقد جاء الى بلاد تعيش في فوضى ، لا تحترم شيئاً ، وتستبيح كل شيء .

جاء هذا الرجل يعيش بخوف الله وخوف ضميره ، بين قوم لا يخافون شيئاً ، وبين زمرة من السياسيين الافاكين المتلاعبين الذين بإمكانهم ان يجعلوه يفقد عقله ، قبل ان يعطي حكمه باي شيء كان .

وهذا ما جعل عهد بيو عهدا متريدا ، عهد درس واستقصاء ، ليس فيه اقدم ولا تجديد ، مما كان يوافق فقط سياسة الياقي الساكنة الهادئة ايضا ، ولا يوافق باقي السياسيين الذين يريدونها دوما حامية صاخبة .

وعلى هذه القاعدة رأينا المسيو بيو بعد وصوله ولمسه الحالة القلقة المضطربة في كل مكان ، وبعد اجتماعه بالاستاذ اميل اده الاجتماعات الكافية ، وثبته من انه لا يمكنه - وهو المفوض السامي الهاديء البارد الساكت - التعامل والتعاون بصراحة مع هذا الجبل من النار ، هذا الرئيس الذي لا يهدأ ، والغني جدا في التصورات والتخيلات ، والبتدعات ، والذي من طبيعته الحركة الدائمة والكلمة المتتابعة التي لا تتعب .

وهكذا اخذ المسيو بيو يبتعد ايضا عن اده .

فانما اجتماعاتهما كانت اجتماعات الضدين :

الهدوء والتردد وبطء الفكر والكلمة الساكنة المقلبة وسياسة الانتظار وعدم فتح الأبواب عند بيو .

والنشاط الغريب ، والفكر المتسارع السباق ، والكلمة الفنيقة المزخرقة ، المترادفة المجددة الظريفة ، اكثر الاحيان ، وروح الاقسام والجرأة والمغامرة عند اميل اده .

فكيف يمكن التفاهم والتعاون ؟

ولهذا السبب رأينا المسيو بيو ، بدلا من ان يقلع عن سياسة دي مارتل فيما يختص بالاستاذ اده ، كما كان منتظرا من رجل هو عكس دي مارتل تماما وبكل شيء ، فيعيد لرئيس الجمهورية اللبنانية الكثير من صلاحياته ويخرجه من عزلته في بيته ، ويأتي به الى السراي ، زاد في ابعاده وشجعه ايضا على الزيادة في الاعتزال !

وقد اثبت بيو في المذكرات التي نشرها مؤخرا اشياء كثيرة عن الاستاذ اده في رئاسته للجمهورية اللبنانية ، مما ليس فيها قصيدة تمداح بذلك اللبناني الكبير ، ومما اشتملنا فيه روحا عدائية من المفوض السامي التقني البار نحو رئيس الجمهورية العابت الصاحب .

وفي مذكرات المسيو بيو اقوال وامور كثيرة تثبت بالاحرى تنشيطه

وتشجيعه للرجل الرابع وللدستوريين انصاره في خصوصتهم للاستياد
اميل اده .

وكان كل شيء في جهاز الدولة لا يجد عند المسيو بيو تحبيذا ولا
تشجيعا . وكان يعتبر ان الاستقرار الذي تتطلبه كل دولة في ادارتها
ومصالحها لا وجود له في الجمهورية بلبنان ، فانما لم يكن هناك شيء ثابت
معروف في الوزارات او في النيابات يجعل ذلك الشيء يدوم اذا هزته
العاصفة مهما كانت خفيفة .

وكان بيو يؤكد بهذا الصدد ان عدم الاستقرار في مرافق واوضاع
الدولة باجمعها متأ من عدم استقرار السياسيين على مبادئ عملية
معلومة ، وعلى قواعد وطنية صادقة .

ولم يكن يجد من اساس متين للأحزاب وللأفراد يمكنه اذا استندوا
عليه ان لا ينهار .

انما المسيو بيو على كل حال ، ومع إيمانه بعدم الاستقرار عند
الجانبين السياسيين الاكبرين : جماعة اده ، وجماعة بشاره الخوري ، انما
كان يجد عند بشاره الخوري وصحبه برنامجا حزبيا محددا معيناً ، قد
يكون ارسخ من النزعات الحزبية المختلفة ، التي عند الأديين .

وكان بطبيعة تربيته واخلاقه يحب ويفضل الرجال الجديين
الرصينين على غيرهم .

ولم يكن بروتستنتيا متقسفا متصوفا عن عبث ، اذ ان البروتستنت
المتقسفين المتصوفين يشبهون الاجاويد الدروز ، يأنفون من كل خفة وكل
قول مرح هزالي ، وكل عمل لا تكتنفه الاداب والحشمة والكلام الرصين
والفكر الصافي المرتاح .

وهكذا كان من الطبيعي ان لا يضع بيو الرئيس اده ذاً النفس الثائرة
على طول ، وخير الدين الاحدب الذي اضاعته هوائه اعاطفية ولا الميكيفيل
البناني الاستاذ حبيب ابو شهلا ، في صدر الواجهة .

وكان ابو شهلا منذ اعتناقه السياسة قد اقتطعه لنفسه في قصر
الصنوبر عند بونسو ودي مارتل قبل المسيو بيو وعند المفوضين السامين
الذين جاؤوا بعدهما .

وكان ان المسيو بيو غبريل بيو تجانس طبعا مع عبدالله الميافي

ومع وزارته ، وتجانس بالاحرى مع الوزير الاستاذ حميد فرنجيه . وقد
توافقت رصانة هذا الاخير وحياته السياسية الجديدة المستقيمة مع رصانة
المفوض السامي الجديد واسلوبه السياسي الواقعي .

وكان المعروف عن حميد فرنجيه انه رجل عنيد مستقل بنفسه ،
هو وحده بين الزعماء السياسيين في هذه البلاد لم يتنازل ، ولا مرة ، عن
شخصيته السياسية يعيها او يجعلها ملكا لغيره ، او للمفوضين السامين
مثلا قبل الاستقلال ، او لرئاسة الجمهورية بعد الاستقلال . كان دوما
- ولم يزل - يعتبر نفسه دولة لوحده تتعاون مع الدولة اللبنانية لمجد
لبنان فقط وليس لخدمة رجال في السراي ، يساعده في ذلك شعبية
كبرى في منطقته بالشمال ، تركها له والده ، وعرف كيف يحافظ عليها
وتساعده خصوصا بلدته زغرتا البطاشة في شدة بأسها ، وفي رجوليتها
وفي مغامراتها ، التي جعلتها الحصن الماروني الاقوى ، تشرف على الساحل
الاسلامي غير هيابة ولا خائفة ، لها عند الطرابلسيين الاشداء والاقوياء دوما
حساب وتقدير ، تخطب ودهم ويخطبون ودها ، تصادقهم ويصادقونها ،
على طريقة مصادقة القوي الاقوياء ، والاقوياء للقوي !

وهكذا كان حميد فرنجيه قويا بنفسه ، تساعده بذلك وقبل كل
شيء زغرتا الحرجية الواقفة دوما تحت السلاح ، مما يجعل ايضا
لكلمته مكانة عالية ومسموعة .

وجاء يومئذ في اخر عهد دي مارتل للوزارة الائتلافية ، يشترك فيها
عن الدستوريين ، واذا ليس فقط ليصبح حليفا او عدوا لرئيس الجمهورية
الاستاذ اميل اده كما كان فعل الوزراء الدستوريين الذين جاؤوا قبله ، بل
ليكون مستقلا عن الجانبين متحررا من هذا الجانب ومن ذلك الجانب ، لا
يريد ان يعرف غير الخدمة المجردة كما يفهمها هو في عناده وتشبثه بارائه .

وهذا ما اعجب بالاكتر المسيو بيو فيه ومما قربه للمفوضية السامية
الجديدة كثيرا ، ومما جعل المفوض السامي في كل مرة تكون هناك مشكلة
عويصة يستشير بها ويسمع كلمته فيها .

وكان من الطبيعي ايضا ان يجد الرجل الرابع عند المسيو بيو حظوة
ومكانة خاصة ، طالما ان الاستاذ اميل اده لم يجدها عند جنبابه .

فانما كان مفروضا ايضا ان يكون المفوض السامي ، مهما كان متعاليا

ومتحايدا ، كما كان المسيو غبرييل بيو - فانما كان مفروضا ان يكون كما هم جميع السياسيين بالبلد . او مع الاستاذ اميل اده او مع الاستاذ بشاره الخوري .

ولكن الى اي حد كان يمكن للدستوريين التعاون في حكومة الائتلاف الاخيرة مع الاديين ؟

طبعا الى الوقت انذي يكونون قد اخذوا فيه هدنة لانفسهم . وهذا كان يصادفهم بعض الاحيان ، مع كل ما كان عندهم من نشاط واحقاد على الاستاذ اده ورئاسته ، ومع عدم اغتفارهم له تمديد تلك الرئاسة - وهكذا بالرغم عن الائتلافات العديدة التي جرت .

وكانوا يظهرن بعض الاحيان سيئي النية ودجالين ومشاغبين ، ولكنهم لم يكونوا حتى ذلك الوقت ولا مرة سدجا وبسيطين !

لذلك اغتتموا مناسبة ما عرفوه من حذر وتباعد عند المفوض السامي الجديد عن الاستاذ اده - وهم دوما اثبتوا مقدرة في اغتنام المناسبات - واخذوا يتآرون عن جديد على التمديد ، ويعملون عند المفوض السامي لالغائه وتجاه الحملة التي قامت بهذا المعنى ، جمسع الاستاذ اده نواب حزب الاتحاديين الذي يرأسه حبيب ابو شهلا بقوة وجبروت وتفشير ، وخرق هؤلاء الائتلاف ، وجعلوا بقاء الوزيرين الدستوريين في الحكومة صعبا جدا ، مما اسقط وزارة اليافي الائتلافية (في ايلول ١٩٣٩) ، ومما جعله يؤلف وزارة حزبية - ادية ، يكون ابو شهلا من اركانها الاولين .

ولم يكن ، لا المفوض السامي ولا الاستاذ اليافي ، ينظران في روحهما المسالمة وحبهما للنظام والوثام نظرة اطمئنان لهذه الوزارة الحزبية التي لا بد للدستوريين ان يخاصموها بعناد اشد واكثر عنفا ويخلقوا لها المشاكل والصعوبات ، لا سيما ولم يعد هناك اي مانع عند الدستوريين - طالما انهم خرجوا من السراي - ان يعلنوا ما كانوا تدبروه من تأمر على الرئاسة الممددة التي جعلوها هدفا لجميع حملاتهم ومعارضاتهم ، يطلبون ويستهدفون الغائها وارسال صاحبها الى بيته .

وهكذا استقبلت الوزارة الحزبية الجديدة من جهة اعلان الدستوريين علنا وصراحة الحرب عليها ، ومن جهة ثانية ثورة الكتائب اللبنانية على الاوضاع وسياسة الحكومة وطفغان الشركات في البلاد .

مالك صامب الا بعد قتال

وكانت الكتائب اللبنانية في ذلك الوقت في ابهى ايامها ، وكانت قد خرجت من عصيانها على الدولة واضراها على شركة الكهرباء ظافرة ووجدت عند الانعزاليين اللبنانيين وعند الفرنسيين تعاوناً وتحبيذاً ، اعتباراً انها مؤسسة لبنانية محضة ، تغالط وتخالف طلاب الوحدة ، طلاب الاتصال بسوريا الان ، وبعد ذلك بالحلف العربي في المستقبل .

وكانت الكتائب قد تشكلت سنة ١٩٣٧ على اثر تنظيم قوي للنجادة تحت شارة الاسلام والعروبة ، فكان كما هي العادة هنا ، انه اصبح من الواجب قيام منظمة اخرى تحت شارة لبنان والمارونية ، لا سيما والنجادة كانت لا تخفي انها تعتبر التسوية اللبنانية التي فرضها الفرنسيون تسوية مؤقتة وتريد ان تصبح جميع السواحل التي انضمت الى جبل لبنان عند اعلان لبنان الكبير ، والتي اكثريتها اسلامية جزءاً من سوريا ، ومن الامبراطورية العربية بعد ذلك . فانما امل الامبراطورية العربية لم يكن قد ضعف في ذلك الوقت بالضعف الذي هو فيه اليوم .

وهكذا على قدر ما كانت النجادة عربية ، على قدر ما جعلت الكتائب نفسها انعزالية .

ومنذ ذلك الحين الى اليوم ، مشى لبنان الجديد كثيراً الى الامام ، وتطورت الحال مع الكتائب حتى وصلت الى ان ترمي اليوم الكثير من ثوبها الطائفي الذي كانت تلبسه في ذلك الحين ، وانقلبت اخيراً حزبا سياسيا قوميا بعد ان اصبح المسلمون لبنانيين بلبنان ، باعجوبة ذلك الاستقلال وتقديراً له ، وكذلك بعد التسوية اللبنانية الدولية المعنوية التي نشعر باجمعتها ، ونعرف ان وراء لبنان قوات دولية ايضا غير قوات اهلها تحافظ على كيانها ، وتريده كما هو الان .

قلنا ، واستقبلت الوزارة اللبنانية الحزبية الجديدة اعلان الدستورين

جديدا الحرب عليها بقوة وشدة ، وقامت الكتائب بحركات استفزازية ضد الشركات وجشعها ، واخصها شركة الترامواي ، وضد الحكومة والمفوضية اللتين تشجعان ايضا هذه الشركة ، مما خلق تكانفا غير مقصود بين الكتائب والدستوريين .

واراد الاستاذ حبيب ابو شهلا وزير الداخلية في الحكومة الحزبية الجديدة ، ورئيس حزب الاتحاديين ، الاكثرية بالمجلس ، ان يثبت جراته وقوته ، فطارد الكتائب اثناء تظاهرات عدائية كانت تقوم بها ، وتعاونت القوات اللبنانية مع مديرية الاما العام الفرنسي ، وفرقة سينغالية من الجيش ، واشتبك الفريقان اشتباكا قويا في وسط محللة الجميزة ، اقلق راحة المسيو بيو المسالم الهاديء ، فخرج عن اعتكافه وكان ذلك في يوم احد وهو اعتكاف كان يقضيه في الصلاة ، مكرسا كل يومه لعائلته ، واخذ يصلح الامر بيده ، مما جعل حركة الكتائب تهدأ وتسكن ، بعد ان كادت تنقلب الى اصطدامات طائفية خطيرة .

بيو يبرير نعتيب ملك او امير على لبنان

ومن جراء حركات الكتاب قامت بعد ذلك فوضى طائفية وقومية في بيروت وطرابلس وبعض المناطق ، تعذر على الحكومة ، معانجتها ، مما جعل المفوض السامي يعطي المستشارين الفرنسيين صلاحيات كبيرة جدا بالغوا في تطبيقها ، خصوصا في منطقة الجنوب .

وكان المفوض السامي أصلا واساسا يعتبر - خصوصا بعد ان درس الاوضاع في لبنان - أن النظام القائم ليس النظام الذي يتطلبه هذا البلد والذي يوافق .

وكان في خلواته مرارا عديدة مع السياسيين الذين كان يتصل بهم ، يداي اليهم برأيه بنظام ملكي يقوم بلبنان ، يرتاح اليه الاهلون ، ويخلق لهذه الدولة استقرارا تركز عليه نهائيا .

كان المسيو بيو - كما ذكره في مذكراته - يقول ان التجارب خلال هذا النظام الجمهوري الذي فرضته فرنسا على اللبنانيين يجب ان تكون علمت هؤلاء ان النظام النيابي يجعل بلادهم دوما في فوضى سياسية ، مما يزعزع اركانه واطرافه ، وقد عاش جبل لبنان في عهد المتصرفين سبعين سنة في نظام قريب من النظام الملكي ، وكانت جميع الدول تحسده عليه ، فلماذا لا يعود لذلك النظام ؟

لماذا لا يرجع لثل تلك الاوضاع ، فيقوم فيه مجلس ادارة له صلاحيات استشارية تشريعية كما كان الحال في لبنان القديم ويكون المجلس طويل الامد ، قليل العدد ، ويكون على رأس الدولة ما نسميه اميرا او ملكا ، بدلا ممن كنا نسميه متصرفا ؟

ويقترح المسيو بيو ان يعلن لبنان نفسه امارا او مملكة على هذا الاساس ، ويأتي بامير ، يجب ان يكون على الارجح من الامراء الاسوجيين ينادي به اميرا او ملكا ، يرث ابناؤه العرش من بعده !

وكان يقول ان الامير او الملك يجب ان يكون مسيحيا ليبقى لبسان
لابسا الحلة الطائفية التي جعلته مستقل وينفصل عن باقي المناطق
المجاورة الاخرى .

كما وانه يجب ان يكون الامير بروتستنتيا ، ليس لان المسيو بيو
مقترح هذا النظام بروتستنتي ، بل لان الملك او الامير البروتستنتي هنا
يستطيع ان يوفق بين الطوائف الكبرى بالبلاد ، فلا يكون من واحدة منهما
لا يمكن ان يجعله الحاكم النصف العادل ، ومما يجعل طائفته تتطلب منه
اكثر مما لها ، وهو لا يستطيع دوما مخالفتها !

الجنوب الذي كنا لا نعرفه كثيرا

قلنا ، ضاعف المفوض السامي صلاحيات المستشارين واخصهم
مستشار الجنوب ، وكان يومذاك الكونت بتشكوف : رجل حازم قوي مخيف
من أصل روسي . - حفيد الكاتب المشهور ليون تولستوي ، يجب أن يكون
قد لجأ الى فرنسا عن صغر ، وتطوع في جيشها ، وصار من ضباطها
البارزين .

وكنا نعرف عن الجنوب في جبل عامل أشياء قليلة جدا ، أهمها مكارم
النائب يوسف بك الزين ، ولوائمه واستقبالته للمفوض السامي من وقت
لاخر ، تلك اللوائم والاستقبالات السخية جدا والتي كانت تجمع السوف
الناس .

وكنا نعرف ان يوسف بك الزين يزرع التبغ ويربح مئات الالوف منه
ويتحدى آل الاسعد وآل الفضل وآل العبدالله وآل عسيران بنفوذهم وبماله
وكنا نعرف علي نصرت بك الاسعد ، احد افراد تلك العائلة الزعيمة
الكبرى ، وذلك عندما جاء متصرفا لجبل لبنان ، وكان رجلا طيبا مهزورا ،
يحب الحياة والجاه ، ولا يحب الطائفية . وهو الذي انتهر صديقه حاكم
« بيبلوس » في ذلك الزمان ، الشيخ وديع حبيش الذي كان قد اشتهر
بظرافته وضخامة جسمه وكبر بطنه ولطافة حديثه - قلنا انتهره علي
نصرت بك عندما جاءت مناسبة اظهر فيها الشيخ وديع حبيش قصدا ،
ولاثارة غضب المتصرف ، نزع مارونية طائفية ، فقال له علي نصرت بك بكلامه
الخليط من التركي والعربي ، كما يجري بعض الاحيان مع سامي بك
الصلح - قال له : يا شيخ وديع افندي طائفية يوق جانم ، واذ كنت تتكلم
بالطائفية فاني اعزلك !

ولما كان الشيخ وديع حبيش يحب وظيفته اكثر من اللازم ، وكان
يجد فيها اولا القوة التي يريد ، والمتاجرات التي لا يمكنه ان يستغني عنها

ليعيش كشيخ من آل حبيش ، وليس كعتال على الميناء . ولما كان يجب
الوظيفة جدا ، قال لعلي نصرت بك متمشيا على رأيه :

— افندم ، طائفية يوق ، متصرف حضر تلري !

وكنا نعرف من الجنوب انائب المحترم السيد نجيب عسيران الذي
كان مشهورا عندنا بثروته الذهبية وبدمائة اخلاقه وبصداقته الدائمة
للفرنسيين ، وهي صداقة كان يشجبها ابن اخيه كثيرا ، الفتى الالمسي
الناشيء ، العنيد في وطنيته العربية عادل بك عسيران .

وغير ذلك لا شيء . . . غير نواب من الجنوب كانوا يأتون ويذهبون
ولا نسمع عن عبقريتهم كثيرا !

ولم يكن احمد بك الاسعد قد ظهر في العالم السياسي بالطريقة
المنظورة التي ظهر فيها .

لقد كنا نراه من حين لآخر في سراي البرج يرافق والده عبد اللطيف
بك الاسعد ، ساكتا محتشما ، ولكن خافض الرأس ، ورافع الشاربين ،
يترك لوالده كل الكلام ، ويقف الى جانب موافقا محبذا .

وكان الجنوب الشيعي حتى ذلك الحين ، يعيش في كنف السني
البيروتي والصيداوي ، بمثابة النسيب الفقير الواجب حمايته ، ولم تكن الاسر
الجنوبية الشيعية الكبيرة قد استوطنت بيروت بعد ، حيث كانت
ارستقراطي الاسلام تسيطر وتزعم ، ولم تكن في ذلك الوقت هجرة اهالي
الجنوب الفقراء لبيروت ، تشابه هجرة اهالي الجبال الفقراء لاميركا .

ولم يكن هؤلاء المهاجرون من الجنوب لبيروت جشعين طماعين
فانهم اكتفوا دوما بان اتخذوا لهم بالمدينة مهنا متواضعة تتفق مع الجهل
الشديد والفقير المدقع ، اللذين كانا يسيطران عليهم . وعلى هذا كانوا
يكتفون بالشيء اليسير ، ويقبلون ارستقراطية السنيين عليهم قبولهم لما
كتب الله لهم .

ولم يكن زعمائهم حتى ذلك الوقت قد اقتطعوا لانفسهم مكانة قوية
في هذه الدولة ، جعلتهم — كما جرى الامر بعد ذلك — يدخلون في حياة
البلاد العامة بشركة واقعية فعالة .

ولم يكن جبل عامل بنظر السلطات يمثل الشيعة في السراي والمجلس

والمفوضية، بل كانت تمثلهم بالاحرى بعلبك بابراهيم حيدر، واهرميل بصبري حماده، والتذين كانا يقولان ويتكلمان عن الشيعة في جميع الاقطار اللبنانية، اذ لم يكن لجبل عامل في بيروت زعماء معروفون اقوياء، تشرکهم المفوضية والحكومة في مسؤوليات الحكم والسياسة!

وكان منصب الشيعة في الوزارة ينتقل اكثر الاحيان، حتى ذلك الوقت، بين ابراهيم حيدر وبين صبري حماده، اذ لم يكن السيد احمد الحسيني سبقهما اليه. وكان اكثر الاحيان يشغل ذلك المنصب نظرا لنسبه الشريف ونظرا لتأييد بكر كي له في كل وقت، معتبرة اياه ابنها المحبوب مما جعله قويا يستقبل من الوزارة عندما يريد، عاملا لنفسه دعاية كبيرة وجدها الناس جميلة جدا في استقالته الاولى، اذ انه كان اول سياسي لبناني يترك الوزارة من تلقاء نفسه ولا يستقتل لاجلها.

وكان ابراهيم حيدر عميد عائلته الكبرى القوية بعلبك صاحب نفوذ وقوة بالدولة يتمتع دوما بصدأقة المفوضين السامين ورعايتهم. وكان صبري حماده حفيد محمد سعيد باشا حماده، زعيم العشائر في الهرمل قد انشق على اخوانه انجال الباشا، وزآحمهم على تمثيل العائلة الحمادية في الدولة، ونجح في ذلك.

والم يكن اتى الوقت بعد الذي وصل فيه صبري حماده لان يقتسم مع احمد بك حصة الاسد التي صارت للشيعة بعد ذلك عندما ظهر فجأة على المسرح الرجل الرابع الذي لم يكن منتظرا.

ظهر احمد الاسعد يواكبه حشد عظيم من اهل جبل عامل، الذين كانوا قد صادقوه وتطوعوا لخدمته بعد ان اكتسب صداقتهم وتأييدهم في اختلاطه بهم، وتقريبه منهم وتنظيم صفوفهم، والقيام بالخدمات المستطاعة لهم. وما هي شهور حتى بدأ جبل عامل يحتل بيروت وتضاعفت هجرته كثيرا للمدينة منذ ذلك الوقت وتتابع حتى اصبحنا الان نجسد في كل ثلاثة من سكان المدينة شيعيا واحدا والثاني جبليا والثالث بيروتيا قديما.

ووجد الفرنسيون عند احتلالهم البلاد جبل عامل متمردا عليهم وقد بايع فيصّل في الشام بالملك، ونظم شبابه ثورة دامية وعصابات يؤيدها العلماء واشتهر في قيادتها ادهم وصادق، وشن عليهما الفرنسيون حربا ضروس، وقاسوا الامرين حتى سيطروا أخيرا عليها ورفعوا رايتهم على جبل عامل.

كان الشيعة في الجنوب يطيعون دوما زعماءهم . وكان آل الاسعد يمثلهم المرحوم كامل بك الاسعد في الطيبة فمد الفرنسيون يدهم اليه ، ومدها هو اليهم ، واوعز الى ابناء الجنوب بالسكوت فسكتوا وسكنوا ، وارضى الفرنسيين بتلك المآدب الفخمة التي كان يقيمها في الطيبة وعدائون لمثلي فرنسا ، ويجمع فيها عشرات الالوف من ابناء الجنوب يحملون البيارق ويدقون الطبل ، ويهتفون لفرنسا حسب اوامر البيك !

ولما مات كامل بك آلت الزعامة الى اخيه عبد اللطيف بك الاسعد ، فتبناه الفرنسيون حالا وساعدوه ، ولكنه كان غير مستعد لتحمل الاعباء الشعبية الثقيلة ، ومنها متاعب مالية كثيرة ، وعادات خاصة به ، مما اضعف كثيرا سلطان آل الاسعد على الشيعة ، فضعف تأييد الفرنسيين لهم ، وراحوا يبحثون عن سند جديد ووجدوه في يوسف بك الزين .

وكان الفرنسيون قد اعتمدوا في صيدا المرحوم نجيب بك عسيران لانه رجل آدمي ، لا يخالف لهم رأيهم . واعتمدوا في النبطية آل الفضل للسبب نفسه . ولكن لا عسيران ولا الفضل كانا يملكان النفوذ الشعبي على جبل عامل ، الذي احتاج اليه الفرنسيون ، لكي يسيطروا عليه بشمن رخيص وباهون سبب .

وكان آل الزين منذ القديم يتقدمون لمزاحمة آل الاسعد ، ولع منهم يوسف بك الزين ، فسارع الفرنسيون امام ضعف آل الاسعد الى تقويته واطلقوا يده في الجنوب عدة سنوات . والمدهش انه لما قوي يوسف بك الزين ، اصبح عبد اللطيف بك الاسعد وطنيا استقلاليا ، وراح يطالب بالوحدة السورية .

ولما اشتد ساعد يوسف بك الزين اكثر من اللازم ، تخلى عنه الفرنسيون وعادوا يشدون ازر سواه في الجنوب .

وفي جميع الحالات كان نفوذ زعماء الجنوب محصورا في الجنوب ، وكان الشرط الذي وضعه الفرنسيون عليهم مقابل مناصرتهم لهم ، ان يسلموا زمام امورهم في بيروت للمفوضية ، فينفذون اوامرها على العمياء . وهذا ما كان نواب الجنوب يفعلونه دون صعوبة شديدة !

تلك كانت حالة الجنوب في عهد الانتداب . وفي وسط هذه الاوضاع

كان شخصان يبرزان : عادل بك عسيران ، واحمد بك الاسعد . كان الاول قد بدأ منذ سنة ١٩٣٥ ينظم حوله كتلة من الشباب تقول بكل ما يزعم فرنسا ويؤذيها ، بينما كان الثاني قد بدأ يرث امجاد عمه كامل بك (الذي تزوج كريمته) ويحاول ان ينهض بالعبء الثقيل الذي خلفه له والده عبد اللطيف ، ولكن بدون نجاح صاعق ولا ذكاء مدهش ، وانما مع أخلاق رضية سلسلة ، الى ان مد الفرنسيون يدهم اليه ، ودفعوه الى الامام .

كانت السياسة تقول دواما : « الباب الخاص ، كثيرا ما يقبله حادث مفاجيء الى باب عام » .

وعندما غضب المستشار الفرنسي في صيدا ، الكبتن بتشكوف ، سنة ١٩٣٦ ، على يوسف بك الزين ، النائب الذي كان اول من دشّن الانتخابات في لبنان باكياس من الذهب - عندما غضب المستشار على يوسف بك الزين ، وذلك لما أخذه من سيطرة في منطقته ، ولما اعطاه الاستاذ اده صديقه يومئذ من سلطان ، ولما اخذ يظهره من تمرد بوجه ذاك المستشار نفسه ، اخذ هذا الاخير يفتش عن الرجل الذي يمكنه ان يضع يوسف بك الزين على الرف .

وعثر علي احمد بك الاسعد ، سليل بيت كبير ورجل جرىء مقدم ، فانزله لميدان السياسة ، تحيط به هالة باهرة من اضواء عمه كامل بك الاسعد .

ودخل احمد الاسعد المعترك السياسي ، من ورائه المستشار القوي النافذ ، والدكاتور في الجنوب يفرض على الناس مرشحه الجديد .

كما وان هذا المرشح الجديد - عرف ايضا - ودون ان يكون ذلك منتظرا - ان يستفيد من المناسبة ومن مكانة عائلته في البلاد وان يفرض نفسه بجرأة وشجاعة كاملتين .

وهكذا اشاهدناه ذات صباح يدخل بيروت ، كما كان دخلها الامير مجيد ارسلان قبله ، دخول الفاتح الطماع ، تحيط به جمهرة من اهل السيف والخنجر تأتمر بامرهم وتقول قواله وتعمل ما يريد .

ومشى احمد الاسعد بخطوات سريعة نحو المعالي ، تؤيده المفوضة ورئاسة الجمهورية ، وقد اعتنى بسياسته الوصلية حالا منذ هبط

للعاصمة ، بالانتساب اليهما ، وبإظهار تأييده لهما والتعاون معهما تعاوناً
وعد أن لا يكون فيه شيء من التقلب والتردد .

وفي هذا الوقت ذاته ، كانت هجرة أبناء جبل عامل الى بيروت - بعد
أفريقيا - قد أخذت تشتد ، وتكاثرت عددهم في العاصمة ، وهكذا أخذ
جبل عامل الشيعي يأخذ في العاصمة المكانة التي كانت بعلبك والهرمل
الشيعيتين قد احتلتها حتى ذلك الحين .

وأخذ نجم زعماء الشيعيين الجنوبيين يتألق في بيروت . وكان كاظم
الأخيل قد أثبت وجوده ونفوذه أيضاً في كثير من الظروف وفي نشاطه
السياسي وزعامته في صور ونيابته الجديدة .

وكان رشيد بيضون قد بدأ يلعب الدور التقدمي الذي أراد به
تحرير الشيعة من الجهل ومن الاستعباد والأبعاد ، وهو دور رفع به الى
مستوى كبار المصلحين في هذا الشرق .

وكان من وراء هذا الطغيان الشيعي على المدينة وفي السراي ، أن
استقل الشيعة عن السنة سياسياً وأخذوا منذ ذلك الحين يؤلفون قوة
كبرى تمكنوا من ورائها حتى الآن أن يعملوا كياناً لانفسهم .

ولا شك أن القوة الشيعية هي التي كان لها الفضل الأعم في تركيز
الكيان اللبناني بعد جلاء الفرنسيين ، وهو كيان كان الفرنسيون - مخافة
عليه - يفرضونه فرضاً على المسلمين من الطائفتين ، الذين يؤلفون تقريباً
نصف أهالي هذه البلاد ، والذين كانوا إذا ما سكتوا عن قيام لبنان ، فهم
لم يعترفوا ولا مرة أنه نهاية المطاف والوطن الأخير لهم .

وهنا يجب أن نعترف للاستاذ أميل أده بأنه كان البادئ في هذه
السياسة الشيعية اللبنانية التي جمعت حوله في المجلس النيابي الزعماء
الشيعيين من الجنوب وبعلمك باجمعهم ، ما عدا صبري بك حماده
الدستوري . وساعده الفرنسيون في استجلاب الشيعة ، اعتباراً منهم
أن السنين لا يمكن اكتسابهم فعلاً وواقعياً لقضية لبنانية محضّة
منفصلة عن الداخل .

وهكذا كان الاستاذ أميل أده ، ولكن الشيخ بشاره ، والحق ، كان
الناهي ، وشكلت سياسته الشعبية الضمانة المحلية الرئيسية للكيان اللبناني
الحالي .

بيوت من زجاج تراشوا بالحجارة

وفي اثناء ذلك (سنة ١٩٣٩) سافر رئيس الجمهورية اميل اده لباريس مستشفيا - على ما قيل يومئذ - ولكن بالحقيقة مستدركا الخطر الذي أخذ يتزايد على تمديد رئاسته ، من وراء حملات الدستوريين عليه وعليها ، بعد ان اعلنوا ان رئيسهم ، يرافقه الاستاذ سليم تقلا ، على موعد مع وزير الخارجية الفرنسية بباريس .

وكان السفر لباريس في ايام الانتداب مثل السفر لاستنبول قبله .

فكما كان الباب العالي مرجعنا الاخير نشكو اليه امورنا وظلامتنا سابقا اصحنا بعد الانتداب نشكو للوزارة الفرنسية الخارجية التي كان يرجع امر المفوضية السامية لها .

وقيل يومئذ ان المسيو بيو الساكن الهاديء - ولكن مثل الميساه الراكدة - هو الذي شجع زعيم الدستوريين المذهب لباريس .

وعندما عرف الاستاذ اده بالشيء شد الرحال وسبق خصمه الى عاصمة الفرنسيين .

وقيل يومئذ ان الشيخ بشاره الخوري استطاع ان يستحصل من البطريرك الماروني ، الذي كان قد عاد لمحبة فرنسا ، عودة الابن الشاطر بعد ذلك الخروج الذي خرج على الفرنسيين في مهرجان بكركي السوري اللبناني - استطاع الشيخ بشاره ان يستحصل من البطريرك على كتاب لوزارة الخارجية ، يؤيد فيه باسم بكركي - صديقه الفرنسيين الدائمة - شكوى الدستوريين ، ويطلب الغاء التمديد للرئاسة .

وانتقلت هكذا المشادة السياسية وفروعها بين الرجلين الكبيرين من بيروت لباريس ، حيث اخذت الاندية السياسية والجراند الفرنسية جانب هذا او جانب ذلك من السياسيين اللبنانيين الكبيرين .

واخذ انصار الفريقين في بيروت يتراهمان على الجوادين السابقين
وايهما سيكون الفائز في هذا السباق ، الذي يثيرانه في عاصمة الانتداب ،
تساهم في هذا الرهان ، بطريقة صاخبة متحدية الجريدتان الفرنسييتان
بيروت «الاوريان» و«اللاجور» الاولى اناطقة بلسان الاستاذ اده ،
والثانية الناطقة بلسان الشيخ بشارة اخوري .

واخذ الناس يتطلعون الى الافق البعيد ليروا ايا من الفارسيين
سيأتي من وراء البحار حاملا الراية .

تماما مثلما جاء في الاساطير عن الاختين الشريفتين الانكليزيتين حنة ومارتا
دي لانكشاير وكانتا قد وقعتا في غرام فارس جميل ذهب بالحرب ، فاخذتا
تنتظرانه الايام والليالي على شرفة قصرهما ، على ان يكون زوجا للتي
تشاهده قبل اختها آتيا من بعيد .

وقيل يومئذ ان معية الاستاذ اميل اده حملت مبلغا كبيرا من المال
للقيام بالدعاية اللازمة هناك ، وكانت الرحلة من بيروت لباريس في سكة
حديد الشرق ، وكانت سيدة ظريفة في نادي بيروت تقول في ذلك المساء
وهي تذكر المشاق التي قد يكون المسافرون الكبار يعانونها في هذه السفارة
بالسكة الحديد - كانت تقول :

- يجب ان نتخيل الوزيرين ورجال الحاشية في عربة القطار
يتقاسمون المال ولا يتقاتلون .
هذا اذا كانوا حكماء .

فانما الذي يركب الحمار ، لا يجب ان يسأل عن شكوى وتذمر
ومسبات الذي يقود الحمار !

وبالمناسبة نأخذ شيئا بهذا المعنى عن تقرير رفعته مصلحة
الاستعلامات بالمفوضية في اواخر عهد اميل اده عن مشادة حصلت بين
بعض كبار النواب الاديين يومئذ .

وفي هذا التقرير صورة بشعة جدا عن المتاجرات والاستثمارات
والفساد ايضا في ذلك المجلس .

هل نسمي النواب الذين كانت المشادة قائمة بينهما ؟

كان المسيو بيو يومئذ قد اوقف الدستور في سوريا وطلب من
الاتاسي استقالته .

واوطبعا ، شاع في لبنان بعد ذلك - وعن حق - انهما جرى في
دمشق لا بد ان يجري في لبنان .

وقد كان هناك في الجو ما يؤكد قرب وقوع هذا الحدث الحزين جدا
على النواب واحكام في بيروت .

ولا عجب في ذلك ، فليس حديث الفساد واقتسام اموال الدولة
والاستثمارات المشبوهة والمتاجرات بانفوذ السياسي والحكومي محصورا
فقط بالعهد الاخير ، عهد بشاره الخوري الذي يسميه اليوم - وحتى اكثر
الذين استفادوا منه - بالعهد البائد او عهد الرجعيين - بل هو حديث
قديم جدا ، قد يرجع الى عهد الامير بشير واثنوخيين .

وما قاله الاديون بعد ذلك في عهد بشاره الخوري ، كذلك كان
الدستوريون يقولونه عن عهد اميل اده .

ولم يفلت واحد من التهمة بالفساد والاستغلال فالذين هم خارج
السراي يحاربون دوما الذين باسراي .

والذين داخل السراي يجربون دوما تسويد صحيفة الذين هم
بخارجها .

وكان النواب - على اثر شائعة حل مجلسهم قريبا - قد اخذوا
يترددون يوميا على المجلس والسراي متسائلين اي متى النهاية .

او من حديث حديث كانوا دوما يصلون للجدال والتناقش واخيرا
للقتل فيتهم كل منهم الاخر بالعاطل والفاقد مما كان يدعو المفوضية
لزيادة الازدراء بالمجلس والتفكير بوجوب سرعة حله ، اعتبارا انه في الازمة
الدولية القائمة ، وفي اتخاذ بيروت مركزا لقيادة جيوش الحلفاء بالشرق
من الواجب التخلص من مجلس نيابي فوضوي ضائع ، قد يخلق
للمفوضية وللعسكريين مشاكل كثيرة .

وذاذات يوم سمع مؤلف هذا الكتاب المساجلة البشعة التالية بين
نوب كانوا في اروقة المجلس ، يتجادلون بعضهم مع بعض ، ويقولون

الاشياء القبيحة التي سجلناها بالقلم والدفتر .

كان روكز أبو ناصر المتكلم اولاً مهاجماً خليل أبو جوده :

انت وقفت على سلم السراي واخذت تقبض وتساوم على الوظائف
والتعيين في البلديات !

فرد خليل أبو جوده قائلاً :

— وانت اتفقت مع شركة مياه المنبوح ، واخذت حصتك من ائثمانية
ملايين فرنك التي امرت الحكومة وبعض النواب في اعطائها اياها !

وقال محمد العبود مخاطباً الشيخ فريد الخازن :

— انت الذي لك حصة في زراعة الحشيش في عكار وبلاد بعلبك وقد
اكتشف الفرنسيون امرك !

وقال للشيخ يوسف الخازن :

— وانت الذي قبلت المال من البنك السوري عند تجديد اتفاقيته
ولما كان هذا للبنك فرنساوياً فلا شك ان مديره اعطى المفوضية قائمة
باسماء جميع النواب الذين قبضوا ثمن سكوت مقابل تصديقهم الاتفاقية
مما جعلنا ننظر الفرنسيين نواباً للسلب والنهب .

وقال يوسف الزين :

— انت الذي طلبت من شركة البترول مالا لتسعى لها في التصديق
على امتيازها ، فذهبت الشركة وقابت للفرنسيين متأسفة : « اود من كل
قلبي ان اعطي الخزينة اللبنانية ما تطلبه ، ولكنني لا اعرف اذا كنت
مضطرة ان اعطي نواب لبنان ما يطلبونه » . وبعد هذا اعطت الشركة
للمفوضية اسماء النواب الذين كانوا يساومونها على المال ، مقابل الموافقة
على مشروعها . فقالت المفوضية للشركة : « الافضل تأجيل البحث بضعة
اشهر ، اذ حينذاك لا تجد الشركة امامها نواباً يراحمون الخزينة ... »

ويتابع اهل جهنم عتابهم وشجارهم فيقول ابيخ فريد للخباز :

— وانت الذي جعلت المجلس مغارة للصوص ... انت علي بابا .

وعملت من جريدة الاوريان مكتب توظيف وسمسرات .

ويقول غيره وهو يتخاصم مع روكز بك :

- وانت الذي ما تركت بلدية في منطقتك الا ووضعت عليها جزية . .

وانت آنذي بعث وظائف المخاتير والنياشين باسعار معينة !

وقال الشيخ فريد ثنائب معروف من بيروت :

- وانت الذي اعطيت الشواطىء لهجرم بدون بدل وانشأ فيها

حماماته المعروفة . في حين ان البحر وشاطئه ملك للحكومة ، وليس لاحد

غيرها ان يضع يده عليهما !

وقال نائب غيره : « وانت الذي تحمي البانسيونات والملاهي الفاسقة

والعاب اقمار ، مقابل رسم تأخذه منها ، كما كان يفعل آل كابوني في اميركا!



وهكذا لا نجد فرقا ولا كلمة جديدة بين ما يقوله الناس عن عهدبشاره

الخورى ونوابه ، وبين ما كان نواب اده يقولونه عن

انفسهم ، وما كان يقوله المعارضون عنهم وعن حكومتهم .

انما حينذاك ، لم يكن بالإمكان ان يقوم انقلاب بالسيف والقوة

والاضرابات . لان الفرنسيين كانوا هنا .

فهم لو لم يكونوا هنا ، وكان ابلد مستقلا كما كان بعد ١٩٤٣ ،

ولو لم يكن المعارضون يومئذ يخافون السنغاليين ، لكانوا عملوا تماما

ما عملمه بعدهم المعارضون امس ، عندما قاموا بالانقلاب على بشاره الخورى

اذ في عهده كان السنغاليون قد ضبوا حرايهم وتركوا هذه البلاد فلم نعد

نخافهم ونخشى سواد وجوههم !

والاسباب نفسها التي كانت تجعل انقلاب ١٩٥٢ ضرورة وطنية

هي ذات الاسباب التي كانت ايضا في ذلك الزمن تدعو للنقمة والثورة

على الدولة ، كما ان اوقاحة السياسية لم تكن قد وصلت يومئذ الى

ما وصلت اليه في هذا الوقت الذي نحن فيه ، وهي وقاحة جعلت ايضا

الكثيرين من الذين كانوا العاملين الرئيسيين بالفساد والرشوة والمتاجرات

يفخرون على غيرهم وبكل جراءة بتجردهم ، ويعدون انفسهم في هذا

العهد الجديد المصاحين والمطهرين ، في حين اتهم قليلون جداً السياسيون اللبنانيون الذين يمكنهم ان يفخروا عن حق ، وليس عن كذب ورياء ، بتجردهم ونظافتهم !

نعم ، نريد ان نقول ونؤكد ان الفساد والفوضى والسلب - هذا كله كان من شأن العهد السابق ، ولكن ليس جميع الذين قالوا عنه هكذا هم بأجمعهم أيضا غير حرامية وسارقين ، وكثيرون منهم لا يمكن ان تكون ذاكرتهم خانتهم بدرجة ينسون من ورائها اليوم ما فعلوه بالامس ، فان لم يكن هناك غير الاموال الكثيرة التي يتمتعون بها الان مع ظواهر التجرد والنزاهة التي يستمتعون بها، فهذا كاف لان يذكروا في كل ساعة انهم هم كانوا ايضا سلايين نهابين !

في قصر الصنوبر بعد نصف الليل

كان لا بد للفرنسيين الذين أخذوا يستعدون لقيادة جيوش الشرق في حابة نشوب الحرب القريبة جدا ، ان تكون يدهم طليقة في كل شيء .

وكان المسيو بيو آخر من كان يجب ان يكون مفوضا ساميا في ذلك الوقت الحرج ، وهذا لما كان عليه من روح مسالمة ، ومن ضعف في الادارة وهو في تقشفه البروتستنتي يقضي العمر في التفتيش عن راحة ضميره والرجل الذي يعيش على هذا الطراز يتعب كثيرا وينتهي بالهزال ولا يكون من الرجال الذين يضربون بقبضتهم على الطاولة ويقولون : نحن نريد !

وليست مساعي رئيس الدستوريين ورفيقه سليم تقلا بباريس هي التي منعت المفوضة السامية ان تقرر بطريقة مفاجأة غير منتظرة ، تعطيل الدستور بلبنان ، وترسل نواب المجلس الى بيوتهم متذرعة بان الحالة العسكرية بالبلاد توجب الحكم المباشر عن طريق السراي اللبنانية .

وكثيرون من اصدقاء الاستاذ اده ، ارتاحوا واغتبطوا ضمنا يومئذ بذهاب المجلس بهذه الحجة ، وعلى هذه الصورة وعن طريق الضرورة العسكرية ، فلا يعتز بشاره الخوري عليهم ، ويقول انه هو الذي ظفر بهم ، وانه كان السبب من وراء رحلته لباريس ، في ارسالهم الى بيوتهم .

فانما - كما قلنا اعلاه - كان طبيعيا بعد ذهاب الاتاسي والمجلس بالشام ، ان يكون هكذا بلبنان ، فاذا لم يذهب اميل اده فيذهب على الاقل نوابه ووزراؤه .

ولكن على كل حال ، يجب القول ان تعطيل الحياة النيابية وتشليح اده اكثر ما تبقى له من صلاحيات ، جملا ولا شك بشاره الخوري وصحبه يتنفسون ويرتاحون ، مع ان تعطيل الدستور هكذا مخالفة لمبادئهم واراتهم بوجه رئيسي . ولكن قيل يومئذ انهم كانوا قد اتصلوا عن

طريق الاستاذ كميل شمعون - بالانكليز - الذين ضمنوا لهم المستقبل القريب الذي فيه يأخذ بنان جميع حرياته .

وكان على الانكليز يومئذ ان يلعبوا دورا رئيسيا في مقدرات هذه البلاد ، اذ ان تحالفهم مع الفرنسيين واشتراكهم فعلا في جيش الشرق يجعلان لهم كلمة عالية ايضا في امور بلدان المشرق التي يسيطر عليها حلفاؤهم الفرنسيون .

وهكذا هذه المرة ، بعد حل مجلس الائتلاف وقيام حكومة دارية ، ليس اميل اده رئيس دولتها الا بالاسم - اخذ الناس يقولون ان نجم بشاره الخوري بدأ يطل ، وان رأسماله لسياسي أخذ يتضاعف .

فانما ، اذ كان الاستاذ اده صديق للفرنسيين يتكل عليهم ويأخذونه تحت رعايتهم ، فالشيخ بشاره وصحبه كان مفروضا منهم ان يكونوا اصدقاء الانكليز المفضلين ، دون ان يكونوا ايضا معدودين اعداء الفرنسيين وحالا ، ما كادت الحرب تقوم ، حتى استلم الانكليز مبدئيا مصلحة الدعاية في بلادنا ، واخذوا يقومون بالبروبغندا القوية اللازمة للحلفاء عامة ولهم بوجه خاص ، متكئين في تأييدهم على معظم السياسيين الوطنيين « الناسيوناليسست » الذين اخذوا يتسارعون لخطب ود انكلترا ، مما جعل قنصلية لمستر هوارد تزدحم بهم ازدحاما غريبا .

ولا نعرف على اي دليل استند الناس يومذاك عندما اختلفوا يؤكدون ان كميل شمعون في صداقته مع الانكليز استطاع ان يأخذ عهد منهم في مساعدة هذه البلاد على الاستقلال ، مما لم يكن قد اطلع عليه غير العدد القليل من السياسيين .

وكان يومئذ كميل شمعون وبشاره الخوري لا يزالان متضامنين تماما ، شريكين على السراء والضراء ، في السياسة والحزبية وفي التعاون السياسي والعقائدي .

وكان من الطبيعي في بداية الحرب الجديدة ، بعد ذهاب الاتاسي والكتلة الوطنية من الاحكام في الشام ، ان يعين افرنسيون الشيخ تاج الدين رئيسا بدمشق ، وقد كان رجلهم الاقرب يسانده قائد لفرق الجر كسيية القومندان كوله المشهور .

وكان هذا الاخير قد اقام نفسه كفيلا امام المفوضية السامية لتاج الدين بعد ان اظهرت المفوضية قلة ثقتها بهذا الاخير .

وكان السياسيون السوريون واخصهم رجال الكتلة الوطنية ، في ذلك الوقت ، وفي ابان الانتصارات الالمانية المتوالية ، قد اخذوا يديرون بوجوههم نحو برلين ، اكثر مما يديرونها نحو باريس ولندن .

وهذا ما كان يدعو للاشتباه بهم ، وما جعل الفرنسيين يبعدونهم من السراي والحكم ، ويجعلونهم يقبعون ببيوتهم ، يقطعون نفسا وينتظرون اياما افضل ، ينتظرون مفاجئات تلك الحرب واثار انتصارات هتلر في سياسة الحلفاء في الشرق .

ولم يكن في سوريا من رجال السياسة غير الشيخ تاج وحده لا يؤمن بانتصار المانيا ، وكان من طبيعته الشيطنة انه عندما يستلم الحكم ، يستأسد ، وعندما يستأسد يضرب بقسوة وقوة .

وانتهز الفرصة ، واخذ يلاحق بعض كبار الوطنيين ، واصطفى بينهم بالاكتر خصمه العنيد الاكبر رجل الدولة السوري المعروف ، جميل مردم بك واقسم على العمل لخراب بيته .

وكان ذلك سهلا وقريب الوقوع ، ولم يستدرك المسيو بيو الامر فقد كان الشيخ تاج الدين قد استصدر حجزا على مزرعة جميل مردم بك الوسيعة الجميلة ، القائمة كالعروس في ظاهر دمشق ، وذلك مقابل دين الحكومة عليه ، وطرح الشيخ تاج المزرعة للبيع على ان تجري مزادة علنية عليها بعد ايام قليلة جدا .

وتوسل جميل مردم بجميع وسائله الخاصة لانقاذ مزرعته من الضياع ولكنه لم يستطع ، اذ ان الشيخ تاج كان قد سد عليه جميع الابواب ، وكان ايضا قد جعله وجعل جماعة الكتلة الوطنية ، وفي مقدمتهم شكري القوتلي موضوع شبهة تجاه الحلفاء ، ناسبا اليهم الاتصال بالهدوء وتأييد النازيين .

سد الشيخ تاج الابواب على جميل مردم ، مما عدا باب المفوض السامي .

ولكن كيف يأتي جميل مردم للمسيو بيو طالبا متوسطا المفوض السامي ، وهو ورفاقه الزعماء اوطنيون اصبحوا اولا تحت المراقبة

ببطريقة نوعا ما كتومة ، ولكن غير خافية عليهم ، وكانوا ثانيا قد اهلنوا
سياستهم السلبية وعدم تعاونهم مع الفرنسيين .

ولكن كان لجميل مردم بك بيروت صديق أمين وفي ، هو محرر
هذه الاسطر .

وكان في المفوضية لهذا لصديق صديق افرنسي له نفوذ وسلطان ،
اسمه شامبار مدير قلم المطبوعات والاذاعة ووكيل الغرفة السياسية ،
وصديق المفوض السامي الخاص .

وهكذا ، وعن طريق المسيو شامبار ، جاء صاحب هذه المذكرات
وجميل مردم بك ذات ليلة مظلمة في ساعة غير محترمة عند الناس الذين
ينامون في الاوقات العادية - الى قصر الصنوبر ، حيث جرى بجميل
مردم بك مع المفوض السامي حديث طويل ، يجب ان يكون المسيو بيو
قد ارتاح اليه جدا ، وانس في صاحبه رجل نبالة وشرف ، لان الحديث
الطويل الهام انتهى اخيرا برفع الحجز حالا عن مزرعة جميل مردم وبدفع
المتوجب عليه للخزينة السورية عن طريق المفوضية السامية ، مع تعهد
قدمه جميل مردم للمفوض السامي بان يقف هو ورجال الكتلة على الحياد
تجاه تاج ابدین وحكومته ، وباتعاون مع الحلفاء وتسهيل امورهم بالبلاد
ومحاربة الطابور الخامس الالمانى الذي كان يوما يزداد عدداً وقوة بين
السوريين ، وكن جميل مردم وصحبه متهمين بانهم من زعمائه !

لبنانه في المعرض الاستعماري الفرنسي

كانت سياسة بشارة الخوري منذ البدايات تقوم على ان البلاد اللبنانية ، مهما كانت لها صبغة نصرانية فهي بلاد اسلامية ايضا ، وعدد المسلمين فيها يوازي تقريبا عدد النصارى .

وهكذا ، يجب ان يكون المسلمين حساب كبير . وعلى الزعيم السياسي المسيحي الفهم ان يذكر هذه الحقيقة لنفسه بعض الاحيان ، ويذكر المسلمين بها كي يكونوا اصدقاءه وانصاره .

وكان ولا شك امضى سلاح عند بشارة الخوري يحارب فيه ده ، هو معرفته هذه الحقيقة واقاراره لها بالمناسبات الملائمة .

وفي سنة ١٩٣٧ اعتمزم السفر لاول مرة لباريس ، في عهد دي مارتل كما اسلفنا . وكان البطريرك الماروني والاستاذ اميل اده رئيس الجمهورية قد سبقاه هناك ، كل منهما على حده دون سابق مععاد .

وكان من الضروري ان يكون بشارة الخوري هناك ليرد الفوائس عن نفسه ، اعتبارا منه ان لاستاذ اميل اده لن يترك فرصة في فرنسا الا وينتهزها للنيل منه .

وفي اليوم الذي قرر فيه الرحيل ، عندما نزل ابى الميناء ليستقل الباخرة ، وقد رافقه عدد كبير من الانصار والزعماء ، لاحظ الملاحظون عددا كبيرا من ساسة وقبضيات ووجهاء مسلمين جاؤوا ايضا يودعون - مما لم يسبق ان جرى سابقا قبله بمثل المظاهرة العلنية ، اذ ان السياسيين المسلمين ، وفي مقدمتهم الوجيه الزعيم الكبير عمر بك بيهم ورياض الصلح وعمر الداوق وسليم الطياره وابناء سليم سلام وغيرهم كانوا بالاحرى يتعدون - وهم راغون - عن المشادة القائمة بين السياسيين اللبنانيين المارونيين اميل اده والشيخ بشارة الخوري ، وينظرون اسى

تقاتلها وتحاربها بارتياح ، على قلعة « فخار يكسر بعضه » . ولقد كان في دوام هذه الحرب الحزبية المارونية مصلحة للمسلمين . ومع أنهم لم يعملوا شيئا لزيادة الشقاق بين الرجلين الكبيرين . فلا نستطيع القول أنهم لم يكونوا مبسوطين من الامر ، معتبطين كثيرا عندما يرونهما ينشقان ويتخاصمان ، مما يقلل من قوتها ويزيد من قوة الزعماء المسلمين ، وهي قوة كان المسلمون في ذلك الوقت بحاجة كبيرة لها ، كما يستطيعوا اقامة توازن بينهم وبين المسيحيين ، في الوقت الذي كان فيه الانتداب يقف بطريقة غير مباشرة مع اصدقاء فرنسا التقليديين .

وفي هذا الجو ، رتأى بشارة الخوري ان يظهر تكاتفه مع هذه العناصر الاسلامية ويخطب ودها ، وكانت قد اخذت للمرة الاولى تتظاهر له وتؤيده ، ومن جراء ذلك احتشدت جماهير غفيرة اكثرها مسلمة ، على الميناء مودعة له ، فالقى عليها ذلك التصريح المشهور ، وهو لتصریح الاول من نوعه يتلفظ به ماروني كبير مسؤول سياسيا وحزبيا ، ببلد يحتلها الفرنسيون اصدقاء الموارنة اتاريخيون ، قال :

« جاء الوقت لان يتعاون لبنان مع البلدان العربية تعاوننا وثيقا ولى اقصى حد ، وان يعتبر هذه ابلدن العربية شقيقات وشريكات له ، يتضامن معها في مقاومة الاستعمار في الجهاد للتحرر والاستقلال » .

وجاء جواب هذا الكلام من باريس حالا بلسان الرئيس اده ، محاولا دحضه مظهرا استغرابه وشجبه اذ لم يكن منتظرا ان يصر مثل ذلك الكلام عن سياسي لبناني كبير ، ينتسب الى طائفة تعتبر نفسها صديقة فرنسا الامينة في الشرق وهي مرتبطة معها بميثاق تقليدي قديم لذلك احدث التصريح ضجة كبرى في الاندية السياسية الفرنسية ، كما وان القول بالتعاون مع العرب والاشترك معهم في الكفاح ضد المستعمرين ، كان تجاه المنتدبين يشكل - انتدابيا - خيانة معنوية ، تستحق الملاحقة وابعاد قائلها ، فضلا عما يحدثه قول كهذا في الاديرة ضد الرهبان من ضجة واستنكار .

قلنا جاء الجواب حالا من باريس ، عندما وقف الرئيس اده في المعرض الاستعماري الذي كانت المدينة الكبرى قد اقامته يومئذ ، وأكد في حديثه عن اللبنانيين انهم من سلالة الشعوب القديمة المنقرضة التي اعطت للعالم خلال عشرين جيل المدنية والعلم . وجاء في ذلك الخطاب

يقول بطريقة غير مباشرة وبمغامز حاذقة ان لا شيء يجمع بين اللبنانيين وبين العرب ، من الجهة العنصرية والقومية فاللبنانيون فينيقيون دوما .

وعنى الاستاذ اده بكلامه هذا السلالة الفينيقية التي ملكت شواطئ البحر المتوسط الشرقي وشمال افريقيا ، وكانت حصنا حصينا وقف دون اختراق الجهل وبدواية الصحراء حصون المدينة الضخمة التي كانت تلك الفينيقية قد اقامتها .

ولم تكن اول مرة يعتبر فيها الاستاذ اده اللبنانيين بعينين عن العرب والعروبة ، انما كانت اول مرة يقول ذلك بخطاب رسمسي وكان ذلك في المعرض الاستعماري بباريس الذي عاب الكثيرون اشتراك لبنان به ، وقيام جناح لبناني فيه ، فانما هو معرض للمستعمرات الفرنسية مثل السنغال والمدغسكر واكونغو والهند الصينية ، فلم يكن للبنان ان يشيد جناحا فيه أيضا ، اذ بذلك يعترف كذلك الامر انه مستعمرة فرنسية ، لا بلادا تحت الوصاية الموقته . وكان تشييد لفرنسيين لهذا الجناح اللبناني في معرض المستعمرات ، دليلا على ان لبنان بنظرهم لا يفرق عن باقي مستعمراتهم .

وكان امام باب كل جناح من اجنحة هذه المستعمرات عبيد يرتدون بزات المستعمرة التي يمثلونها .

ووجدت ادارة ذلك المعرض الفهيمة ان تضع على باب الجناح اللبناني عبيد أكثر سوادا من باقي العبيد ، يمثلان الجنس اللبناني في ذلك المعرض ، ويلبسان الملابس الجبلية .

وكان البطريرك عريضة قد سافر يومئذ لروما ، وقيل ان صديقنا القديم الاستاذ معتوق هو الذي دعاه بباريس على ضيافته . وكان هذا الاخير قد استوطن عاصمة الفرنسيين في ذلك الوقت .

ونزل البطريرك في لوكندة جورج الخامس بجناح خاص كبير ، كان معتوق - « راسبوتين » بكركي - قد أعد له لقبطة ، وأحاطه بحاشية كبيرة من رجال الصحافة العالمية ، تنشر عن غبطته اخبارا كثيرة مدهشة وعجيبة ، كان معتوق هو الذي ينصها ويختلقها وفيها مبالغات كثيرة ، واكلها بأجمعها تكبير للمقام البطريركي .

حتى انه صور البطريك بأنه ملك لبنان غير المتوج ، وزعيم البلاد
الروحي والزمني ، مما يجعل رئاسة الجمهورية مرتبطة فيه ، تتعاون
معه وتعمل بمشيئته !

وكانت وزارة الخارجية الفرنسية قد تعمدت احاطة البطريك
بأكبر مجالي التعظيم والتمجيد ، مما فاق ما احاطت به الرئيس اده .

وكان ذلك مجالا لخصوم هذا الاخير، للتأكيد بأن وزارة الخارجية
الفرنسية ارادت بذلك الحط من مكانة اده وامره بوصفه رئيس الجمهورية
اللبنانية كيما لا يطمع بها وكيما تظهر نفسها منفصلة عنه، مما ازعج ذلك
الرئيس كثيرا، ومما جعله يخرج عن هدوئه ورضاه، ويذهب للوزارة
الخارجية يحتج اخيرا على تسمية لبنان مستعمرة افرنسية لا بلادا مستقلة،
واقامة جناح له في معرض استعماري يجاور جناح الكونغو والغويان
ومدغسكر وبلدان الزنوج الفرنسية المختلفة .

ونشرت الصحف الفرنسية بمناسبة زيارة البطريك قائلة انه اذا
كان جبل المونتنيغرو (الجبل الاسود) قد تحرر من حكامه التقليديين المطاريين،
فان لبنان لم يفعل ذلك، ومسا يزال تحت سيطرة الاكليروس ، يحكمون
فيه كما يريدون، فهو جمهورية مدنيا، ميدنيا ولكنه عمليا مملكة يجلس
على عرشها البطريك الماروني، ويضع رئاسة الجمهورية تحت وصايته !

هكذا على الاقل ما جاء تقريبا في جرائد اليمين ، مثل الغيفارو
والاكسيون فرانسيز وباري سوار .

وقد تكون هذه الكتابات عن البطريك نزيل باريس هي التي دعت
الاندية الفرنسية الشعبية الكبرى ولاوساط السياسية الدولية لان تدعو
البطريك وتحتفي به احتفاء عظيما ، طفى كثيرا - كما قلنا اعلاه - على
الاحتفاء بالرئيس اده ، مما اتخذه خصومه مناسبة للتسحامل عليه ،
يؤاخذونه لانه لم يعرف كيف يقيم لنفسه المكانة العالية التي يجب ان
يقيمها رئيس بلاد ينزل ضيفا على بلاد اجنبية ولو كانت مندبة على بلاده .



تطورت الحالة الداخلية في لبنان من جراء الحرب ، فعضل الفرنسيون
المجلس كما ذكرنا، وارسلوا وزراء الرئيس اميل اده الى بيوتهم ، واستلم

المستشارون الفرنسيون الاحكام من وراء ستار المديرين اللبنانيين ،
وانقلبت الجمهورية اللبنانية رأساً على عقب ، وعين المفوض السامي عبد
الله بيهم سكرتيراً عاماً ورئيساً لمجلس المديرين ، يقوم مقام مجلس الوزراء
ويحكم مباشرة ، راجعاً بأموره ليس لرئيس الجمهورية ، بل للمنسوبة
الفرنساوي .

الفرنساوي . وعبد الله بيهم وجيه كبير المسلمين في بيروت معروف
بصداقته للفرنسيين وأخصهم الجنرال ويفاند الذي كان دوماً يعمل لدى
المفوضية السامية لاستدعائه للحكم ، حيث كان عبد الله بيهم يظهر حياً
طائفاً كاملاً ويشغل بهدوء وسكينة

دولة الجمرالية

وكانت كل أعمال المسيو بيو تقول يوميا لاميل 'ده بوجوب الاستقالة.

وكان الفرنسيون قد حاولوا اولاً تعيين حاكم فرنساوي للبنان من قواد الجيش ، ولكن هذه الفكرة التي كانوا قد اعلنوها هنا وهناك لجس انبض عند الاهلين ، لم تصادف غير انشجب ، فاضطروا لتعيين عيسد الله بيهم سكرتيراً عاماً ، على ان يرجع بكل اموره للمندوب فرنساوي في الحكومة اللبنانية ، وعلى ان يبقى اميل اده رئيساً للجمهورية بطريقة تشبه بالاحرى رئاسة الشرف ، لا الرئاسة الفعلية .

وكان المندوب فرنساوي الجديد لدى الحكومة اللبنانية ، الجنرال ارلابوس صعب المراس عنيفاً ، يعتبر ان السياسة يجب ان تكون منتظمة وصريحة مثل العسكرية ، مما جعل تفاهمه مع السكرتير العام ومجلس المديرين صعباً جداً .

ولكن أين لاحد يومئذ - والحكم حكم عسكري بالفعل ، والجيش الفرنسية تتدفق يوميا على هذه البلاد ، وكل شيء اصبح بيد انقواد - ولكن أين لاحد يومئذ ان يعترض أو يبدي رأيا سواء اكان من الاديبيين أو الدستوريين أو سواهم ؟

ولكن لماذا ناتي على مثل هذا الحديث ؟
نفعل ذلك جوابا على الذين اخذوا على الاستاذ اميل اده انه بقى في الرئاسة يوم قلب الفرنسيون الجمهورية اللبنانية الى حكم أنتدابي مباشر .

ولكن اده امر على البقاء ورفض الاستقالة ، بحجة انه يجب ان يبقى لهذه الدولة اللبنانية رمز محلي ببقاء الرئاسة اللبنانية ، وهي معنويها فوق الجميع .

وفعل الاستاذ اده ذلك بالرغم من ان قرارات المفوضية السامية باجمعها كانت تقول صريحا ، وبطرق متنوعة ، أن رئاسة الجمهورية أصبحت من كل الجوانب دخيلة على السراي ، لا محل لها فيها .
وحبس الرجل الكبير نفسه بيته ، وكان يقول للذين يظهرهم اعجابهم أو شجبهم لموقفه :

- أليس في بقائي تحديا للمفوضية ، ودليلا على أنني أقسوى منها ، فهي تنتظر استقالتي ولا تجسر على ان تقيلني ؟
وكان الجيش قد استلم كل شيء تقريبا ، وكان الجترال ويفان قد استلم القيادة العامة وأصبحت المفوضية تابعة له .

وفي أول أيلول ١٩٣٩ استلمت السلطة العسكرية البوليس
والجنדרمة ، واستلم المستشارون الوزارات .
وفي ٦ أيلول استلمت المفوضية حق التشريع ، وأصبحت كل
مرافق لدولة تابعة لها ، وهي تابعة للقيادة العسكرية . .

الرجل الذي عرف الحقيقة قبل غيره

ما العمل ، اذا كان بشاره الخوري في حزيران ١٩٤٠ ، في الساعة التي احتل فيها الالمان فرنسا ، قد عرف ان الانتداب ووجود فرنسا في الشرق انتهى ، وان ابواب الاستقلال الكامل الناجز لهذه البلاد قد تفتحت على مصراعها ؟

ما العمل ، اذا كان هو قد عرف ذلك ، واذا كان أميل أده لم يعرفه ، او بالبحري تجاهله بسبب حبه لفرنسا وايمانه بها ؟

هنا كان مفرق الطريقين !

والواقع ان ما عرفه بشاره الخوري ، هو ما كان يعرفه جميع اناس ايضا ، اذ لم يكن صعبا وغير معقول ان لا يعرف الانسان ان احتلال الالمان لفرنسا وعقدتها هدنة مع هتلر ، انما هو دعوة لها لضب حقائبها في بلاد المشرق ، ووضع نهاية لانتدابها ووجودها في سورية ولبنان . . .

وكثيرون يتساءلون حتى الان : ترى او أن الاستاذ أميل ادرك هذا الشيء الذي ادركه بشاره الخوري ومشى في طريق الاستقلال الذي مشى عليها بشاره الخوري ، وافترض مثل غيره بان نهاية فرنسا أصبحت محتومة في هذا المشرق ، هل كان قبل رئاسة الثلاثة عشر يوما ؟ او بالبحري ، هل لم يكن هو بدلا من بشاره الخوري رئيسا ؟

قلنا سابقا ، وقف النشاط السياسي المحلي في كل مكان ، وانتقل النشاط الى راديو المشرق الذي كان يشرف عليه الفرنسيون ويديره ذلك الداهية الفهيم الامعي المسيو شامبار ، كما انتقل النشاط ايضا للقنصلية الانكليزية ببيروت ، بيت الحليفة بريطانيا العظمى ، التي أخذت لنفسها صلاحيات سياسية كثيرة في بلاد المشرق ، كان من الطبيعي ان تأخذها حالا

عندما أخذت لندن تسيطر على القيادة العسكرية العليا للحلفاء في الشرق ، فاصبح من البديهي ان تلعب القنصلية البريطانية دورا كبيرا في هذه البلاد ، وتتدخل بأمور داخلية سياسية كثيرة اعتبارا منها أن في سوريا ولبنان طابورا خامسا لالمانيا ، من الاهلين يجب وضع حد لنشاطه .

وعلى هذا كان على الكتلة الدستورية ان تتردد على القنصلية البريطانية ، وتتجانس معها ومع آرائها ومقاصدها ، اعتبارا أنه قد يكون جاء الوقت لانكلترا لان تلعب دورها لمباشر في سوريا ولبنان ، وهمسا للبلدان اللذان ارغمتهم السياسة قسرا على تركهما للفرنساويين سنة ١٩١٩ .

والواقع أن انكلترا لم تقتفر أبدا ذلك الاخفاق الذي أصابها لأول مرة في المشرق ، عندما جلت جيوشها عن سوريا ولبنان ، تاركة البلديين للفرنسيين يتحكمون بهما . فهي قبل ذلك ما رفعت مرة رايتهما على بلاد في المشرق ألا ورسخت أقدامها فيها ، وظلت مسيطرة عليها أبدا . وإذا كانت بعض الاحيان جلت عن بلاد ما ، فانها كانت دوما تترك لها شيئا من الحقوق على تلك البلاد . ولكنها هذه المرة لم تكن مثل كل المرات ، واضطرت سنة ١٩١٩ ان تترك لبنان وسوريا تماما دون ان يبقى لها اثر ما فيها وذلك بعد ان كانت قد دخلتهما دخول الظافر ورفعت رايتهما على مباني الحكومات ، حتى ان الجنرال ولبس لاستراي الذي كان دخل البقاع على رأس جيوشه ، ورفع الراية البريطانية على سراي زحلة بحفلة رسمية كان قد اعلن أمام الجماهير المحتشدة التي جاءت لهذا الاحتفال بقوله : « ان هذه الراية تبقى حيث ترتفع ، ولا تنزل أبدا ! »

ومع ذلك ، بعد أسابيع قليلة من ذلك ، نزلت الراية البريطانية وارتفعت مكانها الراية الفرنسية في كل مكان .

وهذا الشيء لم يغب طوال الثلاثة وثلاثين سنة ، التي مضت عن بال كل انكليزي في هذا العالم .

وكان الانكليز الذين عرفناهم بعد استتاب الامر لفرنسا في هذه البلاد يقولون لنا دوما ان الوضع غير طبيعي ، وان الانتداب الفرنسي في سوريا ولبنان مثل رقعة مستعارة ، خاطتها الايام في ثوب الانكليزي ثوب « جون بول » الذي ترتديه جميع هذه البلدان في الشرق العربي .

قلنا ، كان من الطبيعي ان يستظل الدستوريون حالا الراية لانكليزية

وأن يرموا بأحضان مارون بك عرب ، المحقق في اتقنصلية ، الفهيم والخبير
الذي كان ولا يزال يخيل لجميع الناس انه النيافة الرمادية ، المسموع
الكلمة والرأي في اتقنصلية البريطانية سابقا ، ثم في السفارة البريطانية
اليوم وذلك على قدر ما الانكليز يستمعون لرأي غيرهم ، مهما كان أمينا وفيما
وصادقا معهم ، كما نفترض ذلك طبعاً في مواطننا المذكور ، الذي أصبح
ذات صباح من تشرين الثاني ١٩٣٩ كابيتانا في جيش صاحب الجلالة ،
كما أصبح قنصله انعام المستر هوارد جنرالاً ، وكما أصبح المستشار
السياسي المستر فرلونغ كولونولا ، إذ أن الهيئات الدبلوماسية البريطانية
انقلبت حالا عند اعلان الحرب ، وعلى الاخص في هذا الشرق الاوسط
الى هيئات عسكرية دبلوماسية برتب عالية اخذتها لنفسها .

الطابور الخامس في بروت الحساء

كانت اخبار الانتصارات الالمانية التي بدأت ترد على هذه البلاد تزيد من الحماس عند المسلمين لهتلر ولجيوشه ، مما كان يعرفه الانكليز تماما ويقلقون له ، دون أن يتخذوا أية اجراءات حاسمة ، لا عن طريقهم ولا عن طريق الفرنسيين لايقاف هذا التيار ، وذلك خوفا من اثاره خاطر الالمان عليهم .

على أنهم حصروا جميع جهودهم في تنظيم دعايتهم اكبرى المعروفة في هذه البلاد ، وكانوا قد دعوا رياض الصالح ليشترك فيها مقابل كل ما يريد ويطلب ، معتبرين أن من الواجب اكتساب أكبر عدد من ازعماء المسلمين ، واقتراضا منهم أن رياض الصالح يملك من الميزات والقوة ما يجعل الكثيرين من بناء طائفته يخرجون على النازية وينضمون للانكليز .

وكان يونس البحري في راديو برلين يعرف بطريقة عجيبة كل ما يجري عندنا حالا . وكان يتناول الموضوع في اذاعاته المسائية يوميا ويفضح كل الامور .

ومن راديو برلين ، عرفنا أن الجنرال هوارد القنصل العام البريطاني كان يجتمع سرا الى بشاره انخوري ، ثم الى رياض الصالح ، ومن بعدها الى عمر الداعوق وسامي الصالح وغيرهم من كبار السياسيين وأخصهم المسلمين منهم .

ولكن هل اتفق رياض الصالح مع القنصل الانكليزي العام ؟

وهل اتفق ازعماء لمسلمون معه ؟

يجب القول انه لم تظهر بعد ذلك دلائل مطلقا على اتفاقات كهذه ! مع أن يونس البحري كان يؤكد الشيء في اذاعته . ولكننا لم نكن نعرف الحقيقة بكاملها ، خصوصا عن رياض الصالح الذي كان الاتفاق معه أنه

وزن وقيمة ، بوصفه حامل لواء العروبة الاكبر يومئذ . ولكن رياض انصاح كان لا يتكلم ، ولا الانكليزي كان يؤكسد .

ومضت سنوات بعد ذلك ، وذهب الفرنسيون ، وظل جميع أهل السياسة يؤكدون أن رياض انصاح كانت له دوما صلوات مع دونة كبرى . ولكن ما من احد استطاع مرة واحدة ان يعين تلك الدولة فهذا كان يقول المانيا ، وذلك انكلترا ، واخر يقول ايضا فرنسا .

هل كان رياض انصاح قديرا لدرجة انه استطاع اخفاء الامر ، او انه كان حرا طليقا - كما عرفناه - ولم يتعامل ولا مرة مع أية دولة كانت؟ او انه على افتراض ثالث ، قد يكون استطاع بنباهته ان يتعاون مع جميع الدول في آن واحد؟

ولكن ، مما لاشك فيه أن لدستوريين اتفقوا سنة ١٩٣٩ مع الانكليز وفي مقدمة هؤلاء الشيخ بشاره الخوري اعتبارا منهم ان دور الانكليز في السيطرة على سياسة الشرق الادنى بكامله قد يكون قد أتى ، وهم في تحالفهم مع الفرنسيين وقيادتهم العليا في مصر وشتراتهم بجيش الشرق سيكون لهم كلمة فاصلة في السياسة اداخلية بالبلدان التي تحت سلطة الحلفاء العسكرية ، واعتبارا من جانب اخر أن الفرنسيين سيداومون ، ولا شك ، على مساندة الاديين ، وذلك لانهم يعتبرون - كما كانوا يقاوان في كل مكان - ان الاديين هم بالاساس حزب فرنسا في لبنان ، وايضا كان من الطبيعي أن يطرق خصوم الاديين - زبائن فرنسا - باب لانكليز ، عندما رأوا باب سوريا ولبنان قد أصبح مفتوحا أمام الجيوش الانكليزية !

ولم يذهب أحد الاميركان ، لان اميركا لم تكن يومئذ قد أخذت تسيطر على هذا الشرق ، وتأخذ المكانة السياسية والسيطرة الاقتصادية المرموقة . التي أخذتها بعد ذلك .

ولكن ، كان هناك لمسلمون ايضا ، بعددهم الاكبر والاقوى يرابطون في وسط الطريق . فهم ليسوا انكليز ولا افرنسيين !

هم انصار خصوم الانكليز والفرنسيين ، هم اذن الطابور الخامس الذي لم يتحمل هتار الاتعاب لكثيرة في خلقه وتكوينه . هو طابور خامس

يسمع كل مساء يونس البحري يعد باسم « الفوهرر » في اذاعات برلين بالاستقلال الكامل للعرب ، وبتحرير الاسلام من سيطرة الغرب ، وباعادة امجاد العرب الى ماكانت عليه ، وباقامة امبراطورية عربية تبدأ من شمالي أفريقيا وتنتهي على حدود الاناضول وفي تخوم بلاد فارس .

ولكن ، ماذا كان يمكن للدستور بين ان ينفعوا انكلترا والمجهود الحربي في بلاد أصبحت سياسيا مجموعة عربية كبرى معادية للحلفاء ، تفوق على الاربعين مليوناً ليس بينها غير بضعة مئات الالف من النصارى فقط موالين للحلفاء ؟

وكان من الطبيعي ان يكون النصارى مع الحلفاء ، ليس فقط لتقاليدهم المهودة: البعض منهم مع فرنسا والبعض الاخر مع انكلترا، بل ايضا تبعا للخطة التي لا تتبدل ولا تتغير في هذه البلاد ، والتي تجعل المسلم يأخذ دوليا وسياسيا طريقا غير طريق المسيحي ، والمسيحي غير طريق المسلم .

وهكذا رأينا يومئذ في بداية هذه الحرب مهمة القنصلية الانكليزية صعبة جدا ، خصوصا صعبة على صديقنا مارون عرب ، وهو يحاول ان يأخذ له مكانا عند هؤلاء الاربعين مليون مسلم من انصار هتلر ، ساعيا الى تحويل ميلهم من المانيا الى انكلترا .

واستعمل البريطانيون المال والحيلة والدعاوة الكبيرة والحاذقة جدا ، حتى انهم أصدروا مجلة عربية عن طريق جريدة « الاوربان » أسموها « المراحل » تعمل لهم بروبغندا بمكة والرياض . وكنا قد استلفتنا يومئذ انتباه القنصل الانكليزي العام للامر ، فذهل وأكد انه لم يكن عالما بما جرى، وقال تلك الكلمة الطريفة المشهورة : « أننا ينشر الدعاية عند المسلمين عن طريق المراحل التي توزعها القنصلية البريطانية بالالف في البلاد العربية ، نكون كمن يجرب بيع الخنازير في بلاد الاسلام ! »

وقبض يومئذ بعض الزعماء المحليون من الانكليز - ايضا - المال الكثير ، وتظاهروا بانهم تأثروا بدعاوتهم ، ولكنهم ظلوا ضمنا يعطفون على هتلر .

ونذكر ان القنصلية لبريطانية دعتنا حينذاك ، عندما أصبحت مرجعا سياسيا كبيرا ، لها نفوذالمفوضية الفرنسية وأكثر - دعتنا لالقاء محاضرة في «راديو اشرق» ، نثبت فيها أن بريطانيا انعظمى صديقة العرب ، و نها هي التي قادت نهضتهم في الحرب الكونية الاوالمسى ومشت بهم نحو النصر ، وفصلت بلادهم عن السلطنة التركية ، وأقامت للوكهم عروشا وابتدعت لهم الممالك !

وأجابنا يونس البحري من راديو برنين في اليوم الثاني باننا نكذب ونلفق ونقول غير الحقيقة ، ونخون العرب والعروبة ، وتساءل حضرته في الراديو كم يجب أن تكون القنصلية البريطانية دفعت لنا يومئذ ، وأسمى محاضرتنا « محاضرة المائة ليرة الكليزية » ، مفترضاً ان القنصلية دفعت لنا هذا المبلغ .

وبالمناسبة يجب علينا لقول انه كان مخطئا من جهة ، ومصيبا من جهة ثانية .

كانت المفوضية حقا قد دفعت لنا اجرة تنقلات من بيتنا لدار الاذاعة ولكن صديقنا يونس كان مخطئا عندما افترض مقدار القيمة ، وتصور أن القنصلية البريطانية عندها كل هذا الكرم !

فانما لا نجنرال هوارد القنصل العام ، ولا مستشاره مارون عرب ، كانا ولا مرة بهذه اليد المبسوطة الكبيرة ، لا معنا ولا مع غيرنا ، حتى أن اكثرين من السياسيين المحليين كانوا يتساءلون بين بعضهم البعض ، عندما كانوا يثبتون بالمناسبة ان انكلترا ليست بذلك الكرم في دعاوتها - وهو كرم كانت الاساطير تحدثنا عنه - كان كثيرون من السياسيين يتساءلون اذا كانت انكلترا يمكنها ان تبيع الحرب مع هذا التقدير الذي كانت قد أخذت تظهره في كل مناسبة .

قلنا ، وانتقل النشاط السياسي الى القنصلية الانكليزية التي أخذت منذ ذلك الحين تدبر أمورها في هذه البلاد ، كان الفرنسيين حتما سيتركونها ، وكأنما هي التي ستخلفهم عندنا .

كان رياض الصلح قد أخذ يخرج من « القاعة الصهيونية » التي

اصطفاها خلوة له ، حيث كان حتى ذلك الوقت يجتمع دوما ويوميا بالعشاقين والسياسيين القائلين قوله والمناصرين له يتبادلون الآراء والأخبار ، ويضعون خطط المستقبل والمؤامرات والتدابير اللازمة .

وكانت القاعة التي أسماها رياض الصلح «القاعة الصهيونية» مقصورة من الخشب، خفية، تقوم في داخل مخازن التاجر المعروف الفيور صديق رياض الصلح المخلص ، السيد يوسف أنصدي .

وكانت « لقاعة الصهيونية » قد اشتهرت في ذلك الحين بشيئين رئيسيين :

أولا - رجال الامن العام ورجال المعلومات الفرنسية ان الذين يحيطون بها دوما متبعين أخبارها .

وثانيا - الشائعات والدعايات والأخبار التي كانت تخرج منها وتملا البلد في كل يوم، وهي تحمل طابع «القاعة الصهيونية» على قفاها!

وكانت قد دعيت « القاعة الصهيونية» بالنسبة للقاعة الصهيونية التي جاء ذكرها في الكتاب المقدس ، والتي كان المسيح يختلي فيها .

وكما كان الانكليز يعتبرون منذ مونيخ - عندما اشتموا رخصة ان الحرب القريبة - ان نهاية فرنسا في هذه البلاد قد جاءت ، مع أن الالمان لم يكونوا قد اعلنوا القتال بعد ، فان رياض الصلح كان أيضا يقول مثل هذا القول منذ ذلك الحين ، ودون أن يدري لربما ما كان الانكليز يقولونه .

وهكذا العقول الكبيرة كانت تتلاقى وعلى اساس اعتقاد رياض الصلح بقرب نهاية فرنسا في هذه البلاد ، أخذ حضرته يشتغل أيضا منذ بداية هذه الحرب ، وبعدما رآه من تدخل الانكليز السياسي في معظم امورنا السياسية ، أخذ يشتغل بعنف في السياسة على اساس نهاية الانتداب غير المنتظرة .

وكان يأمل ان البلدان العربية التي فرقها وجزئتها الحرب الكونية الاولى قد توحدوا .لحرب الكونية الثانية .

ولكن رياض الصلح لم يكن يقول ، كما كان كل مسلم غيره يقول .

ان الالمان هم الذين سيعملون هذا الشيء ، مع كل ما كان الالمان يؤكده
ويعاهدون العرب عليه .

نعم ، كان يؤكد ان الوحدة الاستقلالية للعرب اصبحت ممكنة ،
ولكنه لم يكن يعين الدولة الكبرى التي ستحققها . انما عندما ذهب للندن بعد
ثورة لبنان ١٩٤٣ عضواً في لجنة أجلياء ، ذكر في حديثه مع وكيل وزارة
الخارجية البريطانية انه هو أيضاً كان يعرف ان عهد فرنسا في بلاد
الشرق قد قارب الانتهاء ، وكان يعرف ان انكلترا هي التي ستتولسى
تسوية قضية الاستقلال في سوريا ولبنان ، وذلك على ظهر الفرنسيين
وبعد اجبارهم على الجلاء عن البلدين . واثبت قوله برسائل كان يتبادلها
في صيف ١٩٣٩ مع صديق له من كبار رجال البرلمان الانكليزي .

وكانت «القاعة الصهيونية» توزع على البلاد بطرق غير مباشرة،
ولكن بارعة يديرها رياض الصلح نفسه ، كلمة المرور اليومية ، التي يجب
على الوطنيين ، طلاب الاستقلال ، السير عليها . . .

وكان الفرنسيون يشعرون ان هناك قوات غير منظورة ، ولكن
منتظمة تعمل عملها ، واتجهت انظارالمفوضية وشبهاتها نحو بشاره الخوري
ورياض الصلح ، فجعلتهما تحت المراقبة الدائمة ، مما كنا قد عرفناه
حالا واسرعنا نبيه رياض الصلح عنه .

وأخذ يومئذ هدنة بضعة أسابيع اختفى فيها عن العيان وعن
«القاعة الصهيونية» العزيزة عليه جدا واوقف كل نشاط سياسي مما
جعل الفرنسيين لا يتصدون له ، بعد ان كانوا مزمرعين على اعتقاله .

وكان ولا شك جو من الارهاب والتردد يسود في الاسابيع الاولى
لبداية الحرب ، مما كان طبيعيا جدا . وكان السياسيون يتلمسون
طريقهم ولا يعرفون أين يجدونها . لاسيما والسلطات الفرنسية كانت
استلمت كل شيء في السرايات واصبحت المرجع الوحيد للناس .

وهنا كان على رياض الصلح ان يعمل عمله بقوة وبحكمة ، متديبرا
مستقبلة السياسي وهنا كان عليه ان ينتقي حالا بين الحزبين الاكبرين
بالبلاد ، واي منهما يجب ان يحالف !

وكان من الطبيعي ان تنجحه افكاره نحو الشيخ بشاره الخوري وصاحبه

اعتبار ان الكتلة الدستورية هي التي لم تستنكر في لبنان التعاون الكامل مع العرب ، والتكاتف والتضامن وأوقوف معهم في وجه الاجنبي .

وكان اميل اده حتى ذلك الوقت لم يقل في هذا التصدد أكثر من أن لبنان مستعد أن يتعامل مع البلدان العربية كتعاونه مع باقي البلدان الصديقة ، ولم يكن قال ولا مرة أن لبنان يتعاون مع البلدان العربية ضد الاجنبي... .

هذا - كما قلنا - كان من الواجب أن يتعاون رياض الصلح مع بشارة الخوري في نهضته السياسية الجديدة ، وفي مبادرته للاشتغال بالسياسة اللبنانية ، بعد أن كان يشتغل دوما في ميدان السياسة العربية جمعاء بطريقة شاملة .

ولكنه لم يفعل ، ولم يكن يظن ان الوقت كان قد جاء للاتفاق مع بشارة الخوري ، حتى أنه لم يكن سجل على نفسه مرة واحدة في السابق تعاونا ولا اختلاطا سياسيا ببشارة الخوري ، بل بالاحرى - ومع عدته انظاهر للفرنسيين - كان أقرب للاستاذ اميل اده منه لبشارة الخوري !

ولكن ... عندما قامت الحرب ...

وعندما أخذ يقول - كسياسي بصير فهيم - أن هذه الحرب أيضا ستضع لبنان والبلدان العربية في كفة القدر عن جديد ، وأية حرب خسرها الحلفاء أو ربحوها ، لا بد من إعادة النظر فيها عند نهايتها من جديد في مصير هذه البلدان العربية وأنظمتها وأوضاعها ، عند ذلك كان من الطبيعي أيضا أن يفتش رياض الصلح عن زعماء سياسيين يشتركون معه بالرأي .

وكان رأي اده يخالف رأيه تماما ، وهو الرأي القائل أن فرنسا في سوريا ولبنان خالدة الى الابد ، لا يتغير معها شيء ولا يتبدل معها شيء ، رغم احتلال الالمان لبلادها . وهو لم يكن يشك مطلقا ان انتصار فرنسا في النهاية مضمون ، لذلك كان يقول أنه لا يجب التفتيش والتكهن عن أحداث جديدة تساعد على زوال النظام الانتدابي القائم

وطبعا ، عند هذا التفاوت في الرأي والفكر بين اده ورياض الصلح ، كان من لبديهي أن يتقارب هذا الاخير مع بشارة الخوري . وتكنسه

تقارب اصطدام بين الرجلين الكبيرين بعقبات كثيرة ، أهمها النفور الذي كان حتى ذلك الحين يستولي على اهالي المدن الساحلية المضومة جديدا لجبل لبنان من أبناء هذا الجبل ايا كانوا ولكن هذا النفور انقلب عند الاستقلال الى تعاون كبير لم يسجل تاريخ الجمهورية اللبنانية اشد وأوفى وأقوى منه ، خصوصا في السنوات الاربع الاولى للاستقلال ، وقبل أن يبدأ كل من هذين السياسيين الكبيرين يجرب دهاءه في رفيقه ، مما سنرى تفاصيله الرائعة الشيقة والتعسة معا في احاديثنا المقبلة ، ومما كان ولا شك ضربة المعول الاساسية والاولى في صرح رئاسة بشسارة الخوري بعد الاستقلال ...



وكما قلنا سابقا ، ساد انتردد والحيرة عند رجال السياسة في لبنان اثناء الاسابيع الاولى للحرب مما جعلهم اخيرا ، وقد اضطرتهم الظروف لاعتزال السياسة قدر الامكان ، يأخذون هدنة لانفسهم ، خوفا من اتوقع في زل ، وبدا فع جبن طبيعي ، قضى عليهم أن يترثوا لبيئنا يجدون طريق اتسلامة يمشون عليها .

انما بقي نشاط تلك الجماعة التي لم تتعب ولم تكل في التسابق وانتزاحم لتتقرب من السلطات الفرنسية ، التي اخذت ايضا تتغير وتتبدل في السراي الكبير من جنرال قائد عام لجنرال قائد عام ، وأكثرهم شهرة الجنرال ويغان الذي كان قد اضاع كثيرا من نشاطه وحسن بصيرته لتقدمه في السن .

وفي هذه التحانة ، وقد استلم الفرنسيون كل شيء تقريبا ، لم نعد نرى في سراي البرج سياسيا وطنيا واحدا !

اذ أن السياسيين بأجمعهم انتقلوا الى حيث انتقلت السلطة الحقيقية مباشرة في سراي المفوضية ، مما جعل أروقتها تضيق بهم ، وتضيق بوجه خاص برجال الاعمال الذين أخذوا ينتشرون يوميا فيها ، يسعون ويعللون انفسهم بالصفقات والتعهدات والمتاجرات التي كانت قد أخذت تنكأ في دوائر المفوضية الاقتصادية ، تلك الدوائر التي كانت تستأثر بجميع موارد ومرافق هذه الجمهورية .

وكانت الحرب قد جعلت دوائر الاقتصاد والاعاشة في المفوضية

مرتما جذابا فتانا للسمرات ولعقد لصفقات ، وبيع وشراء رخص
الاستيراد والتصدير ، فكان من الطبيعي أن يحوم حولها غربان المتاجرات
من رجال الأعمال وأهل السياسة الاستغلاليين ، يحاولون الكسب والنهب
بأساليب أبتتوا منذ الساعة الأولى أنها ماهرة حاذقة ، فكانت هكذا نوعا
من قيام مدرسة المستقبل التي اتقنت علم الكسب والنهب ، والتي
أخذ عنها المتاجرون النهابون دروسا كبيرة ، نفعتهم كثيرا في عهد
الاستقلال ، وجعلتهم من أمهر لصوص السرايات في العالم .

هذا الفن بلغ كثيرا من الاتقان في الدوائر الاقتصادية في المفوضية
في أيام السيو ركلو ، الرجل الفهيم آنذكي ، الذي استطاع أن ينقذ
القليل من كثير ، من الخيرات التي كانت تتدفق على تلك الصلحة . . .

وكان من الطبيعي أن نرى في وزارة الاقتصاد والاعاشة عندها
استلمنا بعد الاستقلال مصلحتها من انفرنسيين ، ورفعناها إلى وزارة ،
نفس انحرامية الكبار ، والمجوعين المخيفين ولصوص السرايات ،
اولئك الذين تلقنوا في مدرسة الدوائر الاقتصادية الفرنسية تلك الدروس
القيمة ، تساعدهم على نجاح عملياتهم المشبوهة الجديدة ، فيلبسونها بمهارة
لباسا نزيها جميلا ، يجعل الناس يعتبرونها أعمالا وطنية جليلة !

كل هذا سيأتي شرحه في هذه المذكرات عندما نصل إلى بناية اندعبول
بعد الاستقلال ، وعندما يصطف أمامنا في هذا الكتاب أسماء اللصوص
الكبار من سارقين عاديين مبتدئين ، ومن حرامية « جنتلمان » من
الذين يديرون اليوم قفاهم للدولة الجديدة ، ولا يسألون عن التهديدت
والتهم التي يسمعونها من هنا وهناك ، والتي تطالب بملاحقة جميع
الذين استعملوا نفوذ الدولة للارتاء . فهم مرتاحون فوق هذه الثروات
التي جمعوها ، يجلسون عليها ، ويعتبرون عن حق أنها حصن . حصين
يقبهم كل عدوان ، ويرددون في كل صباح ومساء القول المأثور : « المال
مهما كان قدرا يجعل صاحبه نظيفا وقريبا » .

على هذا ماذا يهمهم إذا قبل عنهم كل شيء سييء ورذيل ، طالما
أن صناديقهم ملاءى وبيوتهم عامرة ؟

فأي متى لهم يفسل المال العار ؟ وأي متى لم ينقذ صاحبه من
جميع السيئات والمفاسد وحتى الاثام ؟ ورب بنات مستهترات جعلهن
المسال عذارى !

« البطل على باريس »

وصلنا في سياق حديثنا الى بداية الحرب ، وهو وقت كان الكثيرون منا يسمونه «غرفة الانتظار للاستقلال» أو مرحلة ما قبل الاستقلال .

وإذا ما استعرضنا هنا حوادث ذلك الوقت ، نجد ان لا فضل على الاستقلال لاحد من الذين ادعوا أنهم عملوا الاستقلال . فقد كان عندنا استقاليون ، ولكن لم يكن عندنا مجاهدون عاملون للاستقلال . وحتى ولو كانوا عاملين مجاهدين ، لما كان بالحقيقة يطلع بيدهم شيء ، فانما الاستقلال كحساء مستعبدة صاحبها سيد سلطان قوي ، لا يمكن انقاذها منه الا برجل أقوى منه !

لهذا يمكننا دون ان نخطف انقول بأن هتلر هو الذي عمل الاستقلال عندنا ، وذلك عندما احتل باريس ، وجاءت اخبار هذا الاحتلال اليينا بطرق شتى وبلهجات مختلفة وبتهيج الكثيرون ، وكادت البسطة تزيين وتقيم المهرجانات . اوقامت المناحة ايضا في كثير من القرى والمدساكر في جبل لبنان ، وطبعاً ليس عند المسلمين ، ولا عند التجار الذين يريدونها دوما حرباً عنيفة يستثمرونها .

هكذا بكى الباكون ، وانتحب الناحبون على الام الحنون ، واخذت تتحقق مبدئياً نظرية بشارة الخوري ورياض الصاح ، انقائلة منذ اليوم الاول لبداية القتال ، ان هذه الحرب مهما كانت نتاؤها ، لا بد انها ستجعل العالم الدولي يعيد النظر في كيان البلدان الواقعة تحت الانتداب الفرنسي .

وأدرك السياسيون والنهباء الفاهمون من اللبنانيين والسوريين - بالرغم عن محاولة الفرنسيين هنا المكابرة ، والظهور بالسؤدد والجبروت - ان الفرنسيين لن يستطيعوا انبقاء أسبدا في بلدان الشرق ، وقد احتل الالمان بلادهم .

أدرك اناس جميعا هذه الحقيقة ، ما عدا الاستاذ أميل اده ، وبعض

أنصاره انذين وحدهم لم يسمعوها - أو أنهم عملوا أنفسهم أنهم لم يسمعوها - عندما اجتاحت هتلر فرنسا، أجراس الحزن تدق فيها أذنة بنهاية الانتداب في سوريا ولبنان وقائلة أن فرنسا لا يمكنها بعد هذا ان تبقى في بلدان الشرق .

وعلى هذا الاساس ، وجد بشاره الخوري ورياض الصلح ورفاقهما جليا الميدان مفتوحا لمعركة الاستقلال ، التي كانوا حتى ذلك الوقت يخوضونها من وراء الستار ، متمسكين بمعارضات وأسلحة معنوية ، ومناورات سياسية محلية ، مما لم يكن يشكل أية قوة ، طالما السنغاليون كانوا هنا في اثكنات وكانت المفوضية في السراي !

قلنا شاهد الرجلان الكبيران الميدان مفتوحا امامهما فولجاه . وكان احتلال الالمان لباريس فاتحة صفحة الامجاد الوطنية العظيمة التي وصلنا اليها بعد ذلك ، والتي رافقت رياض الصلح الى قبره ، ثم انتزعتها جماعة الانقلاب الاخير من بشاره الخوري ، وهو حي :

والان كيما نكون صريحين وجريئين ، يجب ان نتساءل ونقول :
- لو بقي رياض الصلح حيا ، هل كان جماعة الانقلاب استطاعوا ان ينزعوا عنه الرداء الارجواني للامجاد الوطنية ، كما انتزعوا ذلك الرداء عن بشاره الخوري ، وقد كان الرجلان الكبيران حتى قبل مصرع رياض الصلح بأيام فقط يديران هذه الدولة ويحملان مسؤولياتها ، ويعملان سياستها وأعمالها، وأم يكن باقي السياسيين فيها سوى جلاسا في القاطرة الثانية ، وهما في صدر القاطرة الاولى ؟

ويمكننا ان نتساءل ايضا :

- هل لو بقي رياض الصلح حيا، فهل كان يترك لاي انقلاب يقع يجرف بشاره الخوري كما فعل ؟ ألم تكن نسمعه دوما يقول حتى في اخر ايامه بعد أن ترك الحكم وخاصم رئيس الجمهورية ، ألم تكن نسمعه يقول عنه على طريقة قول المسيح عن المجذبية :

- هذا الرجل الكبير خدم كثيرا فيجب ان نغفر له كثيرا ؟ ..

لهذا نعود ونتساءل: لو كان رياض الصلح بقي حيا ، هل كان استطاع هؤلاء ان ينزعوا ذلك الرداء عنه ، وعن بشاره الخوري أيضا ؟

ثم هل كان المعارضون اشركوا في تهماتهم الفظيعة رياض الصلح
ايضا ، وهو الذي كان دوما في الحكم - وهو الحكم الذي يسميه اليوم
الانقلابيون « الحكم البائد الطاغى » يحمل مسؤولياته ومسؤوليات الرئاسة
باجمعها بحرارة وشجاعة نادرين ؟

كل هذه أسئلة كبيرة جدا ، جوابها عندنا في سياق هذه التذكريات
التي ستستوعب كل شيء ، والتي ستثبت ايضا ان الحركة الانقلابية ضد
بشاره الخوري كان موعدها الاول في صيف ١٩٤٩ ، يوم اجتماع المعارضين
الثوروي العنيف بصوفر تحت قيادة الوطني الكبير المغفور له عبد الحميد
كرامه . ولكن رياض الصلح كان لا يزال يومذاك حيا وفي سؤدده وقوته
وكان خصوصا يرفض مجازاة المعارضين في هجومهم وحملاتهم على رئاسة
الجمهورية ، لانه كان يعتبر دوما ان التجاوزات التي قامت في الدوايسة
هي نتيجة طبيعية تأتي مع كل استقلال جديد في أية بلاد كانت .

لهذا ، كان مثلنا ومثل الكثيرين غيرنا ، يعتبر أن بشارة الخوري
سيخلد في الرئاسة مع أن الخلود لله وحده .



وكان من الطبيعي بعد دخول الالمان الباريس أن يعتبر الناس أن
النتيجة الواقعية لذلك هي قرب فقدان فرنسا استقلالها اولا في سوريا
ولبنان ، واضعاف سيطرتها المطلقة ثانيا في امبراطوريتها الاستعمارية
مما ولا شك يتفق حالا مع فكرة السياسة العربية الواسعة الشاملة
المتحمسة في بيروت ،

واخذ رياض الصلح مع بعض المغالين بالعروبة من اصحابه ، يقودون
هذه السياسة ، يساعدهم ويشجعهم بوجه اولي التعاون الذي أخذوا
يلاقونه عند الانكليز ، والتعاون الذي أخذ يديه ممثا الدول العربية
بيروت ، وأخصهم ممثل العراق تحسين تقديري ، الذي كان يقوم بلاده
بدعاية وسيدة للصدقة التي تريدها للبنان . وكان امن الأكبر ظواهرها
ونائجها وقوف العراقيين في اكل المناسبات ، وعلى الاخص في المفاوضات
العسكرية والدولية مع الحلفاء ، بجانب اللبنانيين واستقلالهم .

وكانت ولا شك هنا الفرصة الاولية الواقعية التي انتهزها بشاره
الخوري ، ليفرض نفسه زعيما سياسيا وقائدا واقعيا للتعاون اللبناني

العربي مما كان له شأن كبير عند العرب والمستعمرين إذ ان صفة بشارة الخوري كزعيم ماروني كبير ، يماشى ويريد تعاون لبنان مع العرب ، قد اكتسبت القضية اقوة كبيرة عند الدول التي كانت الدعاية الفرنسية قد جعلتها تتصور أن لبنان أولا ماروني ، يجب ان يكون ذا اطابع افرنسي ، إذ ليس من ماروني كبير يريده عربيا ، حتى ولا متعاوننا مع العرب !

وأخذت تقوم ظاهرات هنا وهناك في الاندية السياسية وحول القنصليات العربية ، يظهر فيها مولد قضية جديدة رئيسية في لبنان ، هي قضية عربيته التي كان رياض الصلح بوجه اولي يحمل رسالتها ثم جاء في اذلك الوقت بشارة الخوري يشاركه في حملها .

او كان على الاستاذ ده في هذه الحالة أن يقف في وجه هذه اليقظة العربية الجديدة ، ويأخذ اكثر وأكثر جانب الفرنسيين ، طالما انه ظل يعتبرهم - رغم انكسارهم الحربي بفرنسا - القوة الوحيدة التي تنقذ لبنان مما كان يسميه «طغيان البلدان العربية» . وهذا الشيء كان هاجسه الاوحد ، يقلق مضجعه .

على أن وجود الفرنسيين بالبلاد - بنظر المنطقيين من الناس - كان قد اصبح وجودا موقتا جدا ، خصوصا وانفرنسيون هنا ، بعد ان كابروا بضعة اسابيع بعد دخول الالمان لباريس ، وتظاهروا بدوام السؤدد والجبوت ، استضعفوا اخيرا امام تشاؤم الاهلين ، يحاولون عشا اخفاء وساوسهم وجهات ضعفهم ويأسهم ، مما شجع الناس في البداية على اظهار استخفافهم بالانتداب ، فاضطر الفرنسيون رويدا رويدا أن يتبعوا سياسة لتقرب والتحجب من اهالي هذه البلاد - شأن كل الضعفاء الذين يرون انفسهم فجأة أقوى من أسيادهم ، فيستأسدون كليلهم ، ويجابونهم وجهالوجه ، ويتحدونهم ، ويطالبونهم بالتخلي عن الامتيازات والصلاحيات التي لهم .

واخذ المبادرة يومئذ سامي بك الصلح الزعيم السياسي المعروف .

اخذ المبادرة عندما طلع على باله - ذات مساء في اجتماع سياسي بمنزل قنصل العراق العام - فاخذ يطالب بالمصالح المشتركة التي في يد الافرنسيين ، ويدعو هؤلاء لتسليمنا السري الكبير التي كانت يومئذ مركز المفوضية السامية ومقر أركان حرب جيش الشرق ، وهو يردد

كلمته المشهورة بلهجته التركية : سراي كبير لنا ، سراي كبير لنا !

وطبعا ، وقف الرجل الرابع ومعظم الدستوريين مع المطالبين باعادة جميع الصلاحيات المحلية للبنانيين وهي صلاحيات كان الفرنسيون قد استأثروا بها في مفوضيتهم السامية واشتتسرك معهم بالمطالبة كبار « لئاسونالست » المسلمين اللبنانيين وأكثر عمال الانكليز ، ومنهم بعض اللبنانيين المارونيين الذين ينظرون الى بعيد في السياسة ، مما كان يجعلهم يؤمنون ان الكلترا في النهاية هي التي ستفوز !

ولكن ، اذا أميل اده ، في صراحته وطبيعته الجريئة التي لا يمكنها ان تخفي شيئا ، ظل كاشفا عن وجهه في سياسته وفي تعاونه الكامل المطلق مع الفرنسيين ، بالرغم من انهم كانوا حينذاك قد اخذوا منه كل شيء ، احتى رئاسته ، فان بشاره الخوري كان - كعادته في حالات مثل هذه - يضع قناعه التاريخي على وجهه ، غير تارك لاحد مجالا ليعرف خفاياه ، فلا يظهر منه شيء يخونه في مساعيه وتدابيراته الخطرة في سبيل نجاح سياسته الاستقلالية التحريرية ، وهكذا كان يحجب اعماله بستار كثيف عن اعين الفرنسيين وعمالهم وجواسيسهم .

وقيل يومئذ ان بشاره الخوري جبان ، عندما جاء وقت الجهاد ، وشاهده الناس يتوارى عن المسرح السياسي يستتر ويختفي ويلقي واجباته الوطنية من وراء الجدران وكان فعلا يفعل شيئا من ذلك عندما شعر ان هناك بعض الخطر عليه .

ولكن الملاحظين النبهاء لا قورباء ، كانوا يعرفون ما يعرفونه ، ولهذا نتكلم نحن اليوم ، ويتكلم اليوم خصوصا مارون عرب المستشير الشرقي للسفارة الانكليزية ، ويقول للناس لية مفاوضات ومخابرات كانت تجري في الخفاء بين بشاره الخوري ، القابع في بيته ، الخائف المضطرب ، كما كان اعداؤه يزعمون ، وبين اتخفاء ، وعلى أي اساس وطني حر كان يشتغل مع رفاقه ، وفي رأسهم كميل شمعون طبعا ، الذي كان صلة الوصل الافضل والاقوى بين « لئاسونالست » اللبنانيين وبين البريطانيين . وكان هؤلاء قد تعهدوا يومئذ انهم هم الذين سيحققون لنا الاستقلال .

العرب في لبنان

قلنا أخذت الدعاوة للعربية تتسع عندنا ، وتأخذ مكانتها المرموقة وتقوم بظواهرات كبيرة تزيد من قوتها ، وفيها الاستقبالات الكبرى في قنصليات مصر والسعودية ، وعلى الأخص في المفوضية العراقية برأس بيروت ، والعيد الرائع العظيم الذي أقامه رياض الصلح في بيته سنة ١٩٤٠ لذكرى مولد ملك العراق ، وصادف ذلك إبان حركة وثورة رشيد عالي الكيلاني في بغداد وقد وجد رياض الصلح بذلك العيد المناسبة لقبام تظاهرات كبرى ضد الفرنسيين تأييدا للمعرب وتقربا منهم ، وكان الكثيرون من الساسة المارونيين مثل أميل لحود وغيره قد جاؤوا من جبلهم يشتركون بتلك الحفلة العربية السياسية القحة ويطيرون للموك ورؤساء العرب همنياتهم لإعلاء شأن العروبة ، ولاستعداد لبنان للتعاون والاشترك في سياسة عربية استقلالية قومية واحدة مما كان معدودا في ذلك الوقت خيانة عظمى ضد لبنان وضد الفرنسيين .

وكانت هناءدبيرات ومشاهدات وطنية عربية متنوعة جعلت طبعاً جماعة الانعزاليين الأديين يظهرن قلقهم وخوفهم على لبنانيتهم وانعزاليتهم من وراء هذه التظاهرات العربية في لبنان ، التي لم يكن أحد يجسر على القيام بمثلها عندما كان الألمان الأيزاولون ببرلين ، وعندما كانت فرنسا حرة طليقة ودولة عظمى !

وقد كانت إذاعة برلين في مناسبة مثل هذه الظواهرات تذكي هذه الدعاية العربية الكبرى بلبنان ، وتزيد في حماسها ، خصوصاً ، عندما كانت تذكر وعوداً قاطعة هتلر بإقامة حلف لحربي عظيم ، يكون لبنان دولة مستقلة ، ولكن من أركانه !

وكانت هذه الأعود من الأسباب العديدة التي لا يرتاح لها كثيراً جماعة الانتهازيين اللبنانيين . وكانت تزيد في قلق الانعزاليين ، لا سيما بوعود هتلر كانت تجد تقديراً كبيراً عند الناس ، مما هو طبيعي في الوقت الذي كان فيه هتلر ينتقل من انتصار إلى انتصار .

زراعة الصوف في لبنان

وكان يديهما في سوريا ولبنان ، بعد احتلال الالمان لفرنسا ، أن يحسب الناس حساب الاحداث المنتظرة ، والتي أصبح من المحتم أن تقع . ولكن بانتظار ذلك كان بعض السياسيين اللبنانيين لا يزالون يعملون في السراي لخدمة الانتداب ولتأييده ، مما كان يجعل لهم خطوة جديدة عند الفرنسيين الذين كانوا يومئذ بحاجة كبيرة لكل تأييد يأتيهم من الأهلين ، مهما كان صغيراً ، حتى أنهم كانوا يطلبونه من أي كان ، ووصلوا لأن يعملوا مهرجانا طويلا عريضا للأمير خليل أبي اللمع بمناسبة تصريح نشرته جريدة صغيرة تافهة ، قال فيه إن لبنان يبقى مع فرنسا في السراء والضراء ، ولن ينفصل عنها أبداً !

قلنا ، عمل الافرنسيون مهرجانا للأمير خليل يومئذ في حين أنهم قبل ذلك ، عندما كانوا في سوددهم وجبروتهم ، كانوا يهزأون منه ومن كل تصريح يقوله ، وهو الرجل الطيب النبيل ، ولكن اساذج جدا في السياسة ، انما المحب كثيرا للمعالي لدرجة جعلته يطالب اميل اده باشراكه في حكومة جديدة كانت تتألف ، وكان يهدده بقوله الذي ذهب بعد ذلك محطاً للكلام عيد الهازئين من الناس - اما بشارة ، اما وزارة ! يعني او يعطيه وزارة ، او يمشي مع خصمه !

نعم ، كان الأمير خليل محباً للمعالي ولكن حسن السريرة جدا ، ومن بيت مجيد كان امرأه دوما حكاما في المتن . وكان غالبا ما تسبقه سذاجته فيقول أشياء مضحكة نوعا ، بالغ فيها خصومه الدستوريون ، وفي رأسهم الشيخ فريد الخازن ، حتى جعلوها لا تصدق - كقولهم مثلامن انه وقف ذات يوم امام فلاحيه في مزرعته بجوار الجوز ، يقول لهم : لماذا لا تزرعون الصوف ايضا ؟

وكان في ذلك الوقت ، بين المتعصبين الصميمين . للفرنسيين ، الشيخ

توفيق عواد ، يقف بجانبهم متحزبا عنيفا . وكان حضرته وعن عقيدة -
من القلائل ، بعد الاستاذ اده ، الذين ظلوا حتى الاخير أمعاء للفرنسيين
أوفياء لهم ، ذ ان أكثر اصدقاء الفرنسيين غيرهم كانوا قد اندأوا لهم
ظهورهم ، واخذوا يشمتون بهم ويفتشون عن أسياذ غيرهم أهم !

... تماما كما نرى اليوم أكثر الذين عاشوا تحت شمس الرئيس
السابق بشاره الخوري ، هم الان الأكثر ابتعادا عنه من غيرهم ، وأكثر
تهجما عليه من خصومه ، يحاولون التقرب والاستغلال تحت رداء
الرئيس الجديد .

وكان الشيخ توفيق عواد قد لعب دورا كبيرا في حياة خير الدين
الاحدب السياسية ، ولعب دورا كبيرا أيضا في حياة البطريرك عريضة
السياسية والمالية معا ، وهو الوحيد في هذا الشرق الذي استطاع
بالحظوة التي كانت له عند غبطته ، أن يعمل مال الكنيسة مالا له ، وجعل
مئات ألوف البطريركية رأسمالا لتجارته الخطرة ، التي انتهت نهاية
أفاسية سيئة جدا !

امام هذه الاوضاع ، ترك أميل اده رئاسة الجمهورية في نيسان
سنة ١٩٤١ .

وكان على الفرنسيين بعد أن ترك اده الرئاسة ان يجدوا خلفا له .
كيف وين ؟

طبعاً تم يفتكروا مطلقا بشاره الخوري .

وكيف يفعلون والرجل أصبح معروفا عندهم - كما كان شامبار
يقوله لنا - بمثابة عين « الدوننج ستريت رقم ١٠ » في لبنان .

اوأم يكن بالامكان استدعاء الاستاذ اميل اده عن جديد ، بالرغم ان
تصريحات الفرنسيين المتواليه لتي كانت تقول في كل مناسبة ان اميل اده
الصديق الوفي الامين والاقوى لفرنسا في هذه البلاد .

واخذوا يستعرضون اسماذ غير هؤلاء من كبار السياسيين ، اعلمهم
ينتفون منهم الرجل الذي يمكنه ان يكون اولاً للفرنسيين ، ثم يستطيع ان
يرضى العدد الأكبر من الناس ، في وقت أصبح رضى الناس عنهم ضروريا
جدا ، اذ انهم يحكمون عندنا بلادا غريبة ، بينما العدو يحكم بلادهم !

كما وأنه كان من الواجب أيضا ان يكون الرجل الذي يفتشون عنه ليس له حزبية معروفة ، تجعل خصومه يخفون له المشاكل والمشاغب اذ ان في ذلك للوضع انحرج الذي كانت فرنسا والبلاد اللبنانية فيه ، لا يجوز فتح المجال الحزبيات المحلية والمشاغبات السياسية تتصارع وتتذبح وتخلق الفوضى وتعبث بالامن .

لهذا كان الفرنسيون يترددون في الانتقاء . وقد افتكروا بكثيرين ، وقلبوا الحكاية على وجوه عديدة ، حتى انهم افتكروا برئيس لا بأس اذا كان غير مساروني

افتكروا بسليم تقلا . ولكن سليم تقلا كان يد بشاره الخوري اليمنى ، وكان من الصعب عليه ان يطلق حزبيته ائدستورية . وكانوا يعتقدون نه مع كل تعهداته التي قدمها لهم ، لن يخفي شيئا لمن بشاره الخوري اذا صار رئيسا ، ويكون ضمنا مربوطا به يعمل سياسته .

وافتكروا بابي شهلا بعد ان استامنوا منه أنه لن يكون لا لاده ولا لبشارة الخوري . وكان عطوفته قد اعطاهم كما هو معروف فيه ، جميع اتعهدات والضمانات عن ذلك ، ويومئذ اقال بشاره الخوري عندما عرف بالمفاوضات القائمة بين الفرنسيين وبين حبيب ابو شهلا :

— قد يفعلون جيدا ، اذ ان الصديق حبيب هو الوحيد اليوم في حداقته « الميكافالية » ، الذي يستطيع ان يوفق بين سياسة التمسك بابقاء التي للفرنسيين ، وسياسة الجلاء التي تدفع انكلترا بالوطنيين اللبنانيين الى اتباعها .

ولكن رئاسة ابي شهلا لم تتم ايضا ، مع انها كان بإمكانها ان تكون رئاسة جميلة ظريفة تعجب الناس ، حتى انها اذا اخطات اغتفروا لها زلاتها ، كما يغتفر العشاق للحسناء زلاتها ايضا ، اذ يكون جمالها شقيقا لها !

وايس اهذك لمن شيء يميز حبيب ابو شهلا عن المرأة الحسناء سوى ذلك الفارق الطبيعي المعروف . ولما من جميع الجهات الباقية فهو يشبهها تماما في اهوائه وحيله وتقلباته وتبديل قمصانه وجواربه ويفعل ذلك بنباهة وذكاء ، تجعل كل شيء يعمله ذا رداء جميل .

وقيل يومئذ بصدد التوجيه نحو رئاسة أبي شهلا ان البطريركية
المارونية احتجت ، وان الاستاذ اميل اده صديق الفرنسيين الدائم ،
وصديق أبي شهلا ايام الرئاسة ، ولم يكن يعتبر ان ارثوذكسيا في البلاد
من بعد الديباس ، يمكنه ان يبقى مع فرنسا الى النهاية ، لا سيما
وابو شهلا كان قد اقترن - كما كان منتظرا منه ان يفعل كرجل سياسي بعيد
البصر ، يراعي الظروف ويماشيها - بسياسة التعاون العربي الواسع
وهي السياسة التي نبغ حضرته فيها بعد ذلك في ايام الاستقلال ، واصبح
من قوادها الاولين .

قلنا ان الفرنسيين اكانوا تكلموا ايضا عن الامر خليل ابي اللمع ،
ولكن حكاية زراعة الصوف المنسوبة اليه كانت من الاسباب العديدة
والرئيسية لابعاده !

ولولا التقليل ، لجاء الفرنسيون يومئذ في حيرتهم بتوفيق عواد
للرئاسة ، ولكن ايضا حكاية تلك المئات الالوف التي كان البطريرك يطالبه
فيها ، بعد ان كان ابنه البار والوسيط الامين بينه وبين الفرنسيين .
وقد كان هؤلاء يستخدمونه في كل مرة يريدون من البطريرك شيئا ، مما
كان توفيق عواد يقضيه لهم مهما كان صعبا وعسيرا !

ولكن جميع هذه الفضائح لم تمنع ان الشيخ توفيق عواد ان يأتي
بعد ذلك في عهد حاكمية أيوب ثابت الموقته سكرتيرا للدولة ، يقوم
بوظيفة وزير للخارجية ، حيث ذهب في سياسته الودية مع فرنسا
والعدائية مع غيرها ، أمدا وسيعا ، جعل جميع دول الارض خصوما لنا !

وتوجهت الانظار لوقت ما الى الاستاذ العلامة المؤرخ المعروف جواد
بولس الذي كان الفرنسيون يجدون فيه كل المزايا التي يطلبونها للرئاسة ،
صداقته مع المفوضية ، مكانته المارونية القصية في زغرنا اده الحليم في
اللغة الفرنسية ، عدم تحزبه المحلي ، ولكن كان هناك حميد بك افرنجيه
عقبة كؤودة ، لا يرض بوجيه من زغرنا يتقدم عليه ، وكان الفرنسيون
يخشون حميد افرنجيه ولا يريدون اغضابه ، بل يعملون دوما لاكتسابه .

وأخيرا وصل المطاف في تفتيش الفرنسيين عن رئيس جديد للسي
الاستاذ الفرد النقاش

والمحقيقة ، لم يكن في البلاد يومئذ مثل هذا الرجل الكبير بسين
ألوارة حيايا لا حزبية له ، وبالوحيد بين كبار رجالات هذه البلاد
الذي أخذ نفسه خلال العشر سنوات التي كانت قد مضت حينئذ
على حياته السياسية من الانحياز لأحدى الجبهتين ، اللتين كانتا قد
شققتا البلاد الى شقين : جبهة اده وجبهة بشاره الخوري .

والنقاش قضى حياته في اقضاء نزيها أبيض الصفحات ، وجاء
الفرنسيون به للرئاسة في ايار ١٩٤١ ، صديقا لفرنسا ، ولكن
غير مؤمن لدرجة ايمان الأستاذ . ده في بقائها قوية وجبارة ، تستطيع
ايضا أن تفرض التي النهاية التدايها علينا ، وانها في هذه الحرب تبقى
ساملة ، ليس بمستعمراتها وبلاد المشرق المنتدبة عليها فقط ، بل
ايضا ببلادها !

لهذا تسنم النقاش الرئاسة من هنا ، واخذ يعمل سياسة لبنانية
محضة حالا ، بمعزل عن كل نزعة سياسية اجنبية . وكان يفعل ذلك ،
واضعا أمام عينيه ان الفرنسيين لا يزالون في البلاد ، وانهم هم الذين
عينوه للرئاسة . على هذا يجب عليه أن يندري مصالحهم ، وان يحاول
بكل الطرق لتوفيق بين مصالحهم وبين المصالح الوطنية ، وايضا بين
بقائهم وبين ازدياد الروح الاستقلالية عند « الناسيونالت » اللبنانيين
كل يوم اكثر من اليوم الذي قبله !

وكان الانشقاق العام القائم بفرنسا بين الفيشيين والديغوليين قد
وصل لهذه البلاد ، فانشق الفرنسيون هنا على أنفسهم ... ايضا

وهكذا ، بعد ان كانت المفوضية السامية تهتم سياسيا بايجاد
اصدقاء بين الاهلين ، وبرد غائلة « اناسيونالت » اللبنانيين العرب عنها
أخذت ايضا تهتم وبنوع خاص ، بعدم وصول الفرنسيين انفسهم هنا
الى التشابك والتداح !

وكان قد ظهر ذي غول في جوشه في صحراء ليبيا ، ومقره العام
بلندن ، وعماله في فلسطين على الحدود اللبنانية .

وهذا ما جعل بالاحرى وبطريقة خاصة ، الرئيس الجديد
الاستاذ نقاش يعمل في البلاد سياسة لبنانية ، تفترض ان عليها وصاية

فرنسية فقط ، لا فيشسية ولا دى غولية ، مما كان في غاية الحكمة ومما جعله لا يتورط مع الفيشيين مطلقا عندما قامت الحرب بينهم وبين ايلفء واخذ الاستاذ نقاش يعمل في البلاد سياسة لبنانية ، تفترض ان عليها وصاية ايلفء باجمعهم . وكان موقفه جريئا جدا عندما اخذ الانكليز يضربون بيروت جوا و جنود فيشي فيها تقابلهم بالمثل برا ، فتقدم حضرته بمذكرته الشجاعة المعروفة ، التي لم يكن احد ينتظر ان تصدر عنه ، والتي غامر فيها بحياته ، وتعرض من ورائها بحبل المشنقة وقد طالب في هذه المذكرة ان يعلن الفرنسيون بيروت مدينة مفتوحة وان لبنان لا شأن له بالحرب الواقعة في اراضيه ، وانه لا يأخذ جانب احد من الاجانب .

واخذ الناس عندما عرفوا بهذه المذكرة ينتظرون في كل دقيقة من الجنرال دنز القائد العام والمفوض السامي الشديد العنيد ، انقبض على النقاش واحاطته للمحاكم العسكرية الفرنسية ، او على الاقل فصله من الرئاسة واعتقاله .

وبكنا كنا مفسوشين كثيرا بحقيقة هذا الرجل ، ايجنرال دانز الذي كنا نحسبه ظالما غدارا ، فاذا به يثبت في هذه المناسبة نبالة واخلاص القائد الصادق ، الذي يحترم حريات وحقوق الغير ولو كان في ذلك الاعتداء على حقوقه كقائد عام وكحاكم مطلق في هذه البلاد .

وهو على هذا الاساس استكبر بالرئيس نقاش هذه الجسرة ، وضرب باقوال مستشاريه السياسيين والعسكريين عرض الحائط . وقد كانوا اخذوا يطالبونه برأس النقاش ، واكتفى فقط بان اظهر غضبه عليه وامتنع عن الجواب على المذكرة .

قلنا ، كان بشاره الخوري وصحبه يعرفون ، قبل ذلك بوقت طويل ما كان يتدبره الانكليز من مهاجمة سوريا ولبنان ، لهدارنا هم يتوارون عن الميدان السياسي خلال الاسبوع العديدة التي سبقت هجوم ايلفء على الجنوب اللبناني والحدود السورية في حزيران ١٩٤١ ، فجاز عند الملاحظين عندئذ الاعتبار ان هناك حلقة مفقودة في نشاط بشاره الخوري الخوري اثناء اعتزاله السياسي القصير الامل جدا وستر وجهه - الذي

كان قد غطاه بقناعه المعروف للظروف القاهرة وذلك لوقت ما .

وحالا عندما انتهت الحرب باحتلال الحلفاء للبلاد ، كشف بشاره الخوري عن جبينه ، ورفع قناعه المذكور ونزل مع صحبه الى الميدان السياسى يساندهم فى ابدائية وبكن بطريقة كتومة - الانكليز ائى اىنهاية وعلى طول ، والدي غوليون لوقت قصير ، اى الى اوقت الذي تباورت فيه سياسة بشاره الخورى وصحبه الاستقلالية اىناجزة ومطاببتهم الصريحة باخراج فرنسا من هذه ابلاد .

السياسة السعودية تظهر في لبنان

لقد قاربنا من نهاية هذا الكتاب الاول ، ولم نخش ان يتعب اناس من قرائتنا ، اذ اننا نجىء على ذكر الاحداث واحداث بطريقة مقتضبة وبطيفة وجذابة يجب ان تكون جعلتهم يستزيدوننا من مثل هذه المذكرات .

وقد حاولنا ان نضع في هذا الحديث الكثير من ذكرياتنا السياسية الشجية الطريفة المستغربة عن ايام الانتداب منذ سنة ١٩١٨ ، اى اليوم الذي قصفت فيه طيارات الانكليز بقنابلها العاصمة اللبنانية ، معلنة باسم فرنسا ابدغولية استقلال سوريا ولبنان ، وانتهاء الانتداب الفرنسي فيه مما جعلنا نقيم تظاهرات خطابية ومهرجانية بالاستقلال، وللتحارم مع العراق الدولة العربية القوية التي هبت يومئذ بنوع خاص لمساعدة لبنان في حركته التحريرية . وقد كانت بوادر نهضتنا الاستقلالية بدأت تظهر بدون خوف ولا وجل متحدية بشجاعة الفرنسيين الحاكمين بالبلاد حكما عسكريا .

وطبعا وجدت السياسة السعودية التي كانت على نزاحم متتابع مع العراق ان تكون حاضرة ايضا بيروت لئلا تنفرد بسياسة العراقية في النهضة التحريرية القائمة بلبنان ، والتي اخذت جميع الظواهر تقول بفوزها اقريب جدا ، لا سيما وهي قد تخلق للعراق اتصلا سياسيا مع لبنان مما يخاف سياسة ابن السعود الاساسية ، ابتي اشتغلت دوما لمنع كل تقارب بين العراقيين والسوريين والاردنيين دون اتصاليهم ووحدتهم ، وعلى الاخص اتصلا ووحدة لبنان معهم .

واخذت السياسة السعودية تشتغل لكسب الزعماء بيروت ، وذلك على منوال ما كانت العراق قد فعلته واكثر ، واخذ الامراء السعوديون لاول مرة ينزلون في هذه البلاد ويحضرون مهرجاناتها السياسية ويظهرون من ضروب اسخاء ، ما يكون يوما ثروة كبرى للبنان .

ولا شك انه كان من الطبيعي ، طالما ان خصوم الاستاذ اده كانوا قد اتخذوا القنصلية العراقية ببغروت محجة لهم وملتقى لوطنيتهم وحركتهم التحريرية ، ان تكون السياسة السعودية صائبة افكر، عارفة للواقع لما بدأت سياستها الجديدة بلبنان في محاولتها جعل الاستاذ اده يكون من زبائنها الاولين ، مما قد يتنافى مع نزعة نوعا ما نحو الانتداب ، ولكن مما لا يتنافى مع مبادئه السياسية اللبنانية الانعزالية ، اذ ان السياسة السعودية بطبيعة الحال تريد لبنان مستقلا استقلالا تاما عن سوريا والبلدان العربية الاخرى ، مما يتوافق مع سياستها العربية العامة في محاربة كل اتحاد يقوم على حدودها، ويستطيع به خصومها الهاشميون او السوريون التوسع والزيادة في القوة .

وجدت مفاوضة السعوديين في البداية مع الاستاذ اده ترحابا وطبعا - وكما كان منتظرا ، خابر حضرته افرنسيين بما يعرضه السعوديون عليه وافر هؤلاء الرأى، وقالوا للاستاذ اده بوجوب ان يذهب في تلك المفاوضات مع السعوديين الى اقصى حد ، ولا سيما وهم يزيدون في شقة التفرقة بين السعوديين وبين الهاشميين ، مما كانت فرنسا تستغل له وتريده دوما خوفا على انتدابها في سوريا ولبنان من وحدة عربية عسكرية وسياسية متحدة !

ولكن كان بشاره انخوري وكان رياض ائصلح بالمرصاد يستكشفان اخفايا ، ولا تفوتهما بادرة . وكان من المستحيل او من الصعب جدا محاولة اغتيال هذين الرجلين ، وجعل مسعى كهذا يخفى عليهما ، بذلك اسرع كل منهما لوحده - اذ ان كلا منهما كان حتى ذلك الوقت يشتغل لنفسه ومنفردا ، وربمادون ان يكون يعرف ما يعمله الاخر . قلنا ، اسرع كل منهما الى قطع السبيل على السعوديين والسى استلامهم قبل ان يصلوا مع الاستاذ اده الى اي اتفاق .

وطبعا ، كان ولا بد بشارة الخورى ورياض ائصلح ان يتلاقيا اخيرا في سياستهما المتجانسة ، وفي هذا التلاقي بدأ اتعاون السياسي الخارجي بينهما في البداية ، الى ان جاء الوقت الذي قام فيه ذلك الكامل التعاون المحلي ، الذي جعلهما يحكمان في هذا البلد مدة ست سنوات وثيف ، ذلك الحكم الذي كان يحطم كل من كان يقف بوجهه تحطيمًا كاملا .

وفي ذلك التلاقي بالسياسيين ، صار رياض الصلح وبشاره الخوري
وصحبهما سعوديين اكثر من عراقيين !

وظل اميل اده مع فرنسا وحده .

وظلت فرنسا هنا لاميل اده وحده !

اذ يجب انقول ان السياسة العربية ، سعودية كانت او عراقية ،
التي ظهرت في البلاد عندئذ ، بعد ان أصبح الانتداب هزيبا لدرجة
لا يستطيع الوقوف بوجهها ، وبعد ان صار للقنصل العراقي او السعودي
او المصري دولة وسلطة ضمن هذه الجمهورية . نعم هذه السياسة
العربية ازعجت الانعزاليين في اوساطهم واديرتهم واخذوا ينظرون
الى كل ماروني يشتمغل بالقضية العربية نظرتهم الى رجل يخرج عليهم
وينفصل عنهم ، مما ادى هكذا الى فتح هوة سحيقة بين الاديين والاديرة
التي تساندتهم طبعاً ، وبين بشاره الخوري وجماعة الستوريين ، انعامين
على مد جسر بين لبنان وبين العرب - انما ليكون جسراً فقط ، لا قواعد
متينة له ، يمكن هدمه عند الحاجة بمجرد اي اصطدام !

عندما تساوى السلاح بين البلبين

في ذلك الوقت ، وقد خرج أده من الرئاسة ، وعاد الى الحياة العادية ، اعتبر الناس ان السلاح تساوى بينه وبين الشيخ بشاره الخوري ، فلم يعد آده يسيطر على السراي وموظفيها وجنودها ، ويستخدمهم بوجه خصمه .

واكن الشيخ بشاره الخوري كان من جهة اخرى قد اخذ يزداد قوة وحصانة ، بقدر ما كان يزداد حزبه عددا ، ويقدر ما اخذ المليونير يزدادون ايضا حوله وهم الذين كانوا قد راهنوا عليه ، وربطوا مصيرهم بمصيره .

فانما هنا يجب ان تأتي للقراء بهذه الملاحظة الحققة الصادقة ونقول بصراحة ان عددا من كبار رجال المال والاعمال الذين كانوا يختلطون بالحياة العامة وهم مضطرون الى ذلك بسبب ارتباط اعمالهم نوعا ما بالحكومة وهم يطمعون في مضاعفة ثروتهم ، احاطوا ببشارة الخوري ، الشمس اطاعة احاطة اسوار بالمعصم ، وجملته بمثابة فرس رهان ، يقامرون عليها متوخيين فوزها والربح الكثير من وراء نفوذها وقوتها .

وكان عددا عن بنك فرعون وشيخا ، جماعة الكنائيين والشقيريين والفتال وغيرهم ، قد كبروا جدا في الاعمال ، وسيطروا عليها في البلد ، وكانت موائيق اخرى ايضا اجتماعية وعائلية وحزبية اخذت تربط بعضهم ببشاره الخوري ، مما خلق له هكذا قوة من رجال الاعمال والمال يمكن عن طريق تايمدها له ان توصله الى اشياء كثيرة جميلة وعالية .

وكان على الاخص الشيخ فؤاد الخوري قد سجل لنفسه صفحة كبيرة في عالم الاشغال ، فصار من اقطابها الاولين . يشرف على اكبر محلات بيع مواد البناء في البلاد واصبح ايضا مساهما محترما في

شركة ترابة شيكا .

وكان عدا عن محبته الاخوية ، معجبا جدا بشقيقه ابيشيخ بشاره الخوري ، يقدره قدره ، فكان من الطبيعي ان يضع تحت امرته كل الاموال التي يحتاجها لحياته اسياسية وذلك بيد مبسوطة .

فانما عندما ظهر بشاره الخوري في الميدان السياسي لم يكن ينقصه غير السعة ، كما تمتد سيطرته ويقوى شأنه ، اذ ان الله كان قد حياه بنباهة كبرى وقوة عارضة ممتازة وسعة اطلاع وحكمة ، وتراه بعد ذلك يجد في يوفيا ذلك هؤلاء المليونيرين بجانبه ، قريين جدا منه ، كما وانه من جانب آخر وجد وراء عنقوده السياسي الشركات والمصارف والبيوتات التجارية الكبرى المعروفة ، تتخذها وكيفا محاميا عنها ، ومنها بنوع خاص وكبير بنك مصر وسوريا وبنان ، وشركة ترابة شيكا ، وهي شركة كان له ولشقيقه بطريقة معلومة اولية الفضل الاكبر في اتقادها من ايدي اليهود الذين كانوا قد وضعوا عليها « اوبسيون » ، اي نوعا من الافضلية لهم في شرائها ، وذلك عندما اراد البطريك بيعها وقت اشتداد الازمة فيها ورزحت تحت اثقال انديون ، وكادت تعلن افلاسها .

ولكن كان في ذلك الزمان رجل اعمال اتصف بالبصيرة الوفادة والخبرة التجارية اكاملة ، والوطنية الوديدة الساكنة ، كان هناك درويش الحداد الذي اسرع لتدبير هيئة مالية سويسرية كبرى تخصصت باستثمار شركات الترابية في العالم ، واخذت صيتا عاليا في الاستقامة وجميل المعاملة فجاء بها درويش الحداد الي لبنان تشتري شركة شيكا عن طريق ابيشيخ بشاره الخوري كوكيل محام ، وعن طريق الشيخ فؤاد الخوري كاحد المساهمين بمحلات درويش الحداد .

وتكاتف الثلاثة الكبار وتضاموا ، وظلوا على البطيركية يظهرن لها الاضرار التي تنزل بالبلاد اذا تنازمت عن شركة الترابية لليهود ، وجعلوا من جانب اخر الهيئة السويسرية تتقدم لغطته بعروض موافقة جدا مما جعل البطريك يترك ايهود ويبيع اسويسريين ! وكانت يومذاك بداية حرب بشاره الخوري لليهود وللصهيونية وهي السياسة التي تابعها بعد ذلك بكل ايمان وبشدة وعنف . وكان ايضا شراء شركة شيكا السويسرية ، فاتحة ازدهار البناء في لبنان

لدرجة متناهية ، اذ لولا ترابنة شكالما كانت هذه النهضة الكبرى التي جعلت عدد البنايات والمسكن في هذه البلاد يتضاعف . وكنا نريد ان نتكلم باسهاب عن هذه اشركة واذك لانها كانت نقطة الانطلاق في الحملات والتهجمات التي قامت على بشارة اخوري ، من جانب خصومه وقد جعلوها العلام الذي يرمونه بسهامهم مشرين فضائح اكثرها كاذبة حول حماية مزعومة يفرضها بشاره الخوري على تلك الشركة ، مما كان ملفقا ومختلفا ومما كذبتة الايام ، اذ انه لم يات وقت من الاوقات جعلت فيه الدولة استيراد الترابنة الاجنبية ممنوعا او انها وضعت عليه رسوما جمركية كبيرة كيما لا يعود الناس يستوردونه وكيما يخلو الجو لترابنة شكا تتحكم بالبلاد ، ويمكن بالمناسبة القول ان جميع الحملات التي قامت على الشركة كان المقصود منها بالاكتر النيل من بشاره الخوري اذ انها كانت نقطة حساسة في حياته السياسية .



وقد اردنا هنا ان نثبت ان بشاره الخوري واخاه قد استطاعا عن طريق درويش الحداد ، الذي زوج حينذاك ابنته الكاملة الحشمة والشرف والوريثة الكبرى الى الشيخ فؤاد الخوري - اردنا ان نثبت بالوقائع التاريخية ، ان هؤلاء الثلاثة الكبار انقذوا شركة شكا من اليهود مما يجب ان يعرفه الناس ، ومما هو خدعة وطنية عظيمة كبرى ثم وضعوا الشركة بيد هيئة سويسرية ما رأينا منها غير الحسن وجميل الاستعداد بخدمة البلد ، وقد تفردت هذه اشركة خصوصا بمعاملة عمالها بطريقة جعلت هؤلاء يضمنون لانفسهم السكن والغذاء وانكساء على افضل سبيل ووجه .



ولكن لنعود الى ما كنا نريد قوله سابقا . قلنا ان بشاره الخوري وجد نفسه قبل اشهر من بداية الحرب الاخيرة قد مشى شوطا بعيدا في عالم السياسة ، يجعله ينظر الى رئاسة الجمهورية نظرة الرجل الذي سيأتي دوره اليها قريبا .

وهذا الاعتداد بالنفس دفع به الى الامام كثيرا ، بعد ان خلق له جمهرة من اهل السياسة واهل الكمال والاعمال كقاعدة سياسية مادية

قوية جدا يركز عليها ، وقد كان بحاجة لها ويتمناها في وقت فتحت أبواب السياسة ذراعها لاحتضانه ، ولما كان يدعو له لان يكرس عقله وقلبه لها ولكنه في الضائقة المالية التي كان يعانيها أولا لم يكن يستطيع ان يصرف جميع جهوده لذلك الهدف ، حتى جاء هؤلاء المضاربون المراهنون عليه ، فأمن نوعا اخطار تلك الضائقة ، واخذ يخرج من انحدر الذي كان يساوره ، وحمل شجاعته بكلتي يديه ، ونادى : الى الحرب !

وكان بشاره الخوري قد مشى بعيدا في سياسته العربية على اساس ان يكون لبنان مستقلا ، ولكن متعاوننا الى اقصى حد مع العرب ، مما لم يكن الفرنسيون والبنانيون المتمشون على سياسة الانتداب يقووناه او يريدون استماعه .

وهذا القول لبشاره الخوري - ولربما كان نوعا من الاساليب السياسية التي اعتاد عليها لاكتساب الانصار - هو الذي جعل المسلمين تقريبا في كل مكان يحبذونه ويصبحون قريبين منه ، ويريدون تأييده .
وكان رياض الصلح يقول :

« انا نست متعصبا ، ولكن اذا كان لنا ان نتحالف مع الموازنة ، فاتحالف مع بشاره الخوري فيه شيء من خدمة العروبة والاسلام . »

ومع ذلك لم يكن رياض الصلح قد تحالف حتى ذلك اليوم مع بشاره وليست فقط تظاهرات الشيخ بشاره الخوري للعروبة ، وقوله بالتعاون اللبناني العربي اوسع - ليس هذا فقط جعل المسلمين - يحبذونه ويريدون مماثاته ، بل ايضا كانت هناك ميزت استحباها المسلمون فيه وجعلته قريبا منهم .

كان بشاره الخوري يخطب ويتكلم العربية ببلغة ممتازة ، ويستشهد بالشعر وباقوال كبار الكتاب ، ويحفظ آيات القرآن بفصاحة كبرى ، ولم يكن متفرنجا شأن الامتياز ميل اده ، الذي كان كل شيء فيه وفي حديثه دوما يجعل الناس يعتبرونه باريسيا محضا !

هذه الاشياء لها وزن كبير عند المسلمين وقد جعلتهم معجبين باشيخ بشاره الخوري ، يتأسفون علنا انه ليس مسلما ، ولم يكن خصمه يعرف العربي الا القليل جدا ، ولم يكن حافظا للايات الكريمة ولا للحديث

الشريف ، مما كان يحفظها وترديد ما عند بشاره الخوري شأن سياسي اسلامي كبير .

وهكذا أصبح بشاره الخوري بنظر الفرنسيين بعد ظهوره بمظهر الاستقلالي اللبناني العربي ، رجلا عاصيا متمردا على تقاليد الام الخنون .



قلنا ، كان رياض الصلح من النواحي الوطنية والعربية يقول ما يقوله بشاره الخوري تماما ، مما كان يجب ان يدعو لتتحالف معه ، وللابتعاد عن خصمه ، ومع ذلك لم يكن قد فعل لشيء حتى ذلك الحين بل كان بالاحرى صديق الاستاذ اده ، دون ان يشاركه بارائه السياسية الانعزالية .

وعندما سئل رياض الصلح بعد الجلاء ، عقيب ان تحالف ذلك التحالف القوي المتين مع بشاره الخوري - عندما سئل لماذا كان يتباعد عنه في الوقت الذي كان فيه يشتغل بشاره الخوري للاستقلال وللتعاون مع العرب ، والجلاء الاجنبي ، وهي الاشياء التي كان رياض الصلح يجاهد لاجلها ، قال بظرفه المشهور ومجونه السياسي المفاجيء :

- كيف استطيع اقناع اده بان ينحاز الى مبادئنا ، لو تظاهرت بالتعاون مع بشاره الخوري ، وكل منهما لا يقول قول الاخر ، مهما كان القول منصفا وعادلا ؟ واية طريق مشى عليها اده ولم يمش بشاره الخوري بطريق غيرها ؟ فهما يتعاكسان دوما في كل الاشياء حتى انه لو كان بشاره الخوري مع الفرنسيين لكان اده - لربما - اخذ مكانه مع العرب .

فانما اده والخوري اختلفا على كل شيء واتفقا على شيء واحد : وهو اشتغال كل منهما لاقصاء وابعاد الاخر عن كرسي الرئاسة !

برافو كوستيتي

رأينا في تلك الايام ، بعد ان عقد الفرنسيون الهدنة مع دول المحور سلسلة لا عداد لها من كبار رجالات هذه البلاد اشجعان الصريحين في المناسبة ، يصطفون ساعات طويلة على مقاعد لوكنده « المتروبول » ببيروت ، وكانت قد استرجعت بعد انتصار الالمان وانحلال دولة الانتداب - اسمها - الالمانى القديم : « دويتشهوف » اي اللوكنده اجرمانية ، وهو اسم كانت هذه اللوكنده خلال الاربعين سنة الاخيرة تضعه على الرف في المرات العديدة التي كان الالمان يفشلون فيها في حروبهم او سياستهم ، ثم تعود تضعه في اواجهه في كل مرة كان الالمان يستظهرون فيها .

قلنا ، رأينا ذوات البلاد يصطفون هناك بعد هدنة فرنسا مع هتلر واليطليان ينتظر كل منهم دورة ليقابل السفير الالمانى ، فون هنتش مبعوث هتلر السامى الى هذه البلاد يستقبلهم على باب قاعة الانتظار صديقنا القديم ، المرحوم الهر رولاند ايلندر الملقب بابي علي (وقدمت سنة ١٩٤٨) وكان اهاني بيروت والجبال يعرفونه قبل ذلك تاجر المانيا وديعا لطيف المعشر ، حسن المعاملة ، قريب للاهلين لدرجة انه أزوج ابنتيه لمواطنيين كريمين أحدهما الصحفي المعروف الاستاذ عفيف الطيبي .

وكان محبوبا من الناس ، وذلك من جراء تصادقه مع الاهلين ومعرفته لفة البلاد ، وتقربه لقبضايات المسلمين الذين كان له بينهم اصدقاء عديدين . وهم الذين اطلقوا عليه لقب أبي علي تحببا وملاطفة .

وفجأة عندما وصل الالمان لباريس ، وعقدوا الهدنة يطبقونها في كل امكان فيه جندي افرنسي ، وطبعا في سوريا ولبنان ، ظهر ابو علي على المسرح كضابط اتصال بين السلطات الالمانية وذوات البلاد في سوريا ولبنان وكحارس لرأس السفير الالمانى وقائد لحرسه اخاص العلنسي والسري .

وأخذ ابو علي يحكم بأمره ويستطيع لو شاء ان يرسل للجسس
وللمشقة أيهم يريد من الرجال . ولكن صداقته مع الناس جعلته ينقذ
الكثيرين من الحبس والاعتقال ممن كان الالمان يشتبهون بهم .

ولا نرى هنا موجبا أن نذكر أسماء ، ليس الناس العاديين ، بل
ايضا الأبطال الوطنيين انذين كنا نراهم قد اخذوا يحيطون بابي علي بذلة
وتصاغر طالبين وساطته ورضاه ، مكتفين بابتسامة منه خاطبين وده ،
يسمعون لاحاديثه الفكهة باحترام واعتبار ، ولا سيما وقد كان بينهم
بنوع خاص اولئك الذين كانوا قبل الهدنة ينادون بسقوط المانيا وهتلر .

كانت الحال هكذا مع ابي علي ، فكيف مع فون هنتش سفير هتلر
الذي كان ابو علي يحرس رأسه لا يدخل احد عليه الا بالمره وبموافقته .

ولم يكن يتراخض الى فون هنتش فقط اصحاب اشجاعة أولئك
الذين كنا نشاهدهم في وضع النهار يصطفون بلوكندة « دويتشر هوف »
برعاية ومراقبة الهر ايلندر ، بل ايضا كنا نرى بعض كبار الأزعماء
اللبنانيين الذين كانوا يفضلون التستر ، لربما عن خوف وحذر ، حاسين
حساب المفاجآت التي قد تجيء - يأتون السفير الالمانى في ظلام الليل ،
يفاوضون ويؤيدون ويؤكدون ولائهم الفهرر ، واكثرهم مخلص بقواته
وتأكيده ، وعلى الاخص المسلمون منهم .

وكان هناك أيضا زعماء وسياسيون ومطارين مواردنة ممن عرفناهم
قبل ذلك متشيعين متعصبين للانكليز والفرنسيين ، يذهبون للسفير الالمانى
يقيدون اسماءهم عنده في سجل الموالين للنازية وهتلر ، وقد كان فون
هنتش المندوب فوق العادة ، جاء الى هذه البلاد بعد ان مهد له الطريق
الممثل الالمانى الاقتصادي الهر روزر ، الذي كانت برلين عينته بعد الهدنة
قنصلا عاما لالمانيا عندنا .

وبعد مضي بضعة أسابيع على وصول فون هنتش الى هذه البلاد،
اكمل الاتصال بالشخصيات العربية والهيئات السياسية
الوطنية ، ورجال الدين المسلمين ، وكان على الاخص يتبع
باتتياه كبير اعمال المفوضية العراقية في هذه البلاد ، ومهمته الاساسية
مراقبة اهواء العراق وانتقاضه على الانكليز ، وتدبير الثورة فيه على
هؤلاء الاخيرين . وكان على فون هنتش مهمة كبرى في تدبير الثورة التي

قامت بعد ذلك على الانكليز بالعراق في أيام رشيد عالي الكيلاني .

وكانت هذه المهمة دقيقة جدا تدبرها فون هنتش ببراعة مدهشة وكان عليه أيضا القيام بمهمة تكذيب الدعاية التي أخذت تقوم بهما - على مدى واسع - لجنة الهدنة الطليانية التي جاءت بيروت قبل ذلك وكانت قد وصلت الاخبار لبرلين ان تلك اللجنة الإيطالية العسكرية التي كانت مهمتها الرسمية تطبيق شروط الهدنة في جيش الشرق افرنسي ونزلت في لوكندة النورماندي ولكنها ما كادت تستقر هناك حتى فتحت أبوابها تستقبل الناس من مجذنين ومتوددين وملاحظين، وأخذ يهبط عليها من جبل لبنان رهايين الاديرة والصوامع ويجيئها من القرى السحيقة والقرية العدد الاوفر من النصراري ، يتظاهرون لها ويؤيدونها باعتبار ان روما مركز الكتلكة وعاصمة المسيحية ، وباعتبار ان ايطاليا المنتصرة هي بعد فرنسا صديقة وحامية النصراري في الشرق !

وكانت دعاية موسولينى في هذه البلاد قبل الحرب عملت الكثير واخذت مكانة مرموقة ، واصبح كثيرون هنا يتقنون بما كانوا يرونه من عزها ، ونلمجالي القوية التي كانت تظهر فيها بقوة ايطاليا وجبروتها حتى ان عددا كبيرا من زبائن فرنسا اداروا وجوههم نحوها !

قلنا ، وصلت الاخبار الى برلين ان اللجنة الإيطالية لتطبيق الهدنة تقوم عند الناس - وعلى الاخص عند الموارنة ورهابينهم - بدعوة كبرى لتحييد انتداب ايطالي بلبنان ، يخالف الانتداب الفرنسي ، تطبيقا لشعار موسولينى المشهور ، وهو الشعار الذي كان قد وضعه قاعدة سياسته الاستعمارية على ضفاف البحر المتوسط عامة ، والقائل : «البحر المتوسط لنا» .

وأخذ الدعاة يفدون على النورمندي ، وبأجمعهم من المسيحيين ، وأنم نلاحظ أننا شاهدنا مسلما أو درزيا واحدا دخل تلك اللوكندة يومئذ وقابل أو أظهر رغبته بمقابلة القومسيون الطليانسي ، بل كنا نرى ان المسلمين والدروز يتحاشون حتى الدخول للنورمندي مع أنه فندق عام يدخله جميع الناس !

واخذ السفير الألماني منذ ساعة وصوله وبعد ان فتح بابه على مصراعيه ، يدحض بطرق عديدة الدعاية الإيطالية ، بعبارات صاخبة

يزدري فيها بتلك الدعاية ، دون أن يداري خاطر انقوميون الايطالسي
ولا عواطف الطليان !

وأخذ يؤكد لجميع زائريه ان الفوهرر يريد استقلالا كاملا قاطعا
للدول العربية ، لا انتداب ولا حماية فيه ، وان الدعاية الايطالية ولو كانت
أتية من هيئة رسمية حليفة لالمانيا فانفوهرر لا يقرها ولا يرضى بها .

وقيل يومئذ حول هذا اشياء كثيرة لها شأنها وقد يكون من الواجب
ذكرها ، مع الاستناد على وثائق مصلحة الاستخبارات الفرنسية
في صدد هذا .

قيل ان القومسيون الايطالي اتصل بالاستاذ اميل آده اتصالات
عديدة ، واقترح عليه التعاون مع ايطاليا ، ففي حالة ذهاب فرنسا من
البلاد تأخذ ايطاليا مكانها .

كنا نعرف هذه الاشياء من مكتب الاستعلامات الفرنسي ، الذي
كان المسيو شامبار صديقنا الاكبر من اركانه ، وكثيرا ما كان يطلعنا
على ما كان يصل اليه من اخبار هامة .

والمعلومات التي كانت عند ذلك المكتب بهذا الصدد تقول أيضا ان
الاستاذ اميل آده قال للطليان انه في حالة ذهاب فرنسا من هذه البلاد
يريد لبنان مستقلا عن البلدان العربية ليس عليه انتداب ولا استعمار
بل تكون له ضمانة دولية ، بفضل ان تكون ضمانة ايطالية ، وليس المانية .
فاهاالي لبنان النصراري لا يقبلون بوجه من الوجوه أية حماية أو نفوذ
الماني في بلادهم .

وهنا نرجع إلى التعاكس والتضاد بين الطائفتين الكبيرتين في البلاد
فانما لو كان المسلمون تظهروا تعلقا وصدقة لايطاليا لاخذ النصراري
امكانهم ولهتفوا في كل حين « هيل هتلر » .

وتقول تلك المعلومات كذلك الامر ، ان القومسيون الايطالي اتصل
باواسطة مع بشاره الخوري ، وكان جواب هذا الاخير في دهائه السياسي
ومعرفته انتخلص من المواقف الحرجة قوله انه لا يمكنه ان يجيب على شيء
في هذا المعنى ، فهو مرتبط بحزب طويل عريض ، ولا يستطيع ان يتخذ
اي قرار الا بموافقة ذلك الحزب ، وليس بالامكان عرض مسألة مثل

هذه علنا على هيئة اركان ذلك الحزب ، مما قد يتصل خبره بالامان حتما فيغضبهم من جهة ، كما انه يغضب الفرنسيين من جهة ثانية ، وهم لا يزالون منتدبين وحكام البلاد ، وهذا مما يعرض رجال الحزب لخطر كبيرة اقلها الارسال الى المعتقل .

لذلك هو سيعمل على جس نبض حزبه بطريقة كتومة ، وبعد ذلك يقول لقومسيون ما يكون الحزب قرره .

وكان السفير الالماني - تجاه القومسيون الايطالي صريحا كثيرا - اذ انه كان في مقابلته لكبار الرجال في هذه البلاد لا يتورع من تكذيب ادعاءات ودعاية القومسيون التي كانت تزعم ان البلاد تريد الحماية الايطالية . وكان فون هنتش يكذب هذا الزعم بطريقة قاسية ، مما جعل وجوده هنا يخفف كثيرا من نشاط الطليان ومن تردد الناس عليهم ، وهذا ادى بحاشية القومسيون ، وفي رأسها صديقنا الظريف السنيور بنتو القنصل بيروت سابقا والمحق السياسي بالقومسيون ، يساعده أيضا صديقنا المعروف الاستاذ الشيخ ادمون طويبا الذي كان موضوع تقدير وثقة الطليان - قلنا وهذا جعل الحاشية تتجدد لدعوة اصدقاء ايطاليا والالاحاح على الناس بوجوب التردد على القومسيون ، كيما لا يقول الالمان انهم عندما يحضرون لا تبقى الطليان قيمة !

وكان قيل بهذا الصدد ان ايطليان دفعوا كثيرا من المال هنا وهناك كيما يجعلوا الناس يتظاهرون لهم ، فيكذبون هكذا مزاعم فون هنتش . ولكن الدفع لم يكن صحيحا تماما ، ليس لان الطليان لم يكونوا مستعدين له ، أو ان ابائهم يجعلهم لا يعتمدون عليه بل لان موازنة القومسيون الهزيلة كانت وصلت الى اخر رفق عندما وصل السفير الالماني فلم تكن تسمح لهم بالتوسع والكرم وقد اتضح هذا الامر تماما عندما حاول صديقنا السنيور بنتو اقتناع بعض اوجهاء بنادي بيروت بتأييد الدعاية الايطالية وكان يقول انه يستطيع مقابل ذلك منحهم صداقة ايطاليا الان ومساعدات مالية فيمماهد ، ولكن الناس في هذه البلاد يلاحظون كثيرا في متاجراتهم السياسية القول الواقعي المعروف الدارج القائل : « مال ابيض بالقييض » .

واقسم لنا بنتو ذات مساء عندما كنا نعاتبه ونقول له ان المال وحده

يمكنه ان يساعد القومسيون فاكد انه لم يبق لدى ذلك القومسيون
من الفلوس غير اجرة الطريق !

وكان رياض اتصلح وسامي الصلح اللذان زارهما فون هنتش في
منزليهما حالا عند وصوله من أكثر المترددين عليه صراحة وجرأة وذلك
عندما طلبا منه تسجيل العهود التي يقولها بلسان الفوهرر عن استقلال
البلدان العربية في مذكرة يحملانها للزعماء العرب ويعلمانها على الناس .

وقالت المعلومات الفرنسية الواصلة يومئذ للمسيو شامبار ، ان
السكرتير الألماني اكتفى بالجواب على هذا الطلب بقوله ان راديو برلين الذي
يتكلم باسم الحكومة الألمانية يردد هذه العهود كل ليلة ، وهذا يجب ان
يكفي ، كما وان الوعد الذي اذاعه الفوهرر في تلك الاذاعة معلنا استقلال
البلدان العربية يجب ان يحترمه العرب أكثر مما يفعلون .

وكان المسيو شامبار يقول ايضا ، ان السكرتير الألماني عندما ودع
رياض الصلح في اليوم الذي اضطر فيه للعودة الى برلين قال له :
- يجب ان تعتمزم أخيرا ونهائيا وتجلي موقفك ، فهل أنت معنا أم
مع الانكليز ؟

وقيل ان رياض الصلح اجاب : انا نفسي لا اعرف هل انا مع الانكليز
أم مع الالمان ، ولكنني من المؤكد سأكون مع الذين يحررون بسلاوي ،
ويحترمون استقلالها ولو كانوا من اهل جهنم !

حاشية - امس فقط ، قيل صدور هذا الكتاب بايام في بداية هذه
السنة ١٩٥٢ من السكرتير فون هنتش ببيروت آتيا من الشرق وذاهما لبرلين ،
ونزل ضيفا على صديقه الكبير زميلنا الأستاذ كامل مروه الذي قرأ له هذا
الفصل من كتابنا فقال له السكرتير عنا :
- هذا هو الرجل الوحيد الذي فهمني جيدا والذي عرف في ذلك
الحين المهمة السرية التي كنت قد جئت لاجلها الى هذه البلاد .

الحاج غليوم لابزال ميا

وطبعا ، كما هي التقاليد في هذه البلاد ، عندما جاءت البعثتان لبيروت : الإيطالية في النورمندي ، والألمانية في الدويتشرهوف ، كنا نرى السياسيين والزعماء النصارى جهارا أو سرا يتجهون نحو النورمندي ، ونرى بطبيعة الحال الزعماء والسياسيين المسلمين يتجهون للدويتشرهوف وكما قلنا سابقا اذا كان بعض النصارى زار الدويتشرهوف فلم نر مسلما واحدا - يزور النورمندي !

ففي ذلك الوقت الحرج جدا ، كان من الواجب ايضا ان تلعب عندنا الطائفية دورها حتى في الامور الدولية . وكان من الواجب ايضا ان يكون بين الطائفتين الكبيرتين ، ما كان بين بشاره الخوري وميل اده ، في ان يرى اواحد منهما تماما عكس ما يراه الاخر !

وهنا لا يجب ان ننسأل كثيرا ماذا كان يومئذ موقف « الميكافيل » صديقنا حبيب أبو شهلا ، اذ اننا نذكر انه عند وصول البعثتين الى هذه البلاد استعاد ما كان يعرفه من اللغة الألمانية حالا واخذ يتحدث بها مع فون هنتش في مقابلاته العديدة له .

كان أيضا يعرف «شوية» طلياني كما كان يقول ، ومع هذا كان يتردد بالاكتر على فون هنتش ، مع أنه كان يشترك في كل وليمة تقام على شرف الطليان !

وكان يقول لنا انه لا يفرق بين البعثتين اذ انه لا يريد ان يعمل للشقاق بين دولتي المحور العظيمتين !

وكانت المعلومات الفرنسية عند المسيو شامبار تقول ان الاستاذ أبو شهلا ، يزور الالمان ويختلط مع الطليان ، تنفيذًا للخطة المرسومة !
واية خطة مرسومة ؟

فهل كان أبو شهلا منذ ذلك الزمان عاملا للحلفاء وعميلا لهم .

وأما نحن شخصيا فلا شك اننا عملنا مثل غيرنا من اهل الفهم والظرافة ، ومن المؤمنين بانتصار الحلفاء النهائي مع كل ما كان يصيبهم في ذلك الوقت من انكسارات، وذهبنا مثل أبي شهلا نزور البعثيين ، اذ للمآذ يجب ان نكون مع الواحدة ، وأييس مع الاخرى أيضا ؟

ونذكر بالمناسبة اننا في مساء اليوم الذي زرنا فيه القومسييون الايطالي بطريقة علنية ، سألنا اهل نادي بيروت ، حيث كنا نقضي سهراتنا وكنا جئنا للنادي نتأبط ذراع صديقنا السنيور بنتو الذي كنا على ارتباط كبير معه ؟ قال لنا احد الاصدقاء انظر فاء :

— لا احد يعرف افضل منك ، فهل الطليان يدفعون ؟

وهكذا الروح التجارية في السياسة عندنا لا تغيب مطلقا .

ولم يكن يخطر على بال احد من اهالي هذه البلاد ان الطليان يقومون بدعاية لهم في لبنان الا وهناك اموال يدفعونها . وكان الناس في ايمانهم هذا غير ملامين ، اذ انهم كانوا قد اعتادوا على اموال الفرنسيين والانكليز كما وانهم كانوا لا يهابون الطليان مما جعلهم لا يؤمنون ان ايطاليا يمكن ان تعمل لها حزبا في هذه البلاد الا عن طريق المال .

قلنا اذ ان الناس كانوا قد اعتادوا على اموال الفرنسيين والانكليز عندما اخذ كل منهم يعمل دعاية لنفسه مرفوقة باكياس الذهب وانقراطيس المالية .

فانما في هذه البلاد احترام المال واشتغاهه فطرة طبيعية

وكان من الادلة الاولية لمثل هذه الفطرة مداراة واحترام التأثيرين على الفرنسيين في كل حركة وطنية قامت ضدهم وحتى في ثورة الاستقلال — للبنك — بنك سوريا ولبنان المؤسسة الفرنسية المالية — مع ان خصوصها المعروفين كانوا يخلقون لها المتاعب ويروجون عن الشائعات المستغربة ، ومن شائعات تدخلها بالسياسة وتمويلها مرشحا معلوما لرئاسة الجمهورية ، في اخر عهد الانتداب — وكان قيل يومئذ انه حميد بك افرنجية ولكنه شيء ثبت كذبه بعد ذلك ، وقد كان البنك دوما يقف على حيد تام من امورنا السياسية مما كان يعرفه تماما زعماء ثورة الاستقلال سنسنة

١٩٤٣ ، فاستثنوا البنك عن كسب حملاتهم على المؤسسات الفرنسية
وعلى كل ما هو فرنسي .

وقد يكونون فعلوا ذلك خصوصا لمعرفة ان اول البنك لما كانت
هناك ضمانات للعملة اللبنانية، وبالطبع للعملة السورية أيضا .

ولكن انرجع الى حديثنا السابق . .

وقال الناس تجاه دعاوة اللجنة الايطالية ان التاريخ يعيد نفسه ،
وكما تزاحم الانكليز والفرنسيون في اخر الحرب الاولى على هذه البلاد
ودفع كل منهم الاموال لاكتساب الانتصار ، هكذا يتزاحم الطليان والالمان
هذه المرة . ولكن اعتقاد اكثرنا ، انه اذا كان الطليان - لربما يدفعون او
يستطيعون عمليا الدفع - فالالمان عندهم من القوة والغرسة واليأس
الحديدية والطبور الخامس ما يجعلهم يأنفون عن دفع المال ، فضلا عن
انهم دوما ما عرفوا ولا تعرفوا الى مثل هذه العادة .

وضحك اهل النادي كثيرا عندما قلنا لهم ، ان الطليان طبعا يريدون
ان يدفعوا ولا يؤخرهم عن ذلك عدم وجود زبائن يقبضون ، بل قلصة
المال فقط .

والحق كانوا هكذا!

فالاخ موسولينني ارسل قومسيونه يعمل دعاية لحماية تفرضها
ايطاليا على هذا المشرق المستثمر المادي انه يرض
بها اهالي البلاد اعجابا به وبايطاليا!

وطبعا - كما قلنا - لم يصرف الالمان ماركا واحدا ، فانما الالمان
كانوا مستعدين لغرض دعاوتهم قرضا وهي دعاوة كانت قد عملت عملها
تماما ، واحتلت منذ زمن بعيد بنوع خاص ، وعن طريق غير طريق الخوف
والرعب ، مكانة كبرى عند المسلمين الذين لم ينسوا ولا مرة ان المانيا
الملكية ، ثم اقيصرية ، قبل المانيا الهتلرية بزمان وزمان كانت دوما تأخذ
جانب الدولة العثمانية المسلمة في حروب روسيا معها ، وظلت المانيا
هكذا حتى ايامنا هذه ، كما وانها كانت دوما تأخذ جانب المسلمين في
قضايهم الدولية ، وتعمل على اكتسابهم من جانبها .

وكان امبراطور المانيا الاخير ولهم الثاني زار استنبول والكثير من

بلدان امبراطورية بني عثمان ، وبنوع خاص سوريا ولبنان ، وذهب من بيروت يحمل لقب انحاج غليوم ، وهو لقب اعطاه اياه اصدقاؤه قبيضيات الميناء في ذلك الحين ، لما اظهره من صداقة للمسلمين وازيارته المساجد .



ولم تطل المزاحمة كثيرا بين لوكندة التورمندي وبين لوكندة الدويشرفهوف اذ ذات صباح في حزيران ١٩٤١ هرب ابو علي وسفيره والهر روزر وهرب القومسيون الايطالي مع كل قواده ، فقد كان الانكليز والديغوليون قد بدأوا زحفهم على لبنان ، واخذ الجنرال دانز يحاول صداهم باسم حكومة فيشي ، الذي رأى من واجبه كقائد شريف أن لا يخون عهدها وان يحافظ على المهمة التي اناطت بها به .

وما أسرع اعضاء البعثة الالمانية والقومسيون الايطالي بالرحيل نحو تركيا الا عندهما كانت جيوش الحلفاء وصلت للامور . واخذ كل من كان يظن نفسه مشبوها تجاه الحلفاء من اللبنانيين يهرب أيضا ، كما وان الاصدقاء المعروفين للمحور ، او الخصوم المعروفين للحلفاء ، اخذوا يتراكضون نحو الشمال ، وكان في مقدمتهم الامير عادل ارسلان ، وكنا قد قابلناه في مطعم العجمي ساعة رحيله ، وطلب منا ان نقنع ابن عمه الامير امين ارسلان بالبقاء ، فهو ليس عليه شيء يخشى منه . وعندما التقينا بالامير امين وهو يستعد مع نجله لركوب السيارة ، واخذنا نقنعه بالبقاء ، ونؤكد له بضمانات معروفة كثيرة كان الفرنسيون قد اعطوناها ايها ، ان ليس هناك خطر ينتظره من دخول الانكليز والديغولييين للبلاد ، قال حاتقا غاضبا :

— وهل يكون ابن عمي عادل صديق ألفوهرر أكثر مني ؟

ابنه انت يا مارون

وكان هجوم الحلفاء وانديغوليين ، وكان هرب البعثان الالمانيّة
والايطالية ورحيل العائفين من الزعماء الوطنيين الذين كانوا قد ترددوا
على البعثتين ، واتصلوا بهما ، وقدم كل منهم التأييد والمناصرة والخدمات
حسب اهوائه وميوله واعتقاده وتكهنه في أي من اتجانين : الطلياني
والالماني هو الذي سيكون سيد هذه البلاد .

قلنا هرب هؤلاء عند الهجوم ، واخذ الحلفاء يقصفون بيروت
بطياراتهم بطريقة متواصلة ، والناس في قلق واضطراب يفتش كل منهم
عن مارون عرب ، بالرغم من أنهم كانوا يعرفون يومئذ ان الفرنسيين
كانوا قد ابعده . قلنا واخذ الناس يفتشون عن مارون عرب ليحكى لهم
مع الانكليز ليكفوا عن ضرب بيروت ، فانما حتى ذلك الحين أيضا كان
الناس يعتقدون ان صديقنا مارون عرب يعمل ما يريد بالانكليز ، ليس
فقط في قنصليتهم السابقة وسفارتهم اليوم بيروت ، بل أيضا في قصر
بوكنغهام ، وفي بناية الدوننج ستريت بلندن رقم ١٠ !

قلنا ، كان مارون عرب بعيدا ، ولكن عينه كانت دوها ساهرة
ناظرة عارفة تسجل للمستقبل كل حركة من حركات السياسيين والزعماء
الوطنيين أينما كانوا ، في حياتهم العامة أو في خلواتهم الخاصة .
وكان هناك غير عين مارون . وكان هناك العدد المستتر المتنكر من
عمال « الانتلجنس سرفيس » الانكليزية الذين لا يعرفهم غير الله ،
وغير اساتذتهم ، يراقبون وينظرون ويعرفون .

وقد ظهر بعد ذلك انه كان عندنا عمال ثلاثلجنس سرفيس بين
عتابة الميناء وباعة الحمص وتجار الخشب ، وبين سماسرة الاشغال
والاعمال كما كان هناك عمال لها من النواب ورجال الاعمال ، وحتى من
الرهابين ، ومن تجار الحشيش ، والنساء الجميلات المخدرات ، وبنات
الرقص والملاهي ، مما لم يكن احد يشتمه بهم ولا يخطر على باله ان هذا

الولد الذي يبيعك سيكارات مهربة ، وهذه الحسناء التي ترقص في الليدو
تعرض عليك محاسنها هما من جماعة مارون عرب ، أو بالاحرى من
جماعة مصلحة الاستعلامات الانكليزية !

ولا شك ان كل واحدنا ، مع معرفته بما هي عليه مصلحة المعلومات
الانكليزية من قوة ونشاط ، وما يمكنها ان تعرفه عن كل منا ، ما كان
يريد ان يكون بجلد الزعماء الذين توددوا وترددوا كثيرا على البعثتين
المعروفتين ، وذلك في اوقت الذي كانت جيوش الحلفاء قد تخطت الحدود
السورية اللبنانية !

لهذا يجب القول ان اللبالي التي قضاها هؤلاء الزعماء في اضطراب
وخوف كانت قاسية عليهم جدا .

وذكروا لنا بعد ذلك عنها اشياء عديدة بعد ان اطمئنوا لانفسهم
عندما لمسوا تسامحا غريبا عند الحلفاء بعد دخولهم ابلاد . وقال لنا
اولئك الحكايات انكثيرة عن آياليهم الفلقة المضطربة وانها اخافتهم
أكثر مما كانت تخيفهم قبائل الغارات الجوية ، التي ظلت عشرين يوما
كاملة تقصف بيروت دون هوادة ولا هدنة .

ولا شك اننا نستطيع التساؤل عن هؤلاء الزعماء السياسيين ونقول :
- أيهم عندما جاءت البعثتان ، لم ينقلب من فرساوي او انكليزي
الى الماني أو الى ايطالي ؟

وأيهم غير اقليل جدا ، لم يتوسط الهر روزر او فون هنتش ، بل
يكون توسط صديقنا بنتو ، سكرتير القومسيون الطلياني ، ليحظى بالمقابلة
ويؤكد ولاءه واعجابيه ، وحتى ليقول امام الالمان او الطليان عن الحلفاء
كل شيء ذميم وفظيع ، ويقدم للبعثتين معلوماته التي قد يكون منها
ما هو خطر على الحلفاء ؟

وايضا أي بيت من البيوت الكبيرة التي كانت تقيم الولايم السخية
اللاهية العابثة المتلونة ، المتعددة التسالي الغائصة في بحور الخمرة والحسان لجمال
بانثا ولانور ولعزمي ولعلي منيف من قبل ، ومن بعدهم للقواد والاسياد
الانكليز الفرنسيين عند الاحتلال سنة ١٩١٨ ، والمفوضين الساميين
السامين والجنرالية والساسة في عهد الانتداب ، وايضا هذه البيوتات
وهي نفسها تزاحمت الدعوة الطليان والالمان الذين جاؤوا يطبقون الهدنة في

هذه البلاد ، وذلك في ولائم وأعياد لها ذات السخاء والمكارم والملاهي
والفخخة والحسن والجمال !

فانما نحن من الشعوب التي يمر عليها الفاتحون مرتين وثلاثة مرات
كل مئة سنة ، وتجعلنا شريعة المحافظة على الحياة نستقبل كل فاتح
بالترحاب والتودد واحناء الرأس ، مهما كان بغيضا علينا .

ولا نذهب الى ابعد من ابراهيم باشا المصري وغزوته للبنان وسوريا
وبلاد الاناضول ، ثم الجزائر الذي تجكم بجبل لبنان تحكما فرعونيا ، ومن
بعده جمال باشا والأتراك في الحرب الماضية ثم غورو وويغاند والانتداب
ثم قول هنتش وبتنو في عهد فيشي وبعد الاستقلال سيرس وكاترو
وساود الروسي السوفياتي .

فانما يجب ان تكون فرنسا وانكلترا وأميركا حتى البرازيل
والاكوادور، عرفت المكسحين انفاجحين كما عرفهم لبنان يدخلونها عنوة
ويتحكمون بها بالسيف والترس حتى لا تعود تستهجن عندما تعرف ان
البنانيين اضطر وامثلا خلال هذه الاربعين سنة الاخيرة التي مرت عليهم ان ينقلبوا
من اترك الى فرنسيين - عن طريق الانتداب . ثم الى انكليز - عن طريق
ثورة بشامون - ومن بعد ذلك لمدة قليلة الى مستقلين عن طريق الجلاء،
والان - مبدئيا وعمليا معا ينقلبون الى أميركان اعتبارا عند كل لبناني
ان أميركا بدأت تأخذ مكان فرنسا وانكلترا وجميع دول الارض في هذه
البلاد ، وذلك في ولائم وأعياد لها ذات السخاء والمكارم والملاهي والخمرة
اذ في ذلك الوقت لم تكن الشيوعية اتخذت بيروت مقرا لقيادتها في الشرق
الاوسط ولم يكن ساود دمن بعده خلفه الحاضر قد وصل الى هنا وأخذ
بشتغل وهو صامت ساكت .

والبناني بطبيفة حانه لا يمكنه ان يؤمن نهائيا انه مستقل ، فانما
هكذا علمته الاجيال التي عاش فيها دوما مستقلا ولكن تحت رحمة غيره
ودوما تابعا وجزءا من غيره .

وعنده هذا الهاجس انه لا يمكنه ان يؤمن بالاستقلال حتى في هذا
الوقت الذي يفخر ويعتز فيه على جميع الشعوب العربية بانه وحده
- مع السوري - على استقلال كامل لا احتلال اجنبي - حتى بالصورة
الرمزية التي بالعراق والسعودية وغيرها .

الاستقلال الذي لا تؤمن به

اي متى كان الاستقلال في لبنان ؟

هل في ايار ١٩٤١ عندما رمت طائرات الحلفاء الانكليز والديغوليين على المدن والقرى بسوريا ولبنان منشور الجنرال كاترو المشهور الذي اعلن نهاية الانتداب الفرنسي في البلدين وقيام استقلالهما حالا وبمجرد دخول الحلفاء طافرين اليهما .

هل يكون بدأ الاستقلال عند ذلك التاريخ - في حين انه لم يتبدل علينا شيء بعد ذلك المنشور وبعد دخول الحلفاء وحتى خلال سنتين المتين جاءتنا بعد انكسار الفيشيين سوى أن المفاوضات السامية للجمهورية الفرنسية في سوريا ولبنان غيرت اسمها واخذت اسم المندوبية العامة للجمهورية الفرنسية في سوريا ولبنان .

وكان الجنرال كاترو الذي استلم المندوبية العامة بعد سقوط الفيسيين كريما جدا عندما اعلن الاستقلال واحب أن يحيط ذلك الاستقلال الاسمي باطار من الزهور وجمهرة من السياسيين الدعاة وبالبروبغندا القومية مما كان يترك بعض الظواهر الجميلة للحكومة الوطنية وكانت عنده الباقة انه اخذ بكل ظرف يرفض ما يطلبه الساسة منه ان يفسر الاستقلال الذي اعطاه ، ابنى الجواب على هذا الطلب وذلك خوفا من ان يفسره ، حسب ما يريده الفرنسيون لنا ، وليس حسب ما نريده نحن لانفسنا مما كان يعرف جيدا انه يغضب الاهالي ويزيد في مخاصمتهم فرنسا .

ظل كاتروا يخادعنا ويخدعنا مكرمة منه - ومن الاكيد انه لو كان الامر بيده لكان عمل لنا اكثر مما كان يعمله لبلاده .
قلنا ، وظل يخادعنا ويخدعنا ولا يريد أن يقول - كما كان يفتكر فعلا - انه يتمنى استقلالنا استقلالا صحيحا ، ولكن فرنسا الديغولية

لا تريده هكذا ، وقد اعلنته ولكن لتربطه باتفاق معنا ، يترك لها جميع
ميزاتها العسكرية والسياسية والاقتصادية - كان كاترو يعرف ذلك ولا
يقوله - وكنا نحزر ذلك ولا نلح عليه في الجواب ، خوفا من
ان نضطره لان يعمل الشيء الذي كان يتحاشاه وهو اخجال نفسه أمامنا .

وظلت الحال بيننا وبين كاترو هكذا - حتى جاء دي غول الى بيروت -
وباض بيضته المفضوحة في خطابه الصارخ بنادي الاونيون الفرنسيون
على الازيتونه عندما اعلن ان الاستقلال لسوريا ولبنان لا يعني تخلي فرنسا
عن مركزها السياسي والعسكري والاقتصادي والتقليدي في البلدين .

وبعد هذا الكلام ما عاد الجنرال كاترو صديق هذه البلاد الصادق
يعرف كيف يستتر خجله ويخفي رأسه . فهو ولا شك كان خجولا مما
جرى وقد قال شيئا من هذا في المذكرات التي كتبها بعد ذلك ، وكان
فيها صريحا جدا .

فانما الاستقلال في نظر دي غول كان معناه دوام الانتداب مع هذا
الفارق ان الانتداب كان تسوية بين جامعة الامم وبيننا ، ودي غول اراد
ان يكون تسوية بيننا وبين فرنسا لوحدها - على ان يسميه هو ونسميه
نحن استقلالا .

ولكن الاستقلال الحقيقي الذي يعني السيادة الوطنية - وهو لاستقلال
الذي اراده كاترو لنا ، لم نعرفه الا بعد ذلك بكثير ، وليس في ثورة بشامون
- كما يريد الكثيرون قوله ، اذ عندها كان لبنان يستقل ببشامون كان
الجند الفرنسي في البلاد يحتلها من جميع جهاتها .

انما الاستقلال الحقيقي كان في اليوم الذي جلا فيه اخر عسكري
افرنسي عن هذه البلاد .

وذلك عندما ذهب الثلاثة الكبار كميل شمعون ، رياض الصلح ،
حميد افرنجيه ، يرافقهم سياسي لبناني قد لا يطيب لنا ان يرافقه / اسمه
هذه الاسماء الصادقة الوطنية الصالحة وذلك عندما ذهب هذا الوفد
للندن وباريس ورجع الينا يحمل وثيقة الجلاء .

وهي وثيقة الاستقلال الحقيقية التي سنتكلم عنها مليا وعن رجالها
عندما يأتي الوقت .

وهو الاستقلال الذي - ما زلنا - مع كل ما نتمتع به من حسنات
لا نؤمن به كثيرا كأنه ثروة هائلة سقطت فجأة على شحاذ فآخذ
يقضي الدهر ولا يصدق انها حقيقة وهو في ضعفه وهزاله وازدراءه
بنفسه لا يمكنه ان يعتبر انها له .

الفصل الاخير من هذا الكتاب الاول

رجال على الاصابع

والان ، ما هو الذي جعل الناس يفضبون على الدولة امس وجعل بيروت تقفل اسواقها شاملة وتضرب اياما وتثبت غضبتها على العهد .

هل هو العبث بالدستور ؟

او مفاوضات صلح مع اسرائيل .

او تزوير في الانتخابات ؟

او هو ظالم في المحاكم ؟

او عدم اعطاء المرأة حقوقها ؟

او ضرب ابوابيس للناس المسالمين بانبار ؟

لا هذا ولا ذاك ، حتى ولو ان كل هذه الرزايا كانت قائمة وموجودة فهي لا تشكل السبب الذي من اجله اضرت بيروت ، اضراب التهديد والوعيد ، لقد اضربت بيروت لان السياسيين المعارضين عرفوا كيف يظهرن للناس في ضاقتهم وافلاسهم ان رجال الدولة السالفة هم الذين اخذوا اموالهم وجوعوا البلد؟؟

لهذا ، اضراب بيروت لم يكن لخدمة هؤلاء الزعماء المعارضين ضد اولئك لزعماء الحاكمين .

كانت الحكاية مثلما او قيل لك انت مفلس لان الذي يحكمك اخذ مالك ورزقك .

وهكذا عندئذ تنظر الى حاكمك نظرتك الى رجل ظلمك وجوعك وتحكم فيك واغتني من فلوسك .

وعلى هذه القاعدة ولهذا السبب قام الاضراب الذي سبق الانقلاب .

والان هذا الذي يجب ان نبحث فيه في كتابنا الثاني .
من هم الذين اخذوا المال ؟ وجعلوا الناس مفلسين ، وكيف أخذوا
هذا المال .

وسنقول الحكاية الحقيقية عن الاستغلال والسلب .
وحكايات المحظوظين والنواب والزعماء وكبار التجار المتلاعبين .
ونقول الحقيقة ايضا عن النزاهة والتجرد اللذين حمل لوائهمنا
فقط بضعة سياسيين نهدمهم على الاصابع وقد تكون ايضا مخطئين في
تأكيدنا انهم باجمعهم كانوا شرفاء .

فانما لا بد للمشاة في وسط الشارع ان تبللهم الامطار على ان بعضهم
يحمل ربما مظلة تجعل تبلله خفيفا لا يصل الى اطراف رجله ويديه .



ولكن لماذا يتهم الاهالي الان السياسيين واهل الراي وحدهم
بالاستغلال .

لماذا بالاحرى يدور اهل البلد بوجههم نحو المستثمرين من هؤلاء
التجار والصناعيين ، الذين استباحوا - كل واحد منهم - بطريقة خاصة
صفقات التمويل والنقد النادر ، وباللات النسيج وتعهدات المطار وغير
المطار ، وصفقات الميموزا والزيت والارز .

وهي صفقات نعرف عنها الشيء الكثير الحقيقي ، وكثيرا ما شكونا
اصحابها لانهم كانوا يأكلون علينا الكثير من الحصة التي كانت لنا ، وقد كنا
لا نفتقر لنفسنا ونزدري بها لو تركنا كل هذه الصفقات تتم ونحن نتفرج
عليها من بعيد ونحضر السوق ولا نشترى ولا نبيع .

نعم سنبحث بكل شيء وعندها يجد الملاحظون ان الستافسكيين
عندنا كثيرون جدا وفي كل يوم يطلع علينا ستافسكي جديد في حين ان
ليس بفرنسا غير ستافسكي واحد كل عشر سنين .

واذا كان بعض السياسيين والتجار هنا لا يسلبون ولا يسرقون فذلك
ليس لانهم لا يريدون ، بل لانهم لا يعرفون او ان يدهم قصيرة لا تطال
شيئا يسرقونه .
نعم هكذا .

هذا هو الحكم الذي نحكّمه ونعلنه على الملأ .
وذلك لاننا لا نريد ان نفتخر ولا ننخدع حتى بالاكثر بالذين يفترضهم
الناس انهم فوق كل شبهة .

حاشية - كانت المفوضية السامية يوم حرب لبنان حرقت اوراقها السرية في اتون
الكلس باعالي منطقة الدكوانة ، وقد تناثرت اوراق عديدة هنا وهناك لم تصلها النار ، ومن
هذه الاوراق خلاصة ملف « دوسيه » كل سياسي لبناني كبير معروف ، وراي المفوضية
السامية فيه .

ونحن الذين التقطنا اكثر هذه الاوراق وجمعناها وحفظناها ، وهي التي ستنتشر في
الفصل الاول من الكتاب الثاني فيعرف عدد كبير من كبار السياسيين اللبنانيين ماذا كان
راي فرنسا فيه ، ويعرف الناس كيف كانت فرنسا تنظر الى اولئك السياسيين - مما هو
طريف وهام ، ومما هو اكتشاف كبير لم يسبقنا احد عليه .

فاي من الناس كان خصما للانتداب او صديق له لا يريد ان يعرف ما كان راي
الانتداب فيه ؟

واي لا يريد ان يعرف ماذا كان راي الانتداب في بشارة الخوري وباده وبرياض الصلح
وبعبد الحميد كرامه وبكميل شمعون وبجيب ابو شهلا وبعمربهم وبخير الدين الاحدب ..
الى اخره الى اخره .. مما هو عدد كبير للسياسيين نعرف نحن وحدنا سرهم من المصدر
الاعلى وقد كانت مقدراتهم بيده ومصيرهم رهن اشارته .

الكتاب الثاني : كاشف الاسرار وفضاح الخفايا وفتح الحصون !



... لا كان الفرنسيون يتنازعون مع الشريف وحلفائه الأتراك على سوريا ولبنان . (صفحة ١٩)



دخل رياض الصلح معنا على جورج بيكو (الى اليسار)
من باب ، وخرج لوحده من باب ...
(الصفحة ٢٥)



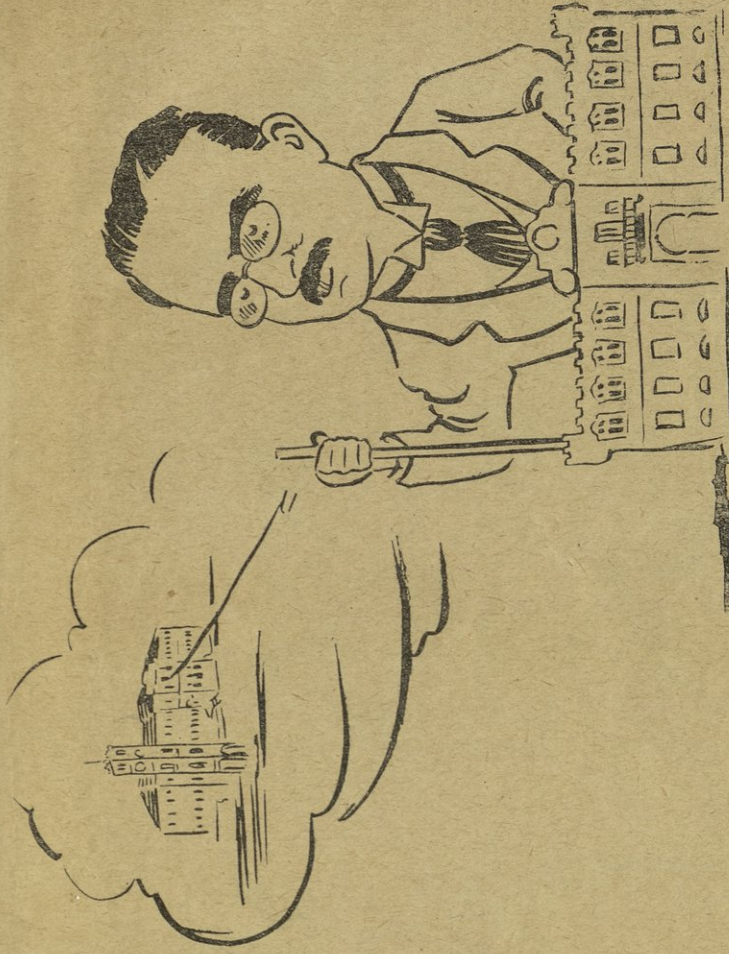
... يجلس الشيخ محمد الجسر في صدر رئاسة المجلس (صفحة ٤٠)



... كان في الواجهة بيروت الثلاثة المارونيون الكبار : أميل اده وجيب
السعد وجورج ثابت ، وذات صباح هبط من جبله الرجل الرابع ،
ودخل عليهم بخطوات وسيمسة قوية ...
(الصفحة ٤٠)



... عندما حكم السكرتيرية كان «مار دوكز» يعمل مايريد!
(صفحة ٤٧)



٠٠٠ لم ينقطع الخط بين سراي البرج وسراي المفوضية
ولا مرة في عهد رئاسة لد باس للجمهور ووربية

(صفة ٥٤)



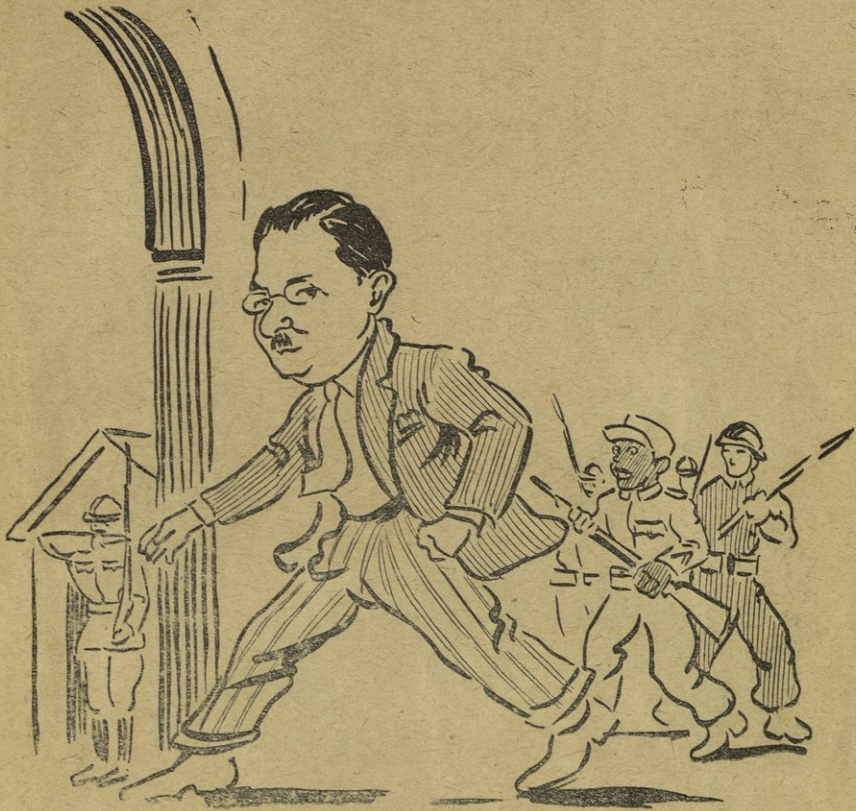
تشاهده في الصورة د: خلا الى معركة ...
(الصفحة ٨٦)



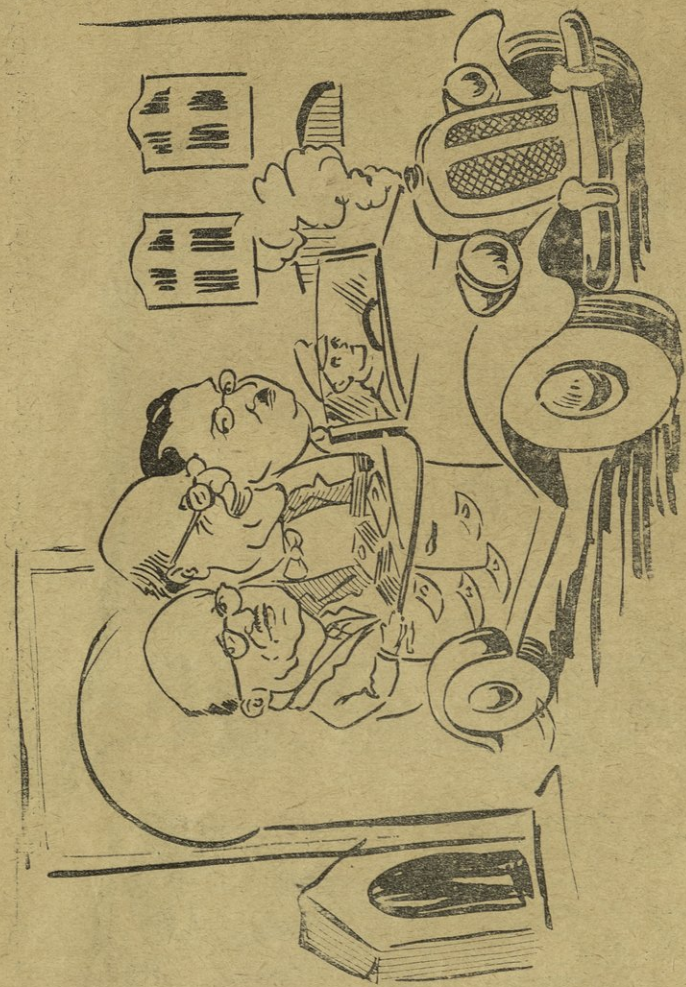
وكان دي مارتل ينظر للساحبات العاريات في بحيرة
المفوضية وعيناه تنضحان شبقا واشتهاء
(صفحة ١٣٣)



وقام المؤمنون في جامع امية يهتفون : « لا اله الا الله ، والبطيرب لعمر يضة حبيب الله » (الصفحة ١٣٦)



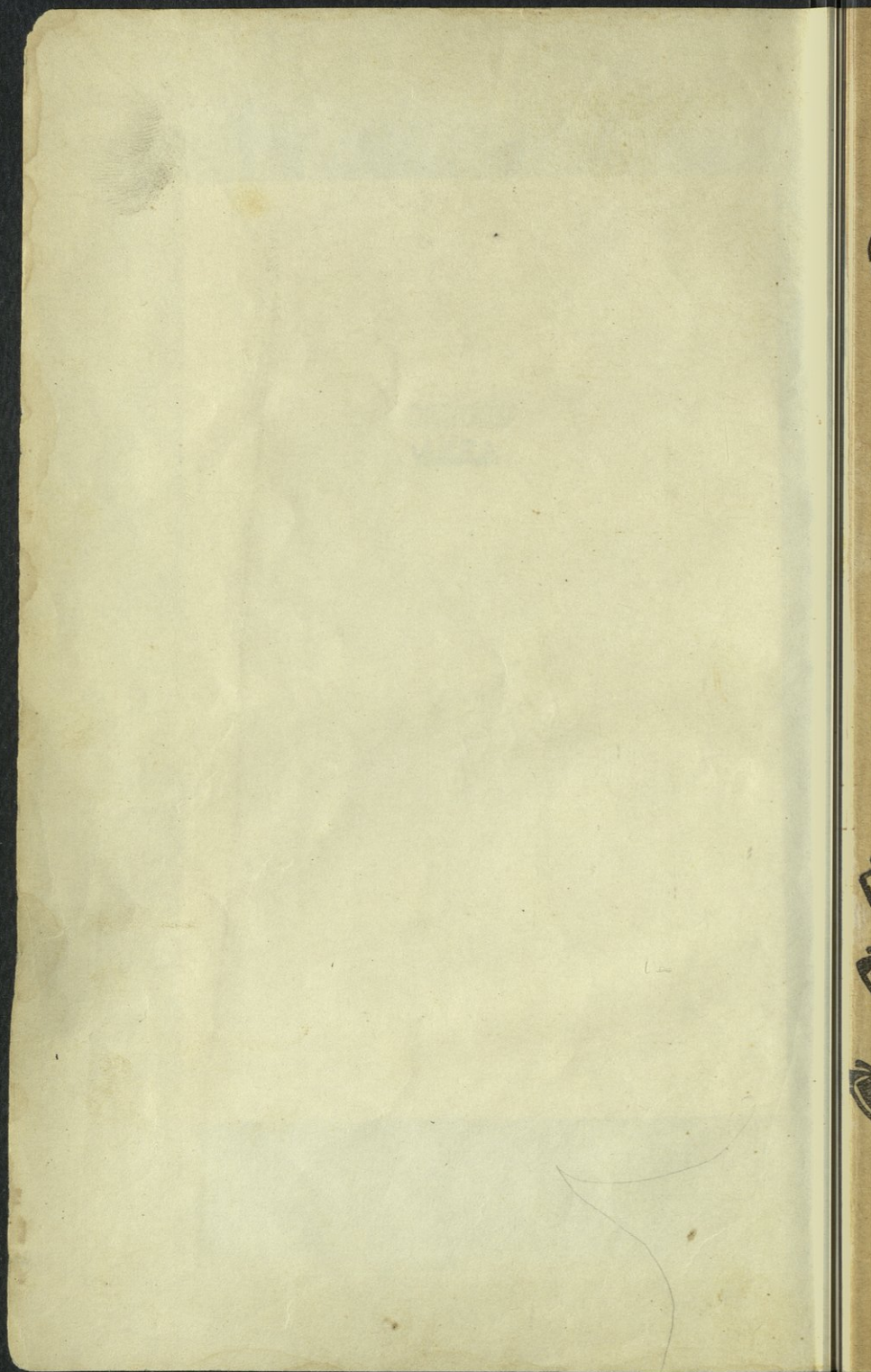
دخل خير الدين الاحدب للسراي قويا مغمرا ، ووراءه الجيش
الفرنساوي يحمي ظهره . (الصفحة ١٦١)



الفرسان الثلاثة : خير الدين الاحدب ، حبيب ابو شهلا ، جورج جيميري



••• وراح الهاشميون يتوددون الى لبنان ، فسارع السعوديون الى المقابلة بالكسل . (صفحة ٢٥٨)

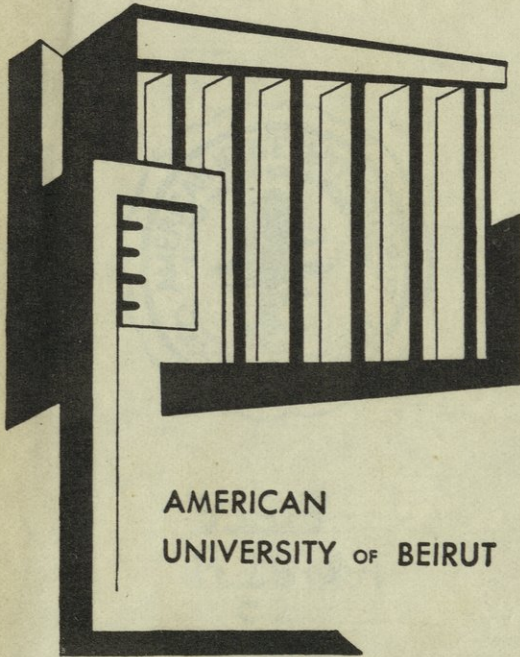


CLOSED
AREA

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



00292285



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

